سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الثالث عشر

سلسلة
القصص القرآنى



دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى


المجلد الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

لكى نصل إلى فتح مكة علينا أولاً أن نسير فى الطريق الذى سار فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه قبل أن يصلوا إلى أبواب مكة فاتحين لها فى رمضان عام ثمانية من الهجرة الشريفة .. وسنرى أن هذا الطريق شهد بعض الغزوات والسرايا والأحداث الجسام ..

وكان أهم هذه الأحداث صلح الحديبية فعمرة القضاء ، كما كان أهم الغزوات فتح خيبر ..

ولكننا لا نتعجل الوقائع ولنسر معاً على مهل لنصل فى النهاية بتوفيق الله إلى أبواب مكة المكرمة التى شرفها الله بالبيت الحرام وجعل زيارته ركناً من أركان الاسلام .. كما جعل التوجه شطره شرطاً من شرائط صحة الصلاة لكل مسلم فى أرجاء العالم ..

ولنبدأ معاً رحلتنا المباركة راجين من الله التوفيق والسداد ..

فى طريق الفتح المبين

- سرية القُرطاء وأسر ثمامة بن أثال .
- غزوة بنى لحيان .
- مصرع ابن أبى الحقيق .
- غزوة ذى قَرَد .



فى طريق الفتح المبين

أصبح من الضرورى أمام المسلمين أن يفتحوا مكة ليفرغوا نهائياً من داء الشرك والوثنية الذى يغذيه المشركون فى مكة ، والذى يهدد المسلمين بين الحين والآخر ، وذلك ليستطيعوا التفرغ للتبشير بدين الله خارج الجزيرة العربية ، لينطلق دين الله إلى كل مكان تصديقاً لقول الله تعالى

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (١)

ولكن قبل فتح مكة حدثت أمور وأمور كان لابد من حدوثها تمهيداً لذلك الفتح .

كان على المسلمين أن يقوموا بعمليات تطهير لتأمين الطريق إلى مكة ، ولضمان الاستقرار الذى لابد منه لنجاح الفتح . ولابد من الاشارة الى بعض هذه التحركات لأهميتها ولارتباطها بذلك الحدث التاريخى العظيم .

وكانت هذه التحركات بعضها فى شكل غزوات قادها النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه ، وبعضها سرايا انتدب لها الأكفاء من قواده وجنوده الذين أبلوا بلاءً حسناً وجاهدوا فى الله حق جهاده .

وسنعرض لبعض هذه السرايا والغزوات :

سرية القُرطاء وأسر ثمامة بن آثال

بعد غزوة بنى قريظة أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - محمد بن

---

(١) الفتح ٢٨

مسلمة الأنصارى الأشهلى ، وهو من أفاضل أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسله على رأس جماعة إلى « القُرْطاء » ـ بضم القاف وسكون الراء ـ والقرطاء هم بطن من بنى بكر ، كانوا ينزلون بقرية على طريق البصرة إلى مكة ، وهى إلى مكة أقرب ، وبينها وبين المدينة سبع ليال .

وأرسل معه ثلاثين راكباً . . وكان ذلك فى المحرم سنة ست من الهجرة . وعاد محمد بن مسلمة من مهمته إلى المدينة ظافراً غانماً ، ومعه أسير من بنى حنيفة كان مسيلمة الكذاب قد بعثه عيناً وفتنة للمسلمين ، وهو ثمامة بن آثال الحنفى .

وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يقيد هذا الأسير إلى جوار سارية من سوارى المسجد ليرقب صلاة المسلمين ، ويعرف أمرهم . . . . .

وكان المسلمون حين أسروه لا يعرفون من أمره شيئاً ، فقال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أتدرون من أسرتم ؟ قالوا : لا .

قال : هذا ثمامة بن آثال الحنفى ، فأحسنوا إساره .

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبعث له بطعام كثير . . ولكن هذا الأسير عزف عن الطعام .

لقد عرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكان ثمامة فى قومه ، لقد كان سيداً من سادات بنى حنيفة ، وعظيماً من عظائمهم .

ومرَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه ـ فقال له : كيف حالك يا ثمامة ؟ ماذا عندك ؟

فقال ثمامة : عندى خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تُنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما تشاء . فتركه النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الغد .

ثم مر عليه فى غده فسأله السؤال نفسه : ماذا عندك يا ثمامة ؟
فأعاد ثمامة الجواب نفسه ..
فتركه النبى - صلى الله عليه وسلم - دون أن يرد عليه ..

ثم عاد إليه فى اليوم الثالث : فأعاد عليه السؤال : ماذا عندك يا ثمامة ؟
فأجاب ثمامة بما أجاب به قبل ذلك .
فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : أطلقوا سراحه .
فأطلقوا سراحه .. دون فداء ..

فانطلق ثمامة حتى أتى حائطاً من حوائط المدينة ، فاغتسل فيه وتطهر ، وطهر ثيابه ، ثم جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس فى المسجد فقال : يا محمد ، لقد كنت وما وجهٌ أبغض إلىّ من وجهك . ولا دين أبغض إلىّ من دينك ، ولا بلدٌ أبغض إلى من بلدك ، ثم لقد أصبحتَ وما وجه أحب إلى من وجهك ، ولا دين أحب إلىّ من دينك ، ولا بلد أحب إلىّ من بلدك ، وإنى أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله ..

يا رسول الله ، إنى كنتُ خرجت معتمراً ، وأنا على دين قومى . فأسرنى أصحابك فى عمرتى . فسيِّرنى - صلى الله عليك - فى عمرتى .

فسيَّره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عمرته ، وعلَّمه .

فخرج ثمامة إلى مكة معتمراً . .

فلما قدم مكة ، وسمعته قريش يتكلم بأمر محمد ﷺ ، قالوا : صبأ ثُمامة . .

فقال : والله ما صبوت ، ولكننى أسلمت وصدَّقت محمداً ﷺ وآمنت به ، والذى نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة ـ وكانت اليمامة ريف مكة يأتيهم منها الحب ـ حتى يأذن فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانصرف إلى بلده ـ ومنع حمل الحبوب إلى مكة . .

فأصاب قريشاً جهد كبير . .

فكتبوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألونه بأرحامهم إلا كتب إلى ثمامة أن يخلى لهم عن طعامهم . فكتب إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك .

لقد حققت هذه السرية هدفاً عظيماً حين عادت بهذا الأسير الذى كان لإسلامه هذا الأثر الكبير . والذى استطاع أن يصيب قريشاً فى مقتل حين أمسك عنها ميرتها ، وحجز عنها مئونتها ، فأصابها جهد شديد حتى اضطروا إلى أكل الميتة .

قالوا : وفى ذلك نزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾[٢]

---

(٢) المؤمنون ٧٦

قال القرطبى فى تفسيره : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى قصة ثمامة ابن آثال لما أسرته السرية وأسلم ، وخلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبيله ، فحال ثمامة بين مكة وبين الميرة ، وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز .

قيل له : وما العلهز ؟

قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر فيلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه .

فقال أبو سفيان لرسول الله : أنشدك الله والرحم ، أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - بلى

قال : فاكتب الى ثمامة أن لا يمنع عنا الحنطة فقد أصابنا الجوع .

فنزل قوله - تعالى -

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[٣]

وحقاً ذلك ، فبعد أن كتب النبى - صلى الله عليه وسلم - لثمامة ، فعفا عنهم وسمح لهم بالطعام ، عادوا إلى شقاقهم وكفرهم وعنادهم . .

أبو سفيان يدبر لإغتيال النبى :

ولنقرأ هذا الخبر لنعرف كيف قابل أبو سفيان الإحسان بالنكران . .

أرسل أبو سفيان بن حرب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - رجلاً ليقتله .

---

(٣) المؤمنون ٧٥

ذلك أنه قال لنفر من قريش : ألا أحد يغتر محمداً فإنه يمشي فى الأسواق ؟ - أى يأخذه على غرة . . .

فأتاه رجل من الأعراب فى منزله فقال له : قد وَجَدتَ أجمع الرجال قلبا وأشدهم بطشاً ، وأسرعهم شداً ، فإن أنت قويتنى خرجت إليه حتى أغتاله ، ومعى خنجر مثل خافية النسر ، وإنى هادٍ بالطريق ، وأسبق القوم عدوا .

فقال أبو سفيان : أنت صاحبنا ، فأعطاه بعيراً ونفقة ، وقال له : اطو أمرك . فخرج الرجل ليلاً ، فسار على راحلته حتى وصل المدينة ثم أقبل يسأل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو فى مسجد بنى عبد الأشهل .

فأقبل الرجل بخنجره ليغتاله . فلما رآه النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : إن هذا ليريد غدراً .

فجذبه أسيد بن حضير بداخلة إزاره ، فإذا بالخنجر ، فأسقط فى يد الرجل . . .

فقال - صلى الله عليه وسلم - للرجل : اصدقنى ، ما أنت ؟

خاطبه خطاب ما لا يعقل .

قال الرجل : وأنا آمن ؟

قال : نعم .

فأخبره بخبره ، فخلَّى عنه .

فقال الرجل : يا محمد ، والله ما كنت أَفْرَق - أخاف - الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ، ثم اطلعتَ على ما هممتُ به مما لم يعلمه أحد فعرفتُ أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان .

فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبتسم .

وأقام الرجل أياماً ثم خرج ، فلم يسمع له بذكر[4] .

ونعود إلى ثمامة فنقول : إن إسلامه كان خيراً وبركة عليه وعلى الإسلام ، ذاك أنه قد ثبت على إسلامه فى الردة ،

ووقف فى بنى حنيفة مدافعاً عن الاسلام حاضا عليه ، مكذباً لمسيلمة وكان يقرأ قوله تعالى :

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ ﴾[5]

ثم يقول أين هذيان مسيلمة من هذا ؟ فأطاعه من قومه جماعة انحازوا إلى المسلمين ضد مسيلمة الكذاب[6] .

لقد حققت هذه السرية إذن ثماراً معنوية كبيرة إلى جانب ما حققته من مكاسب مادية . .

---

(٤) المواهب اللدنية ج ٢ ص ١٧٧

(٥) أول غافر

(٦) المواهب اللدنية ج ٢ ص ١٤٤

ويكفى أنها ضمت إلى الاسلام رجلاً كثمامة الحنفى أغنى غناء كبيراً فى حرب المرتدين .

قال محمد بن إسحاق ـ فيما يرويه ابن الأثير : لما ارتد أهل اليمامة عن الاسلام لم يرتد ثمامة ، وثبت على إسلامه هو ومن اتبعه من قومه ، وكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة أو تصديقه ويقول : إياكم وأمرا مظلما لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله ـ عز وجل ـ على من أخذ به منكم ، فلما عصوه وأجمعوا على اتباع مسيلمة عزم على مفارقتهم . ومرَّ العلاء بن الحضرمى ومن معه على جانب اليمامة يريدون البحرين ، وبها الحُطَم بن ضبيعة ومن معه من المرتدين من ربيعة .

فلما بلغ ثمامةَ ذلك قال لأصحابه من المسلمين : إنى والله ما أرى أن أقيم مع هؤلاء ـ المرتدين ـ وقد أحدثوا ما أحدثوا وإن الله ضاربهم ببليَّة لا يقومون بعدها ولا يقعدون ، وما أرى أن نتخلف عن هؤلاء ـ يعنى بذلك العلاء بن الحضرمى وأصحابه ـ وقد عرفنا الذى يريدون ، وقد مروا بنا ولا أرى إلا الخروج معهم ، فمن أراد منكم فليخرج .

فخرج ثمامة ومعه أصحابه مسانداً للعلاء ومن معه من المسلمين ، ففتّ ذلك فى أعضاد عدوهم حين بلغهم مدد بنى حنيفة .

وشهد ثمامة مع العلاء بن الحضرمى قتل الحطم بن ربيعة فانهزم المشركون وَقُتِلوا . وقسم العلاء الغنائم ، ونفل رجالاً ، وأعطى رجلاً خميصة كانت للحطم يباهى بها ، فاشتراها منه ثمامة . والخميصة ، ثوب من خز أو صوف وتكون سوداء .

فلما رجع ثمامة بعد هذا الفتح رأى بنو قيس بن ثعلبة ـ وهم قوم الحطم ـ ابن ربيعة ـ خيصته على ثمامة ، فقالوا له : أنت قتلت الحطم .

قال : لم أقتله ، ولكنى اشتريتها من الذى غنمها .

ولكنهم لم يصدقوه وقتلوه[7]

هكذا انتهت حياة رجل عظيم بالشهادة ، بعد أن أبلى فى سبيل الله بلاء حسنا ، وجاهد جهادا عظيما . .

غزوة بنى لحيان

خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غرة ربيع الأول سنة ست من الهجرة إلى بنى لحيان ـ بكسر اللام وفتحها ـ نسبة إلى لحيان بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر . .

وكان سبب خروجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الثأر لعاصم بن ثابت وأصحابه . . الذين قتلوا بالرجيع

وأظهر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة ، وعسكر فى مائتين من أصحابه .

واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

واتجه النبى إلى « غُراب » ـ جبل بناحية المدينة ـ على الطريق إلى الشام . ثم على « محيص » ثم على « البتراء » ثم عدل ذات اليسار على « يين » ثم على « صُخَيرات الثمام » ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة ،

---

(٧) أسد الغابة ج ١ ص ٢٩٤

فأسرع فى سيره حتى انتهى إلى « بطن غران » وهو واد قريب من « عسفان » وهو الموضع الذى استشهد فيه ـ عاصم بن ثابت ومن كان معه من أصحاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فترحم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هؤلاء الشهداء ودعالهم . .

وسمع بنو لحيان بمجىء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الرغم من مباغتته لهم ، فهربوا إلى رءوس الجبال رعبا وخوفا من المسلمين ، فلم يتمكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أحد منهم .

وأقام فى مكانه يوما أو يومين ، وبث سراياه فى كل ناحية . ثم خرج إلى عسفان ، فبعث أبا بكر فى عشرة فوارس لتسمع بهم قريش فيصيبهم الذعر والفزع . فأتوا « كراع الغميم » وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال . . ولم يجدوا شيئا . .

وعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة دون أن يلقى كيدا ، وأخذ يردد فى عودته قوله ـ صلى الله عليه وسلم . : « راجعون تائبون عابدون لربنا حامدون »

وأضاف بعض الرواة قوله : « أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال »

كانت مدة هذه الغزوة أربع عشرة ليلة . .

لقد كان الهدف من هذه الغزوة عقاب بنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع قبل عامين ، وهم ستة من كبار الصحابة . .

اغتالوا أربعة منهم ، وباعوا الاثنين الباقيين لقريش ، فقتلهما القرشيون بيشاعة . . وقد أشرنا إلى هذه القصة فى غزوة بنى قريظة . . . . . إلا أن البشاعة التى ارتكبتها قريش فى قتل زيد وحبيب تقتضينا أن نفصل للقارىء الكيفية التى تم بها قتلهما ليدرك بشاعة أهل الكفر .

كيف قتل زيد وخبيب ؟

ويصور لنا بعض الرواة مقتل زيد بن الدثنة وصلب خبيب بن عدى فى صورته الدامية التى تم بها ، والتى تثير حفيظة أى غيور على دينه وعقيدته ، فضلا عن المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كان لايغضب لنفسه ، ولكنه يغضب لله ، فإذا غضب كان لايقوم لغضبه شىء .

ونحن نعيد هنا تذكير القارىء بتلك القصة التى سبق أن أشرنا إليها فنقول :

قدم بعض الأشخاص إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفة وفد عن قبيلتى « عضل والقارة » وعبروا عن رغبتهم فى اعتناق الإسلام ومعرفة أحكامه ، لكى يشرحوا الدين الجديد وأحكامه لأفراد القبيلتين ، فعين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستة من أصحابه للقيام بهذه المهمة . . وهم : مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخالد بن البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق .

وانطلق هؤلاء الستة مع الوفد وهم فخورون بهذا العمل الذى انتخبوا له ، وهو نشر الدين الحنيف . .

وعندما وصلوا إلى مكان يسمى الرجيع ، وهو ليس بعيدا عن عسفان وقعوا فى كمين مؤلف من مائة مقاتل من أفراد هاتين القبيلتين اللتين ينتمى إليهما هذا الوفد .

فاستلوا سيوفهم دفاعا عن أنفسهم فقتل ثلاثة وأسر ثلاثة .
واقتيد الأسرى إلى مكة ، واستطاع واحد من الأسرى الثلاثة أن يتخلص من قيده ويهاجم آسريه ، لكنه قتل أيضا .

أما الأسيران اللذان وصلا إلى مكة فهما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة . وبيع الأسيران بمكة ليُقتلا . .
ولم يتخذ أى إجراء ضد الأسيرين لبضعة أيام ، لأن الشهر الذى أسرا فيه كان من الأشهر الحرم . .

« وعند انقضاء الشهر أُخِذا إلى مكان يسمى « التنعيم » ، وهو إلى الشمال الغربى من مكة ـ حيث كان كثير من السكان يتجمعون بما فيهم العبيد والنساء والأطفال . .

. . واقتيد الأسيران إلى عمودين من الخشب ثبتا فى الأرض . . فطلبا أن يُسمح لهما بصلاة أخيرة ، فاستجيب لطلبهما ـ وعندما انتهت الصلاة أعيد ربطهما بالعمودين .
« وخُيِّر كل منهما بين العودة إلى عبادة الأصنام أو الموت . فاختار كلاهما الموت . .

« ثم جاء أبو سفيان إلى زيد بن الدثنة فقال له : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟

قال زيد : والله ما أحب أنّ محمدا تصيبه الآن شوكة تؤذيه ، وأنا جالس فى أهلى .

« فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً »

وقد قتل زيد بن الدثنة أولا ، وكان موته سريعا سهلا ، حيث تقدم منه عبد وغرز حربةً فى صدره .

« ثم جاء دور خبيب بن عدى . .

« وكان موته بطريقة وحشية . . وهذا هو السبب الّذى حدا بأهل مكة للتجمع لمشاهدة هذا العرض وانتظاره بشوق .

« انطلق أربعون ولداً بإشارة من عكرمة بن أبى جهل إلى العمود المربوط به خبيب وبدءوا بوخزه بحرابهم ، وكانوا فى بعض الأحيان يقفون بعيدا ثم يندفعون باتجاهه وهم يرفعون حرابهم كأنهم يريدون قتله ، ولكنهم يتوقفون قُبَيْل الوصول إليه ، ويبدءون بوخزه مرة ثانية بحيث يسببون له الجراح دون قتله . .

« كان بعض الأولاد فى منتهى العنف إذ سببوا له جراحاً عميقة . .

«وسرعان ما أصبح جسده مغطى بالدم الذى كان ينزف من مئات الجروح التى أصابته . .

وكان ينتفض لدى كل ضربة حربة ، لكنه لم يتأوه أو يصرخ .

« وكان المتفرجون يهللون فرحا لمشهد تعذيب خبيب . .

وبعد أن استمر هذا المشهد لفترة ، تقدم عكرمة وبيده حربة باتجاه خبيب ، وفرق الأولاد ـ ربما لأنهم قد تعبوا ، أو ربما لأن المتفرجين سئموا اللعبة . ثم رفع عكرمة حربته وغرزها فى قلب خبيب . . وهكذا وضع حدا لآلامه . .

« وتركت الجثتان جثتا زيد وخبيب فوق العمودين حتى تتآكلا .

« لقد نظم هذا العرض التعذيبى عكرمة بن أبى جهل وهو الذى جهز الغلمان بالحراب ، ولقنهم ما يفعلون[٨]

لقد أرقت هذه الصورة البشعة من التعذيب مشاعر المسلمين حينما تسامعوا بها . . وصمموا على الثأر لخبيب ورفاقه من هؤلاء الذين غدروا بهم وقتلوا من قتلوا منهم وباعوا من باعوا . .

فكانت هذه الغزوة التى قادها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن بنى لحيان ولوا الأدبار ـ وجبنوا أن يقفوا فى وجه طلبة الثأر . .

وأين هذه الأفعال الخسيسة من أفعال المحاربين الشرفاء الذين يعاملون أسراهم معاملة كريمة ؟ وقد مر بنا كيف أحسن المسلمون إلى أسراهم فى بدر ، وآثروهم على أنفسهم بالطعام ، وأطلقوا سراح بعضهم بدون فداء . .

وفى أحد حين رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما فعله المتوحشون بعمه حمزة وغيره من الشهداء من تمثيل فظيع ، انتابه الأسى والغيظ كما

---

(٨) خالد بن الوليد . جنرال ا . أكرم ص ٧٠

ينتاب البشر فى مثل هذه المواقف ، فيقسم : لئن ظفر بهم ليمثلن بهم كما مثلوا .. ولكن القرآن الكريم ينزل معزيا وموجها فيقول :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾ (٩)

هذه هى سماحة الإسلام ، وتلك آدابه العليا وتوجيهاته السديدة وإرشاداته الحكيمة ..

على أن المسلمين وإن فاتهم فى هذه الغزوة لقاء أعدائهم فلم يفتهم تحقيق غرض أكبر هو إيقاع الرعب فى نفوس الأعداء ونفوس قريش أيضا .

ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين وجد بنى لحيان قد تفرقوا فى شعاب الجبال ورءوسها هربا ورعبا ـ ترك القسم الأكبر من قواته فى « غران » وهى منازل بنى لحيان ، وسار على رأس مائتى راكب باتجاه مكة حتى وصل إلى « عسفان » وهو موضع بين الجحفة ومكة على مرحلتين منها . بهدف التأثير على معنويات قريش ..

وقد تحقق هذا الهدف فلم تخرج قريش للقائه ..

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد تأكدت ثقتهم فى أنفسهم . وأوقعوا الرعب فى قلوب أعدائهم .

---

(٩) النحل ١٢٦ ، ١٢٧

مصرع ابن أبي الحقيق

كان أبو رافع عبد الله ـ ويقال سلّام ـ بن أبي الحقيق اليهودى من أكبر المحرضين للأحزاب ومن الذين أثاروهم ، فتجمعوا لغزو المدينة ، وقد انتهت هذه الغزوة ـ على ما عرفنا ـ بهزيمة الأحزاب وعودتهم مدحورين خائبين .

كان ابن أبي الحقيق مع حُيَىّ بن أخطب اليهودى حين أشعلا هذه الحرب ونفخا فيها حتى أحاط الأحزاب بالمدينة ، فلما فر الاحزاب انحاز حيى بن أخطب إلى بنى قريظة فى حصونهم فأصابه ماأصابهم .

وفر ابن أبي الحقيق إلى خيبر وتحصَّنَ بها . . وكان لابد من القضاء على رأس الحية حتى لا تنفث سمومها مرة أخرى . .

كان ابن أبي الحقيق يحاول تجميع القبائل لحرب رسول الله ، وكان يقول : إذا كان محمد قد أفلت هذه المرة فقد يُنال منه فى مرة قادمة . .

فلماذا لايكرر ابن أبي الحقيق محاولته مرة أخرى فى تجميع الناس على محمد ؟ وقد أضاف إلى حقده حقداً جديداً . وأضاف إلى غيظه غيظا آخر . . بعد أن فُجع فى حيى بن أخطب وبنى قريظة جميعا . .

قال ابن هشام فيما يرويه عن عبد الله بن كعب بن مالك : وكان مما أكرم الله به رسوله ـ ﷺ ـ أن هذين الحيين من الانصار ـ الأوس والخزرج ـ كانا يتصاولان مع رسول الله ـ ﷺ ـ تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئا لرسول الله فيه غَنَاء ، إلا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله ـ ﷺ ـ وفى الاسلام . فلاينتهون حتى يفعلوا مثلها ، وإذا

فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك .

فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف اليهودى الذى كان من أشد الناس عداء لرسول الله - ﷺ - قالت الخزرج : والله لا تذهبون بها فضلا علينا ابداً . . [10]

وتذاكروا فيما بينهم ليقوموا بعمل يشبه هذا العمل . . ففطنوا إلى أن ابن أبى الحقيق شأنه فى العداوة لرسول الله - ﷺ - وللاسلام كشأن ابن الأشرف أو يزيد . ولئن كان ابن الأشرف حرض قريشا بعد بدر ، وبكى قتلاهم ، وآذى المسلمين بشعره وشبب بنساء المسلمين كذبا وبهتانا - فإن ابن أبى الحقيق قام بما هو أفظع من ذلك ، فقد شارك فى تأليب الأحزاب وتجميع الأعداء ، وضحى بثمار خيبر فى سبيل النيل من الاسلام . . ومازالت عداوته كامنة ، وحقده دفينا ، وغيظه ثائرا . .

فلئن كان الأوس قد ظفروا بشرف التخلص من كعب بن الأشرف . .
فعلى الخزرج أن يظفروا بشرف التخلص من ابن أبى الحقيق . .
وهو عمل لا يقل شأنا عن عمل الأوس .

إن التخلص من الغادرين لا يكون إلا بمثل مايعملون وليس الغادر شريفا يُحَارَب محاربة الشريف . ولكنه دأب على الدس والمكر والتآمر والجزاء من جنس العمل ، والبادى أظلم . . وانطلق من الخزرج خمسة نفرٍ - هم : عبد الله بن عتيك ، ومسعود بن سنان ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة

(١٠) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٥

الحارث بن ربعى ، وخزاعى بن أسود وهو حليف لهم .

وأمّر النبى ـ ﷺ ـ عليهم عبد الله بن عتيك . . . . وأوصاهم ألا يقتلوا وليدا ولا امرأة .

إن الهدف هو رأس الفتنة لاغير . .

وسارت هذه الحملة الصغيرة فى طريقها إلى خيبر . وكان أبو رافع فى حصن منها . . فكمنوا حتى هدأ الناس ثم جاءوا إلى منزله ، فصعدوا درجة له . . وكان فى عِلية يصعد إليها فوق جذع منقور كأنه دَرَج .

وتقدم عبد الله بن عتيك ـ وكان يرطن باليهودية ـ فاستفتح ـ أى طلب أن يفتح له .

فقالت امرأة اليهودى : من أنت؟

فقال : جئت أبا رافع بهدية . .

وفى رواية : قال : نحن ناس من العرب جئنا نلتمس الميرة ـ وكان أبو رافع كشأن اليهود عامة تاجرا ـ

ففتحت المرأة الباب . .

قال عبد الله : فدخلنا عليه الحجرة . فلما رأت المرأة السلاح أرادت أن تصيح فأشار إليها عبد الله بالسيف فسكتت .

ثم علوه بأسيافهم فقتلوه وهو على فراشه .

وكان عبد الله بن عتيك ضعيف البصر ـ فحين انتهوا من مهمتهم خرجوا فوقع عبد الله فانكسرت رجله .

فحمله أصحابه وأسرعوا فى الخروج من الحصن .

وفى طريقة دخول هؤلاء النفر الحصن قصة طريفة فيها حذق ومهارة يحسن أن نسوقها للقارىء كما ذكرها بعض الرواة . .

كان أبو رافع فى حصن له لا يقدر عليه لارتفاعه . فلما دنوا منه وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرحهم . قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم فإنى منطلق إلى حصن أبى رافع لعلى أن أدخل .

فأقبل عبد الله حتى دنا من الباب ثم تقنع ـ تغطى ـ ليخفى شخصه حتى لا يعرفه أحد . وكان الناس قد دخلوا . . ولكن بعض القوم فقدوا حمارا لهم فخرجوا بقبس يطلبونه . .

ونظر حارس الحصن إلى عبد الله وهو جالس وقد غطى رأسه . فقال له : ياهذا إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإنى أريد أن أغلق الباب . .
لقد ظنه واحدا من أهل الحصن ، ولم يتبينه لأنه كان مقنعا . .
قال عبد الله : فدخلت فكمنت فى مربط حمار عند باب الحصن .
وأغلق البواب الحصن وعلّق المفاتيح على وتد . .
وانتظر عبد الله حتى هدأ الناس تماما . . فأخذ المفاتيح ففتح الباب لأصحابه فدخلوا . . وكمنوا معه . .

وكان أبو رافع يسمر عنده صحبُه . فتعشّوا عنده وتحدثوا معه حتى ذهبت ساعة من الليل . .

وكان فى غرفة عالية يُصْعَد إليها بسلم من الخشب . فلما ذهب عنه أهلُ سَمَره صعد إليه عبد الله ، وكان كلما دخل غرفة أغلق عليه من داخل . . وقال فى تعليل ذلك : إن أحس القوم بى لم يخلصوا إلىّ حتى أقتله . .

وفى رواية أخرى : إنه حين دخل الحصن أخذ يغلق على أهل الدور دورهم من الخارج حتى إذا سمعوا صياحا لايستطيعون أن يستنقذوه . ودخل عبد الله على أبى رافع غرفته فلم يتبين موقعه لشدة الظلام وضعف بصره .

فنادى عبد الله بصوته قائلا : أبا رافع .

فقال : من هذا ؟

فانهال عليه عبد الله بالسيف . حتى ظن أنه قتل .

ورجع عبد الله فأخذ يفتح الأبواب التى كان قد أغلقها باباً باباً .

ثم أخذ يهبط حتى انتهى إلى درجة فوضع رجله عليها وهو يظن أنه قد انتهى إلى الأرض ، فوقع فأصيبت ساقه ، فعصبها بعمامته . .

وخرج هو وأصحابه من الحصن . ولكنهم حتى هذه اللحظة لم يكونوا قد تيقنوا من موته .

فقالوا : كيف لنا أن نعلم أن عدو الله قد مات ؟

فقال رجل منهم : أنا أذهب فأنظر .

فذهب حتى دخل فى الناس وسمعهم يقولون قد مات .

قال خزاعى بن أسود ـ وهو الذى ذهب يستطلع الخبر ـ : فما سمعت من

كلمة كانت ألذ فى نفسى منها .

وعاد إلى أصحابه يخبرهم الخبر .

وعاد القوم إلى المدينة فى حذر .

قال عبد الله بن أنيس : كنا نكمن النهار ونسير الليل ، وإذا كمنا أقعدنا منا واحداً يحرسنا ، فإذا رأى مايخافه أشار إلينا ، فلما قربنا من المدينة كانت نوبتى ، فأشرت إليهم محذراً فخرجوا سراعا ثم لحقتهم .

فدخلنا المدينة فقالوا : ماذا رأيت ؟

قلت : مارأيت شيئا ، ولكن خشيت أن تكونوا عَيِيتم أى تعبتم ـ فأردت أن يحملكم الفزع على المسير .

وكان النبى ـ ﷺ ـ على المنبر حين وصل القوم . فلما رآهم قال : أفلحت الوجوه .

وقد سجّل حسان بن ثابت هذا الحادث فى شعره فقال فيما يرويه ابن هشام فى سيرته :

لله در عصابة لاقيتهم	يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم	مرحا كأسد فى عرين معرف
حتى أتوكم فى محل بلادكم	فسقوكم حتفا ببيض ذُفَّف
مستبصرين لنصر دين نبيهم	مستصغرين لكل أمر مجحف[11]

(11) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٩٦

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد أزالوا من طريق الدعوة الاسلامية عدواً لدوداً ، وتسامع الناس بعاقبة من يؤلب الناس ضد المسلمين ، فازدادوا هيبة للمسلمين .

وسيطر المسلمون سيطرة كاملة على المدينة ، وخرست أصوات المنافقين ومن بقى بها من يهود .

غزوة ذى قُرَد

ويطلق عليها غزوة الغابة أيضا . .

وسميت بذلك لأن بها شجراً يحتطب الناس منه وينتفعون به .

وذو قُرَد ـ بفتح القاف وضمها ، وبفتح الراء بعدها دال مهملة ـ ماء على نحو بريد من المدينة مما يلى غطفان . أو على مسافة يوم منها . وقيل على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر .

كانت هذه الغزوة فى ربيع الأول سنة ست ـ أى فى عام ٦٢٧ م تقريبا .

سبب الغزوة

كان عيينة بن حصن الفزارى قد أغار على المدينة فأصاب عشرين لقحة للمسلمين كانت ترعى بالغابة (١٢) .

وكان فى أربعين فارسا فاستاقوها ، وقتلوا ابن أبى ذر ، وأسروا أمه زوجة أبى ذر واسمها ليلى .

---

(١٢) اللقحة بكسر اللام وقد تفتح والجمع لقاح بكسر اللام لاغير : هى ذوات اللبن من النياق حديثة العهد بالولادة .

وقبل أن يحدث هذا كان أبو ذر مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستأذنه فى الذهاب إلى اللقاح .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لكأنى بك قد قتل ابنك وأسرت امرأتك وجئت تتوكأ على عصاك .

قال أبو ذر : عجبا ، يقول لى ذلك وأنا ألح عليه فى الذهاب ، فكان والله ما قال . فلما رجعت وكان الليل ، أحدق بنا عيينة مع أصحابه ، فأشرف لهم ابنى ، فقتلوه ، وكانت معه امرأته وثلاثة نفر فنجوا ، وتنحيت عنهم . .

ولكنهم أخذوا زوجتى مع اللقاح .

نجاة الزوجة

وأمعن عيينة فى السير ، وهو يسوق اللقاح والمرأة ، حتى ظن أنه فى مأمن . . وقد بلغ دياره .

لقد أوثقوا المرأة ، وكانوا يريحون إبلهم وأغنامهم بين يدى بيوتهم . . وانفلتت المرأة ذات ليلة من الوثاق ، فأتت الإبل تريد أن تركب واحدا منها تنجو به .

فكانت إذا دنت من بعير رغا ، فتتركه ، حتى انتهت إلى العضباء ـ وهى ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت ضمن اللقاح التى استلبوها ـ فلم ترغ ، فركبتها ثم زجرتها ، فانطلقت بها . .

وأحس القوم بها ، فطلبوها ، فأعجزتهم فيئسوا منها وعادوا . .

وكانت قد نذرت لئن أنجاها الله لتنحرن الناقة تقربا إلى الله .

وحين وصلت إلى المدينة ، وأخبرت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنذرها تبسم وقال لها : بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك أن تنحريها ، إنه لا نذر لأحد فيما لا يملك ، إنما هى ناقة من إبلى ارجعى إلى أهلك على بركة الله .

إنه أدب عالٍ علّمنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياه . .

وبه أخذ من قال :

وإذا المطىُّ بنا بلغـن محمـداً   فظهورهن على الرجال حرام

قربننا من خير من وطىء الحصا   فلهـا علينا حرمة وذمـامُ .

الرسول فى أثر القوم

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ينادى : ياخيل الله اركبى . .

وكان هذا النداء عقب ما صرخ الصارخ : الفزع الفزع .

وذلك عند هجوم عيينة على الإبل ، ولم يكن على أثر عودة المرأة بالعضباء . .

لقد جرت المحاورة بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزوجة أبى ذر عقب عودة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغزوة .

لقد كانت المرأة آية فى الوقت الذى كان فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه فى أثر القوم .

قال سلمة بن الأكوع : خرجت قبل أن يؤذن بلال بالأولى ، وكانت لقاح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترعى بذى قرد ، فلقينى غلام لعبدالرحمن بن عوف فقال : أُخِذت لقاح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قلت : من أخذها ؟

قال : غطفان وفزارة

فَصَرخْتُ ثلاث صرخات : فأسمعت ما بين لابَتَى المدينة .

فنودى فى الناس : الفزع الفزع

فنزلت الخيول ، فكان أول من انتهى إليه المقداد بن الأسود ، ثم عباد ابن بشر ، وسعد بن زيد ، وأسيد بن حضير ، وعكاشة بن محصن ، ومحرز ابن نضلة ، وأبو قتادة ، وأبو عياش .

وركب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خمسمائة أو سبعمائة .

واستخلف على المدينة عبدالله بن أم مكتوم .

وترك سعد بن عبادة فى ثلاثمائة يحرسون المدينة .

وكان قد عقد اللواء للمقداد بن الأسود ، الذى كان أول من أجاب الصريخ ، إذ أقبل وعليه درع شاهرا سيفه ، فعقد له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لواء فى رمحه . وقال له : امض حتى تلحقك الخيول وأنا على أثرك .

وانطلق الفرسان مسرعين فأدركوا أخريات العدو .

واستطاع أبو قتادة الحارث بن ربعى أن يقتل مسعدة بن حَكَمة الفزارى وكان من زعماء فزاره وسجّاه ببرده .

وحين لحق ركب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الطليعة ، وجدوا قتيلا مغطًى ببرد ، فاسترجعوا ، وظنوا أن الذى قُتِل هو أبو قتادة .
فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا تفزعوا ليس القتيلُ أبا قتادة ، ولكنه قتيلُ أبى قتادة ، وضع عليه برده لتعرفوه فتتركوا له سلبه .. أى الأمتعة الخاصة بالقتيل .

وأعطى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا قتادة فرس القتيل وسلاحه .
واستطاع عكاشة بن محصن أن يقتل أوبار بن عمرو ـ وهو من صناديد العدو ويقتل معه ابنه ـ كانا معا على بعير فانتظمهما بالرمح فقتلهما معا .
واستنقذ الفرسان بعض اللقاح ..

واستُشْهِد مسلم واحد هو محرز بن نضلة ـ رضى الله عنه ـ كان أول فارس لحق بالقوم ، فوقف قريبا منهم وقال لهم : قفوا يامعشر بنى اللكيعة فحمل عليه رجل منهم فقتله .

قيل : إن الذى قتله هو عبدالرحمن بن عيينة بن حصن الفزارى .
وقيل : إن الذى قتله هو أوبارِ الذى قتله عكاشة .
وقيل : إن الذى قتله مسعدة الذى قتله أبو قتادة ..
وأيا كان قاتله فقد أُخِذَ بثأره ، ولحق هو بربه راضيا مرضيا ..

خذها وأنا ابن الأكوع

وكان سلمة بن الأكوع الذى استصرخ القوم فى المدينة قد خرج يشتد فى أثر العدو قبل أن تلحقه الخيل . وكان عدَّاءً ، فجعل يرميهم بالنبل وهو على رجليه ليس معه فرس . .

واقترب منهم وهم على الماء يستقون ، وأخذ يرتجز وهو يرمى بنبله ، وكان راميا مسددا ، ويقول :

خذها وأنا ابن الأكوع　　　　اليوم يوم الرضَّع

وقوله : اليوم يوم الرضَّع

قيل معناه : هذا يوم شديد عليكم تفارق فيه المرضعة من أرضعته فلا يجد من ترضعه .

وقيل معناه : اليوم يعرف من ارتضع كريمة فأنجبته أو لئيمة فهجنته .

ولحق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس والخيول عشاء ، فنزل بذى قرد وأقام يوما وليلة .

قال سلمة : فقلت : يارسول الله ، إن القوم (غطفان وفزارة) عطاش ، وقد حصل لهم بسبب العطش وَهَن لا يقدرون معه على الحرب ، فلو بعثتنى فى مائة لاستنقذت ما فى أيديهم من السَّرْح ، وأخذت بأعناق القوم .

ـ وكان القوم عطاشا لأن سلمة لما رماهم بسهامه خشوا أن يكون

المسلمون قد أدركوهم فعجلوا فى السير دون أن يأخذوا حاجتهم من الماء .

فضحك النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى بدت نواجذه ، وقال :
أتراك فاعلا ؟

قلت : نعم ، والذى أكرمك .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : يابن الأكوع ، ملكت فأسجح[١٣]
أى كن رفيقا ، ولا تأخذ بالشدة ، وكن عفوا عند المقدرة . .

- صدق الذى سماه الرءوف الرحيم -

وقال النبى - ﷺ - مخاطبا ابن الأكوع : قد حصلت لك النكاية فى العدو ولله الحمد . . إنهم الآن قد وصلوا إلى غطفان وهم فى ضيافتهم . . . لا فائدة من البحث فى آثارهم بعد أن لحقوا بأصحابهم وأقوامهم .

لقد كانت معجزة من الرسول - ﷺ - أن أخبر بحالهم وهم على البعد . .
ولم يترك النبى - ﷺ - أصحابه الذين أبلو بلاء حسنا دون أن يثنى عليهم ويزكيهم ، فقال : خير جنودنا اليوم أبو قتادة ، وسلمة . وأعطى النبى - ﷺ - ، سلمة سهم الراجل والفارس جميعا .

ومازالت الأمداد تلحق بالنبى - ﷺ - وهو فى موضعه هذا . .
ذلك أن الخبر كان قد وصل إلى أطراف المدينة البعيدة فخرجوا فى أثر النبى - ﷺ - رجالا وركبانا . .

---

(١٣) السجاحة - بكسر السين السهولة وفى القاموس : النجاة

وبعث سعد بن عبادة - رضي الله عنه - بأحمال من تمر مددا للمسلمين فوافت النبى - ﷺ - وصحبه بذى قرد ..

لقد أظهرت هذه الغزوة قدرة المسلمين على الحركة ، وسرعتهم فى الاستجابة ، وأرهبت العدو الذى حدثته نفسه بالإغارة ظنا منه أن المسلمين لن يلحقوه ، ولكنه كان مخدوعا مغرورا بقوته ، وفقد عيينة ابنه فى هذه المعركة ، كما فقد الفزاريون بعض زعمائهم الذين يعتزون بهم ..

لقد أوقعت هذه الغزوة الرعب فى قلوب الأعداء ففروا هاربين خوفا من جند المسلمين ، واستطاعت قوة صغيرة من رجال المسلمين أن تسترد الإبل من هؤلاء الأعداء قبل أن تصل قوة المسلمين الأصلية ، وفر الأعداء مسرعين حين رأوا غبارا متصاعدا فظنوه خيل المسلمين ..

سرايا أخرى

لقد أرسل النبى - ﷺ - سرايا أخرى كان الهدف منها توطيد الأمن وتشديد الحصار الاقتصادى على قريش وحلفائها .

ومن ذلك :

- سرية عكاشة بن محصن الأسدى إلى الغمر - وهو ماء لبنى أسد ..
وقد هرب المقصودون حين علموا بذلك وتركوا ديارهم خالية ، فاستاق المسلمون مائتى بعير وعادوا .

- سرية محمد بن مسلمة إلى « ذى القصة » على بعد أربعة وعشرين ميلا ، طريق الربذة - على بريد من المدينة تجاه نجد -

● وتبعتها سرية أخرى على نفس المكان للإغارة على بنى محارب الذين كانوا يريذون الإغارة على المدينة

سرية زيد بن حارثة إلى بنى سليم بالجموم ـ تقع ناحية بطن نخل ـ أربعة برد من المدينة .

● وسريته أيضا إلى العيص ـ موضع فى بلاد بنى سليم ـ على أربع ليال من المدينة .

● وسريته أيضا إلى الطرف ـ موضع على ستة وثلاثين ميلا من المدينة .

● سرية عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل

● سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بفدك ـ مسيرة يومين من المدينة

● سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادى القرى

● سرية عبد الله بن رواحة إلى أسَير بن زارم .

وأسير بن زارم هو أمير اليهود بعد أبى رافع ، وقد بلغ النبى ـ ﷺ ـ أنه سار إلى غطفان يجمعهم لحرب المسلمين .

فانتدب النبى ـ ﷺ ـ ثلاثين رجلا على رأسهم عبدالله بن رواحة . فقدموا على أسير ، فقالوا له : إن رسول الله ـ ﷺ ـ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك .

ـ فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود..

حتى إذا كانوا « بقرقرة ثبار » موضع بين المدينة وخيبر . أراد الغدر بالمسلمين . ولكن المسلمين حملوا عليهم فقتلوهم جزاء غدرهم ، وعادوا إلى المدينة فأخبروا رسول الله - ﷺ - فقال : نجاكم الله من القوم الظالمين .

● سرية كرز بن جابر الفهرى إلى العرنيين .

وهم قوم من عرينه - قبيلة من العرب قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأسلموا ، وأرسلهم رسول الله للإشراف على اللقاح وكانت ترعى فى منطقة قباء - على ستة أميال من المدينة .

فكانوا فيها حتى صحوا وسمنوا ، فغدوا على اللقاح فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى النبى - ﷺ - ومعه نفر من المسلمين فقتلو يسارا ، وقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات .

وبلغ النبى - ﷺ - خبرهم ، فأرسل فى أثرهم كرز بن جابر الفهرى فأدركهم ، وأحاط بهم وأسرهم ، وقدم بهم المدينة فقتلوا .

لقد كانت هذه السرايا تأديبية ، بعثت الاستقرار ، وأمنت المسلمين ، وأثارت الخوف فى نفوس الكفار .

ست سنوات كاملة قضاها المسلمون فى كفاح وجهاد ، لم يغمض لهم جفن ، ولم يهدأ لهم بال ، وهم يكافحون فى سبيل الإسلام ، ويدافعون عن عقيدتهم ، ويعملون جاهدين على نشر دينهم ..

وقد اشتاقت نفوسهم إلى زيارة بيت الله الحرام الذى يولون وجوههم شطره فى صلاتهم . . . . فلماذا لا يزورون هذا البيت الذى له فى نفوسهم أسمى مكانه وأعظم منزله ؟

لقد أصبح الجو مهيئا لزيارة هذا البيت بعد أن تلقى المشركون دروسا عدة تقلمت فيها أظفارهم ، وأدركوا من خلالها أن للمسلمين قوة من عند الله تمدهم وتعينهم وتدفع عنهم . .

لقد أدرك المشركون أن حروبهم لم تغن عنهم شيئا . . وأن خططهم فى الكيد والاغتيال لم تجد . . فآثروا السكوت بعد هزيمة الأحزاب . .

وكانت هذه الحملات التأديبية التى قامت بها سرايا النبى - ﷺ - ذات أثر كبير فى توطيد هذا الأمر . . وتخويف المشركين . .

ومن هنا أخذ المسلمون يفكرون جديا فى زيارة البيت الحرام الذى يحظى بمكانة عظيمة فى نفوسهم وقلوبهم . .

إن هذه الزيارة لو تمت ستكون امتحانا حقيقيا لموقف المشركين من المسلمين . . وسوف تكشف موقف القرشيين إذا حاولوا صد المسلمين عن زيارة البيت . . إذ سوف يظهر للجميع أنهم ليسوا حماة البيت كما يزعمون ، بل هم الصادون عن طريقه ، المانعون لزيارته . .

وكان المشركون يودون أن ينصرف المسلمون عن التفكير فى زيارة مكة . . لأن هذه الزيارة سوف تؤدى إلى تجدد الصراع الذى خمدت حدته ،

وهدأ بعد موقعة الأحزاب وأخذت،تتوارى تدريجيا أسباب تأججه . . مع أنهم فى حقيقة الأمر يصدون عن سبيل الله ـ كما وصفهم اله عز وجل بذلك فى قوله تعلى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١٤)

ولكن تفكير المسلمين فى زيارة البيت كان قد أخذ صفة العزم والتصميم ، وبدأوا فعلا فى التأهب لذلك .

---

(١٤) الحج ٢٥

صُلح الحديبية

- النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعزم على أداء العمرة .
- خروج النبي مع أصحابه .
- قريش تقف في مواجهة النبي .
- فشل فرسان قريش في الالتفاف حول المسلمين .
- قريش تفكر في مفاوضة النبي .
- عروة بن مسعود يفاوض الرسول نيابة عن قريش .

صلح الحديبية
الفتح المبين

الحديبية - بضم الحاء وتخفيف الياء عند الأكثر - ويجوز تشديدها عند بعضهم . وهى بئر سمى المكان بها ، وقيل شجرة ، وقال المحب الطبرى : هى قرية ليست كبيرة ، قريبة من مكة ، سميت بالبئر أو بالشجرة . وهى على تسعة أميال من مكة . .

لقد رأى النبى - ﷺ - فى منامة أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين . .

فاستبشر بذلك ، وعزم على أداء العمرة . ودعا الناس إلى مشاركته ذلك . وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة .

لقد خرج - ﷺ - للعمرة فقط لا يريد قتالا ، ولبى دعوته كثير من المسلمين ، من المهاجرين والأنصار . . وكان قد استنفر الجميع للخروج معه بما فى ذلك سكان البوادى من الأعراب ، ولكن الأعراب أبطأوا عليه خوفا من قريش . .

وسار النبى - ﷺ - بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من سكان البوادى ، وساق الهدى معه . وأحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه ، وليعلم الجميع أنه إنما خرج زائرا للبيت معظما إياه . .

كان معه ألف وأربعمائة معتمر ، وخرجت معه زوجته أم سلمة - رضى

الله عنها ـ وبعض نساء المسلمين يصحبن أزواجهن . واستخلف النبى على المدينة عبدالله بن أم مكتوم .

وقيل : بل استخلف أبارُهْم كلثوم بن الحصين ..

وقد يكون استخلفهما معا أحدهما على الصلاة وهو ابن أم كلثوم والآخر على مصالح الناس .

ولم يصطحب معه سلاحا إلا سلاح المسافر وهى السيوف فى أغمادها ..

حتى إذا وصل هذا الركب « ذا الحليفة » وهو ميقات أهل المدينة قلد النبى ـ ﷺ ـ الهدى .

وأحرم النبى ـ ﷺ ـ بعد أن صلى ركعتين ، وركب من باب المسجد بذى الحليفة راحلته ، فلما انبعثت به راحلته مستقبل القبلة أحرم بالعمرة ..

وحاكى المسلمون نبيهم ـ ﷺ ـ فقلدوا إبلهم وأشعروها وتصاعدت حناجرهم ملبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ـ إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .. لبيك ـ

وقدّم النبى ـ ﷺ ـ بين يديه رجلا من خزاعة ليكون عينا له .. وهو بسر ابن سفيان بن عمرو ، وقد اختاره لقرب عهده بالإسلام ،

فقد أسلم ـ بسر ـ فى شوال سنة ست من الهجرة ، قبل الخروج للعمرة بشهر وكان شريفا ، كتب إليه النبى ـ ﷺ ـ عليه وسلم ـ كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام فاستجاب ، وأقبل على النبى ﷺ ـ فاعتمر معه ، وساق معه الهدى .

وسار النبى - ﷺ - حتى كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان ، جاءه بسر ، فقال له : إن قريشا جمعوا جموعا ، وحشدوا لك الأحابيش ، وهم بنوالهون بن خزيمة ، وبنو الحارث بن عبد مناة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، وهؤلاء كانوا قد تحالفوا مع قريش تحت جبل يقال له « حبشى » أسفل مكة ، فسموا الأحابيش لذلك .

وقيل : بل سموا بذلك لتجمعهم وتحبشهم . . .

وقال بسر فيما يرويه بعضهم : هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر[١٥] ، وقد نزلوا بوادى طوى يعاهدون الله أن لاتدخلها عليهم عنوة أبدا .

وكان بعض القرشيين من عتاة أهل الكفر مصممين على عدم دخول النبى - صلى الله عليه وسلم - مكة لأنهم يعلمون أن فى دخوله إذلالا للشرك وأهله ، وإزهاقا للباطل وحزبه . . . ونفخ شيطان الجن فى نفوس شياطين الإنس من الكفار ، وزين لهم الشر . وحثهم على جمع قريش لتمنع النبى ومن معه من دخول مكة وزيارة البيت الحرام .

أخرج الخرائطى فى الهواتف عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما توجه - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية قدم عليه بسر بن سفيان الكعبى . فقال له : يابسر ، هل عندك علم أن أهل مكة علموا بمسيرى ؟

---

(١٥) العُوذ : الإبل : التى وضعت أولادها حديثاً ، والمطافيل : ذوات الأطفال ، يعنى أنهم أتوا بكل مايقدرون عليه . ولبسوا جلود النمر كناية عن التنمر والاستعداد .

فقال بسر : إنى لأطوف بالبيت فى ليلة كذا وكذا ، وقريش فى أنديتها ، إذ صرخ صارخ من أعلى جبل أبى قبيس ، بصوت أسمع أهل مكة . وهو يقول :[16]

هبوا لصاحبكم مثل صحابته ... سيروا اليه وكونوا معشرا اكرما
بعد الطواف وبعد السعى فى مهل ... وأن يحوزهم من مكة الحرما
شاهت وجوههم من معشر نكل ... لاينصرن إذا ماحاربوا صنما

فارتجت مكة وتعاقدوا أن لاتدخل عليهم عامهم هذا .

وقد رد شعراء الاسلام على تلك الأبيات فقال أحدهم :

شاهت وجوه رجال حالفوا صنما ... وخاب سعيهم ، ماأقصر الهمما
وقد أتاكم رسول الله فى نفر ... وكلهم محرم لايسفكون دما

النبى يستشير أصحابه

عندما عاد بسر وأخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن قريشا قد جمعت له . قال : « أشيروا علىّ أيها الناس » .

قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : يارسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت لاتريد قتل أحد ، ولاحرب أحد . فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه .

ـ كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستشير أصحابه فيما لاوحى فيه ، ولايستبد برأيه ، حتى قال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ : مارأيت أحدا قط

(١٦) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج ٢ ص ١٨٢

كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [١٧]

وفوجىء المسلمون بمن يخبرهم أن خالد بن الوليد على رأس فرقة من فرسان المشركين يعسكرون بالغميم ، فغير النبى - صلى الله عليه وسلم - طريقه .

قريش تقف فى مواجهة النبى :

ولنستمع إلى ماقاله العسكريون وهم أهل الخبرة فى ذلك :

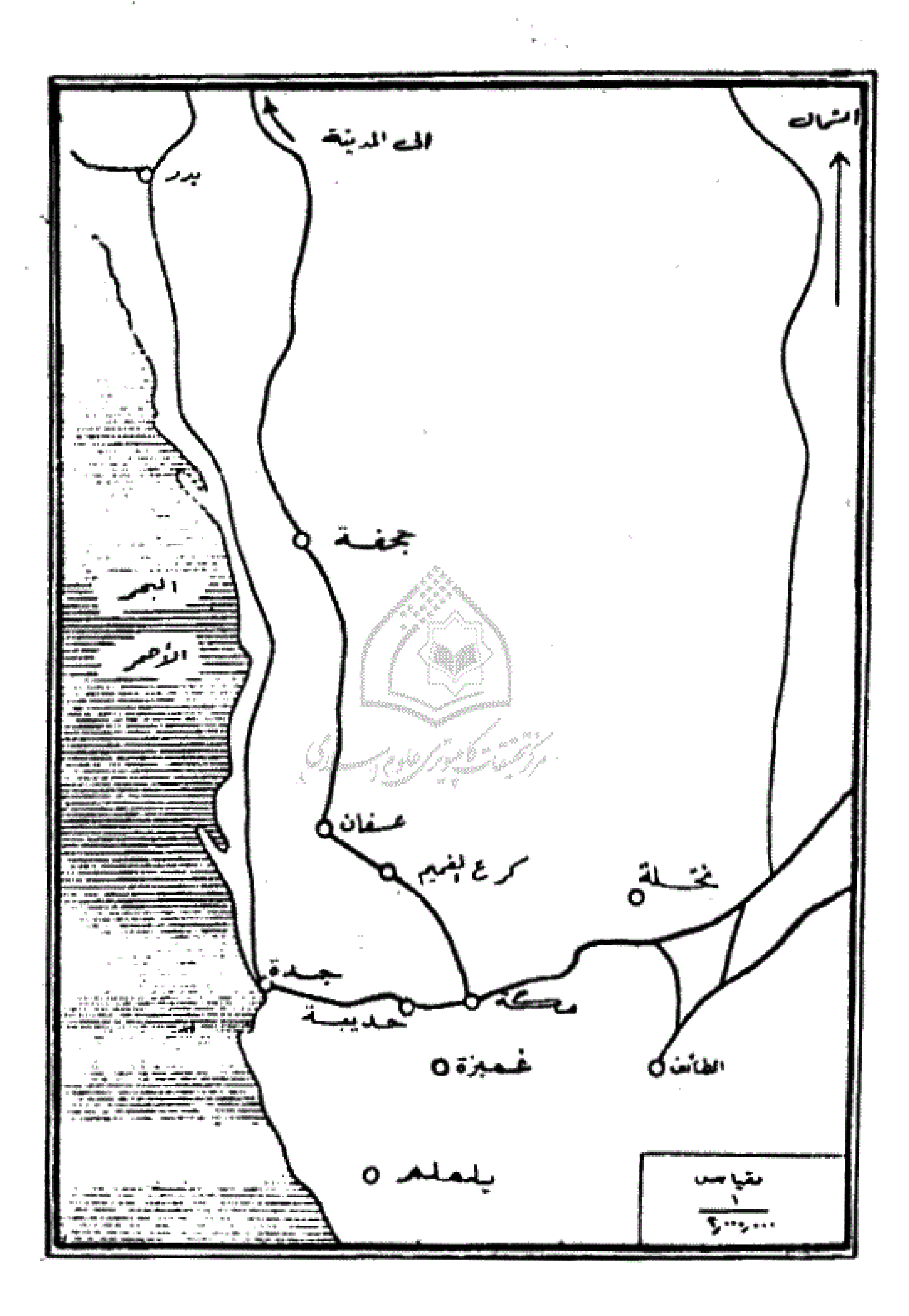
لقد خشى القريشيون أن يكون المسلمون قادمين لقتالهم وإخضاعهم فى عقر دارهم ، لأن زمام المبادرة قد أصبح بيد المسلمين ، ونتيجة لذلك ، خرج القرشيون من مكة واحتشدوا فى معسكر قريب .

ومن هناك أرسلوا خالد إلى الأمام على رأس ثلاثمائة خيال ، وسار على الطريق المؤدية الى المدينة لاعتراض جيش المسلمين ، ووصل الى « كراع الغميم » وهى تبعد خمسة عشر ميلا من عسفان .

ووضع قوته فى ممر لإغلاق الطريق أمام المسلمين فى هذه المنطقة الجبلية . وعندما وصل المسلمون الى عسفان . كانت تتقدم أمامهم مفرزة تضم عشرين خيالا تقوم بمهمة الاستطلاع ، وقد علمت هذه المفرزة بقوة خالد بن الوليد فى كراع الغميم[١٨] ، وأعلمت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى عسفان عن موقع خالد وقوته « أنظر الخريطة » .

(١٧) أخرجه أحمد فى مسنده عن عبد الرازق ، وساقه ابن حيان من طريقه .

(١٨) كراع الغميم هذه ليست كراع الموجودة بالخرائط الحديثة ، فهى فى الخرائط الحديثة تقع فى خليج صغير على البحر الأحمر ، لكن كراع الغميم القديمة تقع فى منطقة جبلية تمتد غربا حتى البحر ، جنوب شرق عسفان .



الشمال
الى المدينة
بدر
جحفة
البحر
الأحمر
عسفان
كراع الغميم
نخلة
جدة
حديبية
مكة
غميزة
الطائف
يلملم
مقياس
١
٤،٠٠٠،٠٠٠

قرر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن لايضيع وقتا فى القتال فى هذا المكان ، وكان حريصا على تجنب سفك الدماء ، لأن قصده كان أداء العمرة وليس القتال .

فأمر مفرزته المتقدمة بالبقاء قريبا من خالد وجذب انتباهه لها . وفى الوقت نفسه حرك النبى - صلى الله عليه وسلم - رجاله من اليمين سالكا دروبا ضيقة تمر فى منطقة جبلية ليست بعيدة عن الساحل تؤدى إلى ممر يعرف باسم « ثنية المرار » .

وكان المسير شاقا ، لكنه تحقق بنجاح ، وأمكن تفادى موقع خالد . . . . وشاهد خالد غبار موكب المسلمين على مسافة بعيدة ، وأدرك ماحدث فأسرع بالرجوع إلى مكة .

وتابع المسلمون مسيرتهم حتى وصلوا الى الحديبية . . وأقاموا فيها معسكرا . وفى الحديبية بدت المعركة وكأنها وشيكة الوقوع لبعض الوقت . على الرغم من أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان حريصا على تجنب سفك الدماء . . .[19]

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - « ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين - مكتمل القوة -

---

(١٩) خالد بن الوليد جنرال ا أكرم ص ٩٥

وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ فوالله لاأزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يظهره أو تنفرد هذه السالفة »

خالد ينذر قريشا

ذهل خالد ـ على الرغم من عبقريته العسكرية ـ لحسن تصرف المسلمين وبراعتهم فى خطتهم التى لم تخطر له على بال .

وعاد على عجل لينذر قريشا بقدوم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان خالد قد أعد فرسانه لقتال المسلمين ، وصفهم ثم شاهد المسلمين يصلون . .

ولكنهم صلوا صلاة الخوف التى لم تمكن خالد من الانقضاض عليهم كما كان يتمنى . .

وأيس خالد من أن يجد فرصة يدخل منها إلى قتال . . وعَمّى الله عليه حتى رأى الغبار المتصاعد من بعيد فادرك أن المسلمين غيروا اتجاههم إلى مكة وسلكوا طريقا آخر .

لقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يفوت على قريش فرصة القتال . لأنه لم يحضر لقتال . ولكنه جاء معتمرا وزائرا لبيت الله . ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مَنْ رجل يخرج بنا على غير طريقهم التى هم بها ؟

فقال رجل من أسلم ـ هو حمزة بن عمرو الأسلمى ـ أنا يارسول الله . فسلك بهم طريقا وعرا ، فخرجوا منه بعد أن شق عليهم ، وأفضوا منه

الى طريق سهلة . فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - : قولوا « نستغفر الله العظيم ونتوب إليه » فقالوا ذلك .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : والله إنها لَلْحِطَّةُ التى عرضت على بنى إسرائيل ، فلم يقولوها . . وهو - صلى الله عليه وسلم - يشير بذلك إلى قوله تعالى -

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢٠)

جاء فى تفسير القرطبى عند تفسير هذه الآية : حِطَّة : بمعنى حُط ذنوبنا ، أمر الله بنى إسرائيل أن يقولوا لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم فلم يقولوها . وقال ابن جبير : معناه الاستغفار . . قال الشاعر :

فاز بالحِطة التى جعل الله بها ذنب عبده مغفورا

لقد أوضح النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حديثه الذى ذكرناه آنفا ورواه ابن إسحاق معنى كلمة « حطة » التى تحدث المفسرون حولها كثيرا .

ومن هذا التفسير نتعلم كيف يكون اللجوء الى الله واستغفاره سببا فى النجاة وفتح مغاليق الطرق والتيسير . . وهو أيضا سبب فى سعة الرزق وكثرة الخير والبركة فى الأموال والأولاد والأعمار مصداقا لقوله - تعالى - :

---

(٢٠) البقرة ٥٨

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٢١)

عاد خالد مسرعا لينذر قريشا . .

وانطلق المسلمون فى طريقهم إلى مكة ، حتى بركت ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجأة فى الحديبية .

وحاول الناس إثارتها لتستأنف سيرها . . فأبت القيام .

فقالوا : لقد خلأت القصواء ـ والقصواء هو اسم الناقة .

ومعنى خلأت : حرنت وبركت من غير علة .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماخلأت القصواء . . ولكن حبسها حابس . .

لقد حبس الله الناقة لحكمة يعلمها . . . . . وقد أشارت إلى ذلك الآية الكريمة التى وردت فى سياق هذه الأحداث .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢٢)

---

(٢١) نوح ١٠ : ١٢

(٢٢) الفتح ٢٥

لقد فهم النبى - صلى الله عليه وسلم - عن ربه ما يقضى به بروك الناقة من حكمة . لذلك قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « والذى نفسى بيده لا يسألون خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » .

معجزة الماء

ونزل المسلمون فى الحديبية على غير ماء ، ما عدا حفرة فيها قليل من الماء يأخذه الناس قليلاً قليلاً ، فلم يلبث أن نُزح . واشتكى الناس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شدة العطش . فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمر بعض أصحابه - قيل : هو البراء بن عازب ، وقيل ناجية بن جندب ، وقيل : هو ناجية بن الأعجم ، وقيل : واحد غير هؤلاء وسيأتى ما يؤكد أنه ناجية بن جندب .

أمره بأن يضع هذا السهم فى الحفرة التى جف منها الماء ، فوضعه ، فما زال الماء يفور ويتدفق ، حتى روى الناس جميعاً وملأوا أوانيهم وأخذوا حاجتهم .. وكفاهم مدة إقامتهم فى هذا المكان ..

وذكر بعض الرواة : أن هذه المعجزة تمت بطريق آخر .... وقد ورد ذلك فى حديث رواه الشيخان عن جابر قال : عطش الناس يوم الحديبية ، وبين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ركوة يتوضأ منها ، فأقبل الناس نحوه ، فقال : ما لكم ؟

قالوا : يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما فى ركوتك . فوضع النبى - صلى الله عليه وسلم - يده فى الركوة ، فجعل الماء

يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا . .

وربما حدث هذا الأمر مرتين فى مكانين ووقتين مختلفين . .

قريش تفكر فى التفاوض

ونظرت قريش فى أمرها وتحيرت . هل تخاطر وتحارب محمداً ﷺ ، وقد جربت الحرب معه فلم تشعر بأنها انتصرت ؟ بل لقد أصبحت شبه متأكدة بأنها لن تنتصر عليه . . إنها تحس فى قرارة نفسها أن وراء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوة تسانده . . ولكنه العناد الذى استولى على القلوب . والضلال الذى غشى العقول .

وفكرت فى أن ترسل رسولاً إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليستطلع جلية الأمر من ناحية ، وليقوم بعملية إرجاف من ناحية أخرى .

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعى ـ فى نفر من قومه ، وكان بديل يميل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطمئن إليه ـ جاء بديل ناصحاً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومستطلعاً للأمر ، فقال بديل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جئت ولا سلاح معك ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لم نجىء لقتال .

فقال بديل : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا بمياه الحديبية . ومعهم العُوذُ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنا لم نجىء لقتال أحد ،

ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم ـ أى جعلت بينى وبينهم مدة نترك فى خلالها الحرب ـ ويخلوا بينى وبين الناس إن شاءوا ، فإن أظهرن الله ، وشاءوا أن يدخلوا فيها دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد استراحوا من القتال ـ وإن أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى[٢٣] » . ولينفذن الله أمره »

قال بديل : سأبلغهم ما تقول .

وانطلق بديل مع الركب الذى جاء به إلى قريش ..

فقال لهم : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ـ يعنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد قال لنا قولاً ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا .

وأسرع السفهاء منهم إلى الاجابة قائلين : لا حاجة لنا فى أن تخبرنا عنه بشيء . ولكن ذوى الأمر منهم ، والذين ينظرون إلى الأمور نظرة بعيدة قالوا : هات ما سمعته ..

قال بديل : سمعته يقول كذا وكذا . وأنهى إليهم عبارة النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

وكان بديل ـ كما قلنا ـ يميل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فساق العبارة كما سمعها ، وأداها بصورتها التى قالها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان بديل وسيطاً حكيماً حريصاً على أن يبلغ بوساطته إلى غاية حسنة وهدف كريم .

---

(٢٣) السالفة : صفحة العنق .... فى هذا التعبير كناية عن القتل .

وكان مما قاله بديل : إنكم تعجلون على محمد ، إنه لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت . .

ولكن السفهاء من قريش الذى أضلتهم الجاهلية ، واستولت عليهم العصبية ردوا على بديل ومن معه فى عنف ، واتهموهم ، وقالوا لهم : حتى وإن كان قد جاء لا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا يتحدث العرب عنا بذلك أبداً .

وهنا قام عروة بن مسعود الثقفى ـ وكان لم يسلم بعد . . . . . فقد أسلم بعد غزوة الطائف ـ فقال مخاطباً وجوه قريش : أى قوم ، ألستم بالوالد ؟

قالوا : بلى .

لقد شبههم بالوالد فى حنوه وشفقته على أولاده .

فقال : أو لستُ بالولد ؟

قالوا : بلى .

شبه نفسه بالولد فى اهتمامه بمصلحة أبيه وحرصه عليه . ومن المعروف أن هناك علاقة قريبة وثيقة تربطه بقريش ، فأمُّ عروة هى سُبَيْعة بنت عبد شمس بن عبد مناف . فهو أخواله ، والخال والد ـ كما يقولون ـ وهو ابنهم . وابن أخت القوم منهم ـ هكذا يقول العرب ـ

قال عروة : فهل تتهموننى ؟

قالوا : لا .

وأراد أن يزيد الأمر ثقة بينه وبينهم بعد هذه المقدمة المشوقة ، فقال لهم : ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عُكاظ لنصركم ، فلما امتنعوا علىّ جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ؟

قالوا : بلى .

قال : فإن هذا - يعنى النبى - صلى الله عليه وسلم - قد عرض عليكم فى الرسالة التى أداها بديل خطة رشد ، فاقبلوها . ودعونى آته . .

فقالوا : لك ما تريد .

عروة يذهب إلى النبى

وجاء عروة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له نحواً مما قاله بديل له .

فرد عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - بمثل ما رد به على بديل .

فقال عروة : أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟

وإن تكن الأخرى فإنى والله لأرى وجوهاً ، وإنى لأرى أوشاباً - أخلاطاً من الناس - خليقا أن يفروا عنك ويدعوك .

ويعنى عروة بعبارته هذه : أنه إن كانت الأخرى وهى الغلبة لقريش فإنى لا آمنهم عليك ، وإن بعض من حولك قد لا يثبتون معك لأنهم أخلاط لا تربطك بهم صلة رحم - هكذا قال عروة أو هكذا كان يظن .

ولم يكن عروة يدرى أن العلاقة بين المسلمين لا تؤصلها صلة الرحم ولا الدم ولا القرابة ، وإنما يؤصلها الايمان والدين وحب الله ورسوله . .

لم يكن يدرى أن الاسلام أنشأ علاقات جديدة بين الناس تعلو على المادة ، وترتفع فوق المنفعة الخاصة وتؤكدها المواثيق الروحية والمعنوية . .

لم يكن يدرى أن المؤمن يؤثر أخاه فى الدين على نفسه ، ولا يكمل إيمانه حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

عند ذلك قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ : أنحن نفر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وندعه ؟ وأسمع عروة كلاماً شديداً .

فقال عروة : من هذا ؟

قال المسلمون : هذا أبو بكر .

فقال عروة : أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك ـ أى لرددت عليك بشدة كما أسمعتنى . .

وكانت هذه اليد ، فيما يرويه الرواة أن عروة كان قد تحمل دية فأعانه فيها أبو بكر بعون حسن . .

ثم تكلم المغيرة بن شعبة الثقفى ـ وهو ابن عم عروة ـ أو ابن أخيه ، وكان قائماً بجوار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسيف يحرسه ـ فقال لعروة : ابتعد عن رسول الله وإلا قطعت يدك . . وكان عروة قد مد يده ليمسك لحية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

فقال عروة لابن أخيه : ما أفظك وما أغلظك .

وقد كان من عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يحادثه عند الملاطفة .. وكان هذا يحدث بين المتناظرين ..

ولكن شتان بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وعروة ..

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يغضى عن فعل عروة تألفاً له ، ولكن ذلك لم يعجب المغيرة . فكان يكف يد عروة إجلالاً للنبى - صلى الله عليه وسلم - وتعظيماً .

فلما أغلظ المغيرة على عروة فى فعله وقوله . نظر إليه عروة وقال : من هذا ؟

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - هذا ابن أخيك المغيرة ..

وكان المغيرة حين لبس مغفره ولأمته لم يعرفه عروة ..

وجعل عروة يرمق أصحاب النبى - ﷺ - فيعجب من حسن أدبهم ، وطاعتهم ورفقهم وحبهم فيما بينهم وحبهم لرسول الله - ﷺ - حتى أصبح يحدث بذلك قومه وقريشا حين عودته - إذ قال لهم : أى قوم .... والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله ما رأيت ملكا قط تعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمدا ..... إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدُّون النظر إليه تعظيما له »

لقد اقتنع عروة إذن بأن الذين يحيطون بالنبى - ﷺ - ليسوا بأوشاب أو أخلاط - وإنما هم قوم يؤثرون النبى - ﷺ - على أنفسهم ويفدونه بأرواحهم ، ولا يمكن أن يسلموه إلى شيء أبدا . .

وإن قوما هؤلاء شأنهم لا يمكن لقريش أن تنتصر عليهم مهما أعدت من قوة أو جمعت من جمع . .

وكان على عروة أن يحسن النصح لأخواله ، وأن يتم ما بدأه معهم من نصيحة على خير وجه . .

أقبل عروة على قريش فى حزم وقال : يا قومك لقد رأيت الملوك ما رأيت مثل محمد ، وما هو بملك ، ولقد رأيت الهدى معكوفا وما أراكم إلا ستصيبكم قارعة .

ثم أتبع ذلك بقوله : لقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .
ويبدو أنه وجد سفهاء قريش قد غلبوا على حلمائهم ، فلم يصيخوا إلى قوله . فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف . .

لقد دل كلام عروة على أنه ذو رأى صائب وبصيرة نافذة ، وعقل ثاقب . . ولقد حاول جهده الإصلاح ولكن الأمر إذا أسلم إلى السفهاء ضاع الصواب وضل الرشاد .

محاولة أخرى

ثم قام زعيمهالأحابيش « الحليس بن علقمة » وهو أحد بنى الحارث بن عبدمناة بن كنانة ـ بمحاولة أخرى ، فقصد النبى ـ ﷺ ـ

فلما رآه رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن هذا من قوم يعظمون التدين ، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه »

فلما رأى الحليس الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، والناس يلبون بالعمرة رجع إلى قريش دون أن يكلم رسول الله ـ ﷺ ـ إجلالا لما رأى . . وقال لهم : سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت .

أتحج لخم وجذام وكندة وحمير ويمنع ابن عبدالمطلب ؟

وفى رواية : إنه وصل إلى النبى ـ ﷺ ـ وقال أمامه ذلك . فأجاب النبى ـ ﷺ ـ قائلا : أجل يا أخا بنى كنانة .

ولما عاد الى قريش قال لهم : رأيت الهدى قد قلدت وأشعرت ، بما أرى أن يصدوا عن البيت . .

فقال له القرشيون وقد غلبهم رأى سفائهم : اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك .

وغضب الحليس غضبا شديدا ، وقال ، أيَصَدُّ عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

فقالوا له : اكفف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى .

لقد بانت نية قريش ، وظهر أنهم لا يريدون الحرب فعلا ، ويودون لو أن المسلمين دخلوا مكة فى ظل مفاوضة تحفظ على قريش ماء وجهها . . إنه مازالت فيهم بقية تخشى غضب الله إن صدت أحدا عن بيته ، ولذلك فهم لا يزالون يفسحون الطريق لكل من يريد أن يذهب إلى النبى - ﷺ - ليكلمه .

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص بن الأخيف . وقال : دعونى آته .

فوافقوا .

فتوجه مكرز إلى النبى - ﷺ - فجعل يكلمه ، ولم يزد فى حديثه على ما قاله من سبقه . .

ولم يزد النبى - ﷺ - فى رده على ما رد به على من سبقه أيضا . . وبينما مكرز فى حديثه مع النبى - ﷺ - إذ أقبل سهيل بن عمرو القرشى

ـ وكان النبى ـ ﷺ ـ يتفاءل بالأسماء ـ فقال : قد سهل لكم من أمركم .
لقد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا الرجل . . .

كيف تم الصلح ؟

لقد تطورت الأحداث فى ظل ما ذكرناه بسرعة . . وبدا الصلح كأنه قد جرى فجأة بدون مقدمات دفعت إليه ، سوى ما اجتمع عليه رأى الرسل الذين توجهوا من قبل قريش الى النبى ـ ﷺ ـ وعودتهم بالتأكيد بأن محمدا ما جاء لحرب ، وإنما جاء معتمرا . .

وقد أراد النبى ـ ﷺ ـ أن يؤكد ذلك للقرشيين مرة أخرى . فقام ـ ﷺ ـ بمبادرة من جانبه ، وخطا خطوة تقرب وجهات النظر بينه وبين قريش ، فأرسل عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ برسالة إلى قريش يخبرهم فيها أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته . .

كان النبى ـ ﷺ ـ قد أراد يبعث عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بهذه الرسالة ، ولكن عمر قال : يارسول الله ، إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى لها وغلظتى عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان .

ونحن نرى أن شجاعة عمر وقوة إيمانه بأبيان عليه أن يخشى قريشاً ـ ولعل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عدل عن اختيار عمر لذلك لما عرف عنه من الشدة فى معاملة القرشيين فآثر عثمان لتلك المهمة . . . . . .

وكان بعض الجهلاء من القرشيين قد فكروا فى التحرش بالمسلمين

فأرسلوا طائفة منهم ، وأمروهم أن يتسللوا إلى معسكر رسول الله - ﷺ - علهم يصيبون منه غرة . ولكن المسلمين كانوا على أهبة الاستعداد فأخذوهم أخذا ، وأتوابهم إلى رسول الله - ﷺ - فعفا عنهم وخلى سبيلهم على الرغم من أنهم كانوا قد رموا العسكر بالنبل والحجارة . .

وهل هناك أدل على حسن نية المسلمين أكثر من هذا ؟ . .

عثمان يؤدى الرسالة

وتوجه عثمان إلى مكة برسالة النبى - ﷺ - فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو فى طريقه اليها - وهو ابن عمه - فحمله بين يديه وأجاره ، حتى يبلغ رسالة رسول الله - ﷺ - فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وحوله عظماء قريش فأدى إليهم الرسالة .

فعرضوا على عثمان بعد أن فرغ من أداء رسالته أن يطوف بالبيت - فقال عثمان : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله - ﷺ - وأشاع بعضهم أن عثمان طاف بالبيت ، وذكروا ذلك أمام النبى - ﷺ - فقال : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون .

فقالوا : وما يمنعه يارسول الله وقد خلص ؟

فقال - صلوات الله عليه : ذاك ظنى به ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف معا .

واحتبست قريش عثمان عندها فترة من الزمن .

وطال أمد رجوع عثمان إلى النبى - ﷺ - حتى أشيع أن قريشا قتلته .

بيعة الرضوان

- شروط الصلح
- موقف بعض المسلمين من شروط الصلح
- حكمة الرسول ﷺ في قبول تلك الشروط
- نحر الهدى
- العودة إلى المدينة
- صلح الحديبية من وجهة نظر العسكريين
- دروس من هذا الصلح
- لماذا سمي صلح الحديبية فتحاً ؟

« بيعة الرضوان »

وصلت إشاعة قتل عثمان إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال لأصحابه : لا نبرح حتى نناجز القوم . .

لقد تبدل الموقف بين عشية وضحاها . . لقد جاءوا معتمرين حقاً ، ولكن قريشاً أبت إلا أن تجعلها حرباً . . ماذا بعد الاعتداء على السفيرالذى أرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الاعتداء على السفير معناه أن القوم قد آذنوا بالحرب ، والنكوص عنها جبن . .

حقاً إن المسلمين ليس معهم سلاح الحرب ، ولكن الاستبسال ينوب عن السلاح . إنها الفدائية التى تتطلب بذل الأرواح ومقابلة العدو بكل شجاعة وحماس ولو ذهبوا جميعاً ضحية الدفاع عن عقيدتهم ، وشرف كلمتهم ، ونصرة دينهم . فنادى النبى - صلى الله عليه وسلم - من يبايعنى على الموت ؟ ؟

وكان جالساً تحت شجرة ، فأقبل المسلمون سراعاً يلبون دعوته ويبايعونه .

كان أول من حضر إليه أبو سنان بن وهب الأسدى .

قال له النبى - صلى الله عليه وسلم - علام تبايع ؟

قال أبو سنان : على ما فى نفسك . وفى رواية : على ما فى نفسى .

قال : وما فى نفسك ؟

قال : أضرب بسيفى حتى يظهرك الله أو أقتل .

وبايع الناس على بيعة أبى سنان .

ولما فرغ الناس من المبايعة ، وضع النبى - صلى الله عليه وسلم - شماله فى يمينه ، وقال : هذه عن عثمان ، اللهم إن عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك ﷺ . فكانت يد النبى - صلى الله عليه وسلم - لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

القرآن يسجل هذه البيعة

وقد سجل القرآن الكريم هذه البيعة المباركة التى أظهرت حرص المسلمين على دينهم ، ومبادرتهم إلى الاستجابة لرسولهم ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [٢٤]

وقال - تعالى -

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ [٢٥]

---

(٢٤) الفتح ١٠
(٢٥) الفتح ١٨ ، ١٩

وسميت البيعة بيعة الرضوان ، لأن الله قد ذكر أنه رضى عن أصحابها وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حقها : « لا يدخل النار أحد بايع تحت هذه الشجرة[٢٦] »

وقال أيضاً : يأيها الناس إن الله قد غفر لأهل بدر والحديبية »
لقد تسابق الناس إلى البيعة مستبشرين . حتى لقد بايع بعضهم أكثر من مرة ، واعتبروا التنافس فيها شرفاً لا يعلوه شرف ، حتى لقد بايع سلمة بن الأكوع ثلاث مرات : مرة فى أول الناس ، ومرة فى أوسطهم ، ومرة فى آخرهم . .

لم يتخلف عن هذه البيعة سوى الجد بن قيس ـ وكان معروفاً بالنفاق . .
ولشرف هذه البيعة شرف المكان الذى تمت فيه ، وشرفت الشجرة التى استظلوا بها ، وجلس تحتها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبايع الناس . . حتى قصدوها بالزيارة . . فخشى عمر ـ رضى الله عنه ـ عاقبة ذلك ـ فقطعها[٢٧] »

وسمعت قريش بأمر هذه البيعة فهالتهم ودخلهم الفزع وأدركوا أن الأمر جد لا هزل فيه ، وأن ألفاً وأربعمائة مقاتل سينطلقون من عُرُنهم يوشكون ألا يلقوا منهم أحداً إلا افترسوه . .

---

(٢٦) رواه مسلم
(٢٧) المواهب اللدنية جـ٢ ص ٢٠٧

لا داعى للمناورة إذن ، وما على قريش إلا أن تذعن للواقع ، وترسل مفاوضاً ناجحاً لتأخذ لنفسها ما يحفظ عليها كرامتها ، ويعقد مع محمد ﷺ صلحاً يحترمه الجميع . وما على المسلمين بأس أن يعودوا فى عامهم هذا على أن يُقبلوا فى العام القادم لأداء العمرة إن شاءوا . وعلى هذا الأمر جاء سهيل بن عمرو . .

شروط الصلح

لقد صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فى قوله حين رأى سُهيل بن عمرو : قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا الرجل . .

وحين وصل سهيل وقف أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - وقام عباد ابن بشر وسلمة بن أسلم على رأس النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد جلس متربعاً . وجلس المسلمون حوله . وجرى القول بين النبى ﷺ وسهيل . وأطال سهيل الكلام ، وربما رفع صوته شأن المفاوض الذى يريد أن يحصل لقومه على أقصى ما يريد . فقال له عباد : اخفض صوتك عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستمرت المفاوضات بين النبى ﷺ وسهيل حتى تم توقيع الصلح بينهما على شروط . . أهمها :

- أن توضع الحرب بينهم عشر سنين يكف الناس فيها بعضهم عن بعض .
- وعلى أن من أتى محمداً ﷺ من قريش بغير إذن وليه رده إليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ﷺ لم يردوه عليه .

● وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

● وأن يعود المسلمون دون أن يدخلوا مكة هذا العام على أن يدخلوها فى عام قابل ، بعد أن يخليها القرشيون لهم لمدة ثلاثة أيام .

فتواثبت قبيلة خزاعة وقالت : نحن فى عقد محمد ﷺ وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم .

كتابة هذا العهد :

ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على بن أبى طالب ـ لكتابة هذا العهد .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : لا أعرف هذا . بل اكتب : باسمك اللهم .

فكتبها لأن قريشاً كانت تقولها . .

وأول من كتب باسمك اللهم أمية بن أبى الصلت . . وكتبها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عدة كتب سابقة .

وحين نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ ﴾ [٢٨]

---

(٢٨) النمل آية ٣٠

كتبها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كتبه .

ثم قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى : اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد ﷺ رسول الله سهيل بن عمرو .

فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدك عن البيت .

ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

وكان على ـ رضى الله عنه ـ قد كتبها . فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ امحها .

فقال على : لا أمحوها أبداً .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرنيه .

فأراه على إياه ، فمحاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده الشريفة . وقال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

وقال : أنا والله رسول الله وإن كذبتمونى ، وأنا محمد بن عبد الله » .

وثار بعض المسلمين قائلين : كيف نرضى الدنية فى ديننا ؟

ثم زاد غضب بعض المسلمين حين جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو وهو يرسف فى قيوده وكان أبوه قد قيده حتى لا يلحق بالمسلمين ـ ورمى بنفسه بينهم ، فأقبل المسلمون عليه يهنئونه ويرحبون به ، ولكن سهيلاً قام

من مكانه وضرب ابنه وقال : يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه ، أن ترده إلىّ ، لقد تم الاتفاق بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدقت .

فأقبل سهيل على ابنه يأخذ بتلابيبه ويجره إلى قريش .

وأبو جندل يصرخ قائلاً : يا معشر المسلمين ، أأُرَدُّ إلى المشركين يفتوننى فى دينى ؟ ألا ترون ما لقيت ؟

لقد عُذِّب أبو جندل عذاباً شديداً فى مكة على أن يترك الاسلام ، ولكنه كان مُصِراً عليه . وها هو قد برقت أمامه بارقة أمل فى النجاة فإذا بها تغلق دونه .

فزاد هذا الموقف المسلمين شجناً وألماً ، وأثار كوامن الثورة فى نفوسهم .. لقد جاءوا وهم على أمل أن يدخلوا مكة ، فإذا هم لم يدخلوها .. وقد أبى المشركون أن يقبلوا أن محمداً رسول الله .

وقد اشترط المشركون أن يرد المسلمون من جاءهم منهم ، فى حين أنهم غير ملزمين برد من جاءهم من المسلمين .

وها هو ذا أبو جندل أمامهم يستنجد بهم فلا يملكون أن ينجدوه .. إن هذا لهو الرضا بالدنية ..ـ هكذا فهم بعض المسلمين الأمر ـ

والتفت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أبى جندل فقال له : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً

ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك .

وجاء عمر بن الخطاب يمشي إلى جانب أبي جندل وأبوه يدفعه ـ ويقول عمر لأبي جندل فى همس يسمعه أبو جندل ولا يسمعه أبوه : اصبر يا أبا جندل فإنما هم مشركون وأنت مسلم . .

وأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطمئن على أن أبا جندل لن يعذب فقال لسهيل : أجره لى .

فقال سهيل فى جفاء : ما أنا مجير ذلك لك .

فقال مكرز وحويطب بن عبد العزى : قد أجرناه لك .

وقد تكلم بعض المسلمين فى شأن هذا الصلح ، الذى كتب ، وقالوا : إنه لا يتناسب مع ما نحن فيه من عزة وعلو شأن . .

وأقبل عمر على أبي بكر يقول له : كيف نقبل الدنية فى ديننا ؟ ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟

فقال أبو بكر له : يا عمر إنه رسول الله . .

ولكن عمر ـ بما ركب فى طبعه من صراحة وشدة ـ لم تهدأ نفسه حتى جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : يا رسول الله ، أترضى بما فى هذا الكتاب ؟

فيبتسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقول : يا عمر ، من جاءنا منهم فرددناه سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه فى شيء ، أى ولا حاجة لنا به . .

لقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر بأنه رسول الله ولن يضيعه . .

كان نظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعيداً . . لقد أدرك أن هؤلاء المستضعفين سيكونون عوناً للمسلمين بمكة فى وسط العدو ، ويمكنهم أن يؤثروا على أهل مكة فى حالات معينة ، ووجودهم فى معسكر قريش سوف يكون فى حقيقة الأمر مصدر قوة للمسلمين . .

قريش تضطر للتنازل عن هذا الشرط

على أن قريشاً لم تلبث أن اضطرتها الظروف الى التنازل عن هذا الشرط الذى كانت تعتبره مغنماً لها ، وسعت راضخة الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تطلب إلغاءه .

ذلك أن رجلاً اسمه أبو بصير عتبة بن أسيد بن عبد الله ين سلمة الثقفى وكان أحد المستضعفين فى مكة . ومن الذين حال المشركون بينهم وبين الهجرة . . . . أقبل أبو بصير بعد الصلح الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى المدينة مسلماً فرده الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ طبقاً للاتفاق الذى تم مع القرشيين .

ولنترك ابن الأثير يحدثنا عن هذه القصة فيقول :

لما أمن الناس وتفاوضوا ، دخل كثير من الناس فى الاسلام ، فلقد دخل فى تلكما السنتين أكثر مما كان دخل فيه قبل ذلك ، وكان صلح الحديبية فتحاً عظيماً ، ولما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة واطمأن بها أقبل

إليه أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثقفى ، حليف بنى زهرة ، فكتب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأخنس بن شريق الثقفى ، والأزهر بن عبد عوف ، وبعثا بكتابهما مع مولًى لهما ورجل من بنى عامر بن لؤى استأجراه ليرد عليهم صاحبهم أبا بصير .

فقدما على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفعا إليه كتابهما .
فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بصير ، فقال له : يا أبا بصير ، إن هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد علمت ، وإنا لا نغدر ، فالحق بقومك .

فقال أبو بصير ، يارسول الله ، أتردنى الى المشركين يفتوننى فى دينى ؟
فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اصبر يا أبا بصير واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين من المؤمنين فرجاً ومخرجاً .
فخرج أبو بصير ، وخرجا . حتى إذا كان بذى الحليفة ، جلسوا إلى سور جدار . . .

فانتهز أبو بصير غفلة من العامرى ثم أخذ سيفه وضرب به عنق العامرى وفر هارباً وأسرع المولى الذى كان يرافق العامرى يشتد حتى طلع على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بالمسجد .

فلما رآه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : هذا رجل قد رأى فزعاً .
فلما انتهى إليه قال : قتل صاحبكم صاحبى .

فما برح حتى أقبل أبو بصير وهو متوشح بالسيف . فوقف على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله وفيت ذمتك ، وقد امتنعت بنفسي .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا مُسَعِّرُ حرب لو كان معه رجال .

وخرج أبو بصير حتى نزل بالعيص ، وهو طريق أهل مكة الى الشام ، فسمع به من كان بمكة من المسلمين فلحقوا به ، حتى كان فى عصبة تقرب من ستين أو سبعين ، وكانوا لا يظفرون برجل من قريش إلا قتلوه ، ولا تمرُّ بهم عير إلا اقتطعوها . .

حتى أزعجوا قريشاً وزلزلوا أقدامها . فكتبت قريش الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسأله بحق الأرحام أن يؤوى هؤلاء إليه فإنهم لا حاجة لهم بهم . وهكذا ألغت قريش الشرط بنفسها . . وكان هذا الشرط الذى ظنت أن فيه كرامة لها هو الذى أذهب الكرامة عنها وأذلها . . وهكذا أصبح الشرط الذى ظنه المسلمون مجحفاً بهم فى صالحهم .

وكان أبو جندل بن سهيل ممن لحق بأبي بصير أيضاً فمكث عنده . .

وأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى أبي بصير وأبى جندل كتاباً يستقدمهما فيه إليه هما ومن معهما . . ووصل الكتاب وأبو بصير مريض ، فمات فدفنه أبو جندل وصلى عليه(٢٩) .

---

(٢٩) أسد الغابة حـ٦ صـ٣٥

على أن المسلمين لم يتنبهوا حينذاك لهذه النتائج البعيدة ، ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد تنبه لها .. ولذلك قبل الصلح بالرغم من أنه يبدو فى الظاهر مجحفاً بالمسلمين . ولكنه فى حقيقة الأمر لم يكن كذلك .

لقد اعترف المشركون بأن المسلمين أصبحوا قوة يحسب حسابها ، وها هم أولاء قد قبلوا أن يجلسوا معهم إلى مائدة المفاوضات يضعون بنوداً للصلح ، بعد أن كانوا يرفضون ذلك .

وأصبح المسلمون أحراراً يتنقلون كيفما شاءوا فى شرق الجزيرة وغربها بعد أن كانوا يسيرون على حذر كما كان المشركون أيضاً يسيرون على حذر . .

ولنرجىء الحديث مؤقتاً عن نتائج هذا الصلح لنعود مرة أخرى الى موقف المسلمين من الصلح . .

لما فرغ النبى - صلى الله عليه وسلم - من كتاب الصلح أشهد عليه رجالاً من المسلمين . فشهد أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة .

كما شهد رجال من قريش كذلك منهم مكرز وحويطب بن عبد العزى .

عند ذلك أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بالنحر والحلق .

قال ذلك ثلاث مرات . فلم يقم أحد منهم . لظنهم أنَّ فى شروط الصلح إجحافاً بالمسلمين .

فدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على زوجه أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ وهو غاضب أشد الغضب ، فاضطجع .

فقالت له : مالك يا رسول الله ؟ فلم يجبها فألحت عليه ، فقال : هلك المسلمون يا أم سلمة .. أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا ..

فقالت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ يا رسول الله لا تلمهم ، فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ، ورجوعهم دون أن يؤدوا العمرة .

ثم أشارت عليه أن يخرج ولا يكلم أحداً منهم ، وينحر الهدى ويحلق رأسه .

ففعل ذلك .. أخذ ـ صلى الله علية وسلم ـ حربة ، وقصد هديه ، وأهوى بالحربة إلى البدن رافعاً صوته بسم الله والله أكبر .

ثم دخل ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبة له من أدم أحمر ، ودعا بخراش بن أمية ـ وكان حجاماً ـ فحلق رأسه ، ورمى شعره على شجرة ، فلما رأى الناس ما فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاموا فنحروا وحلقوا .

وفرق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحوم الهدى على الفقراء الذين حضروا الحديبية .

وقيل : إنه بعث إلى مكة عشرين بدنة مع ناجية بن جندب الخزاعى . وكان ناجية هذا هو الذى نزل فى الحفرة التى نضب منها الماء ، ووضع فيها

سهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنبع الماء ، وأقبل الناس عليه يملأون دلاءهم . واستشار ناجية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يفعله بالهدى الذى يعطب منه فى الطريق . أى الذى تصيبه آفة تمنعه من السير .

فقال له : انحرها ، وخلّ بينها وبين الناس يأكلونها(٣٠) .

ونحر ناجية الهدى بالمروة ، وقسم لحومه على فقراء مكة . . .

وبعد أن فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك أقبل الناس يحلقون ويقصرون ... ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً : اللهم ارحم المحلقين ، وفى رواية : اللهم اغفر للمحلقين . .

قالوا : والمقصرين ؟ فقال : يرحم الله المحلقين والمقصرين .

وقال بعضهم : قال أصحاب رسول الله : يارسول الله لم أظهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين ؟

قال : لأنهم لم يشكُّوا . أى عزموا على تنفيذ أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولم يرجوا أن يطوفوا بالبيت ، بخلاف المقصرين . . لأن الظاهر من حالهم أنهم أخروا بقية شعورهم رجاء أن يحلقوها بعد طوافهم بالبيت(٣١) ، وعلى ذلك فقد كان لهذا الدعاء مناسبته .

ولاشك أن التحليق أفضل من التقصير لتقدمه فى الآية

---

(٣٠) أسد الغابة جـ٥ صـ٢٩٤ ، وتحفة الأحوذى ـ أبواب الحج . باب . إذا عطب الهدى .

(٣١) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٧١٣

« محلقين رءوسكم ومقصرين » . وليس للنساء إلا التقصير[٣٢] . .

العودة إلى المدينة

وانصرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ راجعاً الى المدينة بعد أن أقام بالحديبية تسعة عشر يوماً . .

رجعوا على أن يعودوا فى العام القادم . . وفق الشروط المبرمة مع قريش ، ليدخلوا مكة معتمرين .

فلما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين مكة والمدينة ـ وهو بكراع الغميم . أنزل الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة الفتح .
وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر بن الخطاب : أنزلت على الليلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس . .

ولما أنزلت قال جبريل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هنيئاً لك يا رسول الله ، وهنأه المسلمون ، ولكن بعض المسلمين تكلموا فقالوا : ما هذا بفتح ـ لقد صدونا عن البيت وصدوا هدينا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بلغه ذلك ـ بل هو أعظم الفتح ، لقد اعترف المشركون بقوتكم ، وطلبوا منكم الصلح ، ورغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله عليهم ، وردكم

---

(٣٢) راجع تفسير القرطبى سورة الفتح

الله تعالى سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتوح . أنسيتم يوم أحد - إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟ ونسيتم يوم الأحزاب « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا .

فقال المسلمون : صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح ، والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا .

وقال له عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ألم تقل يا رسول الله - صلى الله عليك وسلم - إنك تدخل مكة آمناً ؟ قال : بلى ، أفقلت لكم من عامى هذا ؟ قال : لا . قال : فهو كما وعدنى ربى عز وجل - وسوف تدخلونها وتطوفون بالبيت(٣٣) .

ما نزل فى الحديبية من قرآن

نزلت سورة الفتح كاملة وهى تسع وعشرون آية ، فى شأن الحديبية . جاء فى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يسير فى بعض أسفاره ، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً . فسأله عمر عن شىء ، فلم يجبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه .

---

(٣٣) المرجع السابق صـ٧١٥

فقال عمر بن الخطاب لنفسه : ثكلتك أمك يا عمر ألححت فى السؤال على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات وهو لا يجيبك .

قال عمر : فحركت بعيرى ، ثم تقدمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فىَّ قرآن ، فما نشبت - ما لبثت - أن سمعت صارخاً يصرخ بى ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فىَّ قرآن ، فجئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزلت علىَّ الليلة سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾[٣٤]

لقد عد الله صلح الحديبية فتحاً . روى البخارى عن أنس قال : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » قال : الحديبية .

وقال جابر : ما كنا نعد فتح مكة إلا الحديبية .

وقال الفرّاء - فيما يرويه الطبرى - تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية .

ولما نزل قوله - تعالى

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾

---

(٣٤) الفتح ١ : ٣

قال المسلمون : هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله ، لقد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟

فنزل قوله تعالى :

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ ﴾ [35]

ثم نبهت السورة الى موقف المنافقين وشقاقهم ، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ويظنون بالمسلمين ظن السوء ، وقرنتهم مع المشركين فى العذاب . فقال الله تعالى ـ فى ذلك :

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ ﴾ [36]

كان من ظن السوء عند المنافقين أن عبد الله بن أبى بن سلول قال : أيظن محمد ﷺ أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ؟ فأين فارس والروم ؟

فبين الله ـ تعالى ـ أن لله جنوداً أشار إليهم بقوله

---

(٣٥) الفتح ٥

(٣٦) الفتح ٦

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ [٣٧]

وأشارت السورة الى مهمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يجب على المؤمنين .

فقالت

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [٣٨]

وأثنت على المبايعين الذين بايعوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت الشجرة ، كما نعت على أولئك الذين تخلفوا عن هذه البيعة أو حدثوا أنفسهم بنقضها . وقد ذكر الرواة أن الجد بن قيس ـ وهو معروف بالنفاق ـ كان هو الذى انقبض عن البيعة واختبأ خلف بعير فلم يبايع ، وكان سيد بنى سليمة فى الجاهلية ، فلما أسلموا قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سيدكم ؟

قالوا : الجد بن قيس ـ على بخل فيه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأى داء أدوأ من البخل ؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح .

وقد نزل فى شأن الجد بن قيس هذا فى غزوة تبوك قوله تعالى

---

(٣٧) الفتح ٧

(٣٨) الفتح ٨ ، ٩

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[39]

وكان بعض الأعراب ممن يقيمون حول المدينة قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أذن بالعمرة بين الناس . متعللين بأسباب واهية ، وهم في الواقع خائفون من قريش ففضحهم الله بقوله :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[40]

لقد بينت الآيات حقيقة تخلفهم ، وهو اعتقادهم أن قريشاً ستقضى على النبى ﷺ والمسلمين فى عمرتهم هذه . ولكن خاب ظنهم ، وظهر نفاقهم .

وأراد هؤلاء المخلفون أن يكون لهم حظ الاشتراك فى الغزوات المقبلة كغزوة خيبر ، ولكن الله قد قضى ألا يشترك فى خيبر إلا من اشترك فى عمرة الحديبية . . وبذلك حَرَمَ هؤلاء المخلفون أنفسهم من غنيمة الدنيا والآخرة . .

---

(٣٩) التوبة ٤٩

(٤٠) الفتح ١١ ، ١٢

وقال الله ـ تعالى ـ فى ذلك :

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[41]

ومع ذلك فسوف تترك لهم فرصة أخرى غير خيبر يظهر فيها صدق قولهم إن كانوا حقاً صادقين قال تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾[42]

وقد ذكر العلماء أن هؤلاء القوم الذين سوف يدعى لهم هؤلاء المخلفون هم هوازن وغطفان يوم حنين ، وقال بعضهم : هم بنو حنيفة أهل اليمامة الذين ارتدوا بعد الاسلام . .

ولكن هناك من المخلفين من له عذر ولذلك استثناهم الله بقوله ـ تعالى ـ

(٤١) الفتح ١٥

(٤٢) الفتح ١٦

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾[43]

وقد أثنى الله على المبايعين خيراً ورضى عنهم . كما وعدهم خيراً ، وأثابهم فتحاً آخر قريباً هو فتح خيبر الذى أشار إليه الحق بقوله تعالى

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾[44]

لقد ذكرهم الله نعمته عليهم . بأن كف أيدى القرشيين عنهم بالصلح ، لما فى ذلك من دلالة على قدرة الله ، وبشرهم بما سوف يفتح عليهم فيما بعد ـ إن شاء الله تعالى ـ من بلاد فارس والروم . وهذه هى التى أشار إليها بقوله

---

(٤٣) الفتح ١٧
(٤٤) الفتح ١٨ : ٢٠

« وأخرى لم تقدروا عليها »

يعنى فى الوقت الحاضر . ولكنها ستكون لكم مستقبلاً .

وقد أشارت السورة إلى أن الله جلت قدرته حافظ دينه ، ومحقق وعده وناصر جنده ـ فلو أنه حدث قتال بينكم وبين أهل مكة لأظفركم عليهم . ولكنه كف أيديكم عن القتال لتنالوا بالصلح ما لم تنالوه بالحرب . فقال ـ تعالى :

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

سورة الفتح ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤

أمثلة من هذا الإظفار

● لقد كانت قريش على كثرتها واستعدادها فى منتهى الفزع والخوف من الحرب ، حتى لقد كف الله خالد بن الوليد وهو المشهور بالشجاعة والاقدام عن التقدم جهة المسلمين .

● قال عبد الله المزنى : كنا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحديبية فى أهل الشجرة التى ذكرها الله فى القرآن ، فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا ، فدعا عليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذ الله بأبصارهم .

فأخذناهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتحدث معهم ثم خلى سبيلهم .

● أرسلت قريش أيضاً نحو سبعين رجلاً أو ثمانين للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة فى أطرافهم ، ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى . . فأطلقهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

● وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقال له : زُنَيْمْ ، اطلع الثَّنية من الحديبية ، فرماه المشركون بسهم فقتلوه ، فبعث النبى - صلى الله عليه وسلم - خيلاً فأتوا باثنى عشر من الكفار ، فقال لهم النبى - صلى الله عليه وسلم - هل لكم علىَّ ذمة ؟
قالوا : لا

فأرسلهم النبى - صلى الله عليه وسلم -
وأشارت السورة إلى الحكمة فى الكف عن القتال ، وأظهرت أن هناك مستضعفين من المسلمين فى مكة ، بعضهم لم يعلن عن إسلامه خوفاً ، فلو حدث قتال لَقُتِل بعض هؤلاء بأيدى المسلمين . ولذلك قال - تعالى

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

وكان من هؤلاء المستضعفين سلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، وأبى جندل بن سهيل وغيرهم ، ومن النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكان أبوها من كبار المشركين المعاندين . ولكنها أسلمت وكتمت إسلامها ، وقيل : إنها كانت قد أسلمت قبل هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - ولكنها لم تستطع أن تهاجر . فلما تم الصلح هاجرت . ودخلت على أم سلمة - رضى الله عنها - وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة ، ولكنها تتخوف أن يردها النبى - صلى الله عليه وسلم - كما رد أبا جندل .

وجاء النبى - صلى الله عليه وسلم - فأعلمته أم سلمة بأمر أم كلثوم فرحب بها ، وجاء أخوها عمارة والوليد فى ردها بناء على العهد وقالا : يا محمد ﷺ أوف لنا بما عاهدتنا عليه . ولكن الله أنزل فى ذلك قوله - تعالى -

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ (٤٥)

---

(٤٥) الممتحنة ١٠

فرفض النبى - ﷺ - إرجاعها .

وزوجها النبى - ﷺ - من زيد بن حارثة - رضى الله عنه -

ومنهن أيضا سبيعة بنت الحارث ، فقد أقبلت أيضا مهاجرة وكانت زوجة لمسافر المخزومى ، فجاء يطلبها فلم يردها النبى - ﷺ - بناء على هذه الآية . فطلقت من زوجها ، وأخذ ما أنفقه عليها أى ما كان أعطاه إياها من مهر . . وعاد إلى مكة .

وتزوجها عمر - رضى الله عنه -

فهؤلاء وأمثالهم من المستضعفين كانوا مسلمين فى السر ، وخوفاً من إصابة مثل هؤلاء هدى الله المسلمين إلى الصلح ، ولو أنهم حاربوا لربما أصابوا بعض هؤلاء دون علم ولو كان هناك تميز بين المسلمين وغيرهم فى مكة لعذب الله الكفار بالسيف ، ولكنهم كانوا مختلطين بهم لا يعرفهم أحد . .

وأشارت السورة إلى صفات الكافرين الذين أعمتهم الحمية الجاهلية عن الحق فلم يتبينوا قيمة كلمة « بسم الله الرحمن الرحيم » وكلمة « رسول الله » أما المؤمنون فقد أنزل الله السكينة فى قلوبهم وألزمهم كلمة التقوى وهم أحق بها . .

كما أشارت إلى أن وعد الله حق ، ورؤيا نبيه ﷺ واقعة لا شك فيها . . ولابد من أن يظهر دين الله فى الآفاق مهما جمع الكافرون ، وشكك المنافقون .

كما تحدثت السورة عن أوصاف الصادقين من أصحاب النبى - ﷺ -
كل ذلك ذكرته الآيات الكريمة فى قوله - تعالى

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ (٤٦)

---

(٤٦) الفتح ٢٦ : ٢٩

صلح الحديبية من وجهة نظر العسكريين :

ولقد وقف العسكريون فى عصرنا الحديث أمام هذا الصلح موقف الإعجاب الكبير بنتائج هذا الصلح الذى أبرمه النبى - ﷺ - مع المشركين ولعل من المفيد أن نذكر نص الوثيقة التى حررت لما فيها من إحكام فى الصياغة ، وبراعة فى التحفظات ، ودقة فى الاشتراطات - على إيجازها -

نص الوثيقة

« باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو . . . اصطلحا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم - ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه إليه .

« وأن بيننا عيبة مكفوفة ،[47] وأنه لا إسلال ولا إغلال . »[48]

وأنه من أراد أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

● وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه اذا كان عام قابل خرجنا فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب فى القرب ،[49] لا تدخلها بغيرها . »

---

(٤٧) العيبة المكفوفة : تعنى أننا تكف عنك وتكف عنا ، والعيبة موضع السر من أهل الثقة .

(٤٨) الإسلال : السرقة الخفية ، والإغلال : الخيانة

(٤٩) القرب : جمع قراب وهو الغمد للسيف

أهم دروس الصلح

قال المراقبون العسكريون : أهم هذه الدروس مايلى :

● توخى الهدف وهو السلام .

وتوخى الهدف مبدأ من مبادىء الحرب المهمة ، ووضع الخطة المناسبة لتحقيقه ، وتنفيذ هذه الخطة بدقة وبراعة .

وقد برز توخى الهدف عند الرسول - ﷺ - واضحا ، إذ خرج محرما ، يسوق الهدى ، يعلن أنه غير محارب ، لا يصطحب سلاحا إلا السيوف فى أغمادها ، وعدل عن الطريق العام إلى طريق آخر خشية الاصطدام . .

وبقى مصرا على تحقيق هذا الهدف إلى آخر لحظة حتى نما إلى علمه أن عثمان قتل . فلما وضح أن عثمان - رضى الله عنه - لم يقتل أفسح الطريق للمفاوضات . .

● الضبط . ويعنى العسكريون بالضبط الحالة النفسية التى تساعد الفرد على أداء واجبه ، أو القدرة على حبس الانفعالات غير العادية كالخوف أو الغضب . .

وقد ظهر ذلك واضحا فى تصرف النبى - ﷺ - وبخاصة حين صُدَّ المسلمون عن هدفهم ومنعوا دخول مكة وهم على أبوابها ومتشوقون إليها .

وحين أقبل أحد المسلمين يريد أن ينضم إليهم فحيل بينه وبين ذلك وبسبب شروط المعاهدة - رده النبى - ﷺ - بالرغم من عدم رضا كثير من المسلمين عن رده إلى المشركين .

كان النبى - ﷺ - مثالا نادرا فى ضبط أعصابه والتحكم فى انفعالاته ، ولم يكن أقل من غيره حرصا على دخول مكة ، ولم يكن أقل من غيره غيرةً على الدين ولكنها النظرة البعيدة وسعة الأفق . .

● الحياد المسلح

ويقصد به فى القانون الدولى الحالة القانونية التى توجد فيها الدولة التى لا تشتبك فى حرب قائمة بين طرفين ، وتستبقى علاقاتها السلمية مع الطرفين المتحاربين ، ويتميز الحياد المسلح عن الحياد السلبى بما يصدر من الدولة المحايدة من إعلان عزمها على استعمال القوة للمحافظة على حيادها ، ومنع الدول المحاربة من الإخلال به .

وقد دخلت خزاعة فى حلف النبى - ﷺ - لأنها كانت تميل إلى المسلمين ، ولم تستطع محالفتهم قبل ذلك . ولكن هذا الصلح أتاح لها هذه الفرصة - وقد حَرَمت هذه الهدنة يهود خيبر من الأمل فى معاونة قريش لها . .

وأتاحت هذه الهدنة الأمان فى المنطقة الجنوبية للمدينة ، كما أتاحت الفرصة لانتشار الإسلام والتبشير به .

لقد نظرت قريش نظرة سطحية أملتها العصبية الجاهلية - وهى ألا يدخل المسلمون مكة بهذه الصورة التى تشير إلى إنهم دخلوها عنوة ، كما اشترطوا ألا يقبل المسلمون أحداً بدون إذن وليه ، وألا يردوا هم أحداً . .

فماذا كانت نتيجة هذه الشروط . . ؟

لقد زاد عدد المسلمين ، وعاد المسلمون فى العام التالى فأدوا عمرتهم آمنين ، واستطاع أبو بصير أن يتمرد على قريش ويكون حامية أرهبت قريشا فأسرعت قريش تطلب إلغاء الشرط الذى أملته بنفسها فى الصلح .

●● ولقد كسب المسلمون من ذلك وما خسروا ، وخسرت قريش وما كسبت . . لقد أظهر هذا الصلح المسلمين فى صورة المسالمين ، وأظهر قريشا فى صورة المعاندين . لقد جاء المسلمون الى البيت معظمين ، ولكن قريشا صدتهم عنه ـ فظهر أمام العرب جميعا أنَّ قريشا ظالمة ، فليس من حقها أن ترد أحدا عن زيارة البيت . . وقد رأى الحليس وهو أحد الزعماء المحالفين لقريش بعينه الهدى الذى ساقه الرسول فأنكر فعل قريش ، وكادت تشتعل الحرب بينه وبين قريش بسبب ذلك .

كما أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قد تمكن فى أثناء وجوده بمكة من الاتصال بكثير من الناس وتوجيههم إلى أهداف الإسلام العظيمة .

فكانت الحديبية إذن حرب إعلام من الطراز الممتاز .

وقد حققت نتائج عظيمة من أهمها :

● اعتبار المسلمين طرفا مساويا لقريش ، وهذا اعتراف منهم بالدولة الإسلامية .

● انفتح المجال أمام القبائل الراغبة فى التحالف مع المسلمين دون خوف أو وجل

● فرقت الحديبية بين قريش وحلفائها الطبيعيين كيهود خيبر الذين لم يكفوا عن التحريض ضد المسلمين وجمع الجموع لهم .

● الاستقرار الذى تهيأ لنشر الدعوة فى كافة أنحاء الجزيرة العربية ، بل وفى خارجها أيضا :

● تأليب الرأى العام ضد قريش التى وقفت فى وجه من يقصدون البيت الحرام ، وقد كان لهذا الموقف أثره فيما بعد بالنسبة لفتح مكة .

● ازداد تعلق المسلمين بنبيهم - ﷺ - حين تبينت لهم هذه النتائج التى لم تخطر لهم على بال وقت توقيع المعاهدة والتى فطن لها النبى - ﷺ - وقد قال أبوبكر - رضى الله عنه فى ذلك : « إن الحديبية كانت أعظم نصر للإسلام »

وقد أدرك المسلمون حينئذ أن الفتح الذى أشار الله - تعالى - إليه فى قوله تعالى

« إنا فتحنا لك فتحا مبينا »

كان هو صلح الحديبية . . »(٥٠)

● ولقد فتح هذا الصلح الطريق لعقلاء المشركين أن يتدبروا موقفهم جيدا ، ويفكروا بإخلاص فى هذا الدين ومراميه ، فاهتدى كثير منهم إلى الإسلام كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وغيرهم ممن انتفع بالاسلام وانتفع به الاسلام . .

---

(٥٠) راجع الرسول القائد صـ٢٧١ وما بعدها

● على أن هذا الصلح قد أتاح للمسلمين الفرصة للقضاء على وباء خطير كان لا يكف عن تهديد المسلمين والتأليب ضدهم .. فكان فتح خيبر الذى قضى نهائيا على شوكة اليهود فى الحجاز ..

وإذا كانت هذه هى وجهة نظر العسكريين حول هذا الصلح ، فإليك وجهة نظر الأدباء والمفكرين وتأملاتهم ..

تأملات حول الحديبية

إن رسول الله - ﷺ - حين أجمع المسير إلى مكة معتمرا استنفر العرب وَمَنْ حوله من أهل البوادى من الأعراب ، ليخرجوا معه ، ولكن الأعراب تباطأوا ، فخرج - صلوات الله عليه - فى ذى القعدة - بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب .

« والذى ينبغى أن نعرفه أن الأعراب - فى أكثر الأحيان - لم يكونوا من قوة الإيمان ، بحيث يجاهدون مع رسول الله - ﷺ - لإعلاء كلمة الإسلام ، وإنما يخرجون التماسا للمنفعة ، ثم إن كثيرا منهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين ، فيظهرون غير ما يبطنون ، فذلك قول الله - جل ثناؤه -

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ

﴿ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾(٥١)

ـ وهذا هو موقف المنافقين أيضا . . . إنه نفس موقف الأعراب كما سيأتى فى مواقف أخرى . . وقد تحدث عن ذلك القرآن الكريم أيضا ـ فى سياق غزوة تبوك ـ قال تعالى :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾(٥٢)

●● إن أول ما يخطر بالبال فى باب التأملات أن صلح الحديبية كان مقدمة بين يدى الفتح الأعظم الذى هو فتح مكة فى شهر رمضان سنة ثمان .

لماذا سمى صلح الحديبية فتحاً ؟

« وإنما سمى صلح الحديبية فتحا ـ مع أن المسلمين صُدُّوا عن البيت ـ لأنه فتح طريق الاسلام أمام الناس ، فكلم بعضهم بعضا ، وتناظروا فى الاسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين فى مكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه ، ثم من حيث إن كثيراً من المشركين دخلوا فى سلطان

---

(٥١) الفتح ١١ ، ١٢

(٥٢) التوبة ٩٧ ، ٩٨

الإسلام بسبب هذا الصلح الشريف ، وآية ذلك نزول سورة الفتح . . وقد سأل عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال أو فتح هو يارسول الله ؟ فقال رسول الله : « نعم هو فتح » وليس وراء بيان رسول الله بيان .

« يقول الامام ابن القيم : وذلك هو شأن الحق سبحانه وتعالى ـ أن يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، مُنبئة بها ولافتة إليها ، كما قدم بين قصة المسيح ـ عليه السلام ـ وخلقه إياه من غير أب قصة زكريا وخلق الولد له ـ مع كونه كبيرا لايولد لمثله عادة ، وكما قدم بين يدى نسخ القبلة قصة البيت فى بنائه وتعظيمه والتنويه به وذكر بانيه تعظيما له وإعلاء لشأنه ، وكما قدم ـ سبحانه ـ بين يدى مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ من قصة الفيل وبشارات الكهان به ، وعلى ماقدم بين يدى الوحى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فى اليقظة ـ الرؤيا الصالحة فى النوم . . وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدى الأمر بالجهاد .

« ولعلك سائل بعد ذلك عن الفتح الذى كان صلح الحديبية توطئة له ومقدمة بين يديه .

« وجواب سؤالك هذا ـ أن ذلك الفتح هو فتح مكة الذى جاء فى كتاب الله معرفا بالألف واللام فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ

﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[٥٣]

تحرير العبيد

« ومما ينشرح له صدر المتأمل فى أحداث الحديبية أن يتمثل المسلم مقدار حرص رسول الله ـ ﷺ ـ على تحرير العبيد ، ومقدار غضبه على من يعترض سبيلهم إلى هذه الغاية الشريفة . . . وبيان ذلك أنه كان قد خرج إليه ـ صلوات الله عليه ـ يوم الحديبية قبل تمام الصلح عبيد قد اعتنقوا الاسلام ، فكتب إليه سادتهم يقولون له : إن هؤلاء العبيد لم يخرجوا إليك يامحمد رغبة فى دينك ، ولكنهم خرجوا هربا من الرق . فقال ناس لرسول الله ـ ﷺ ـ : ردهم إليهم » فغضب ـ ﷺ ـ أشد الغضب ، ثم قال : « ماأراكم تنتهون يامعشر قريش حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم » ثم أبى أن يرد العبيد إلى سادتهم ومواليهم وهو يقول : « إنهم عتقاء الله من النار »[٥٤]

●● ومما يطيب للمتأمل أن يكثر من ترداده فى عصرنا الحاضر اعتزازا به ـ هو أن الاسلام كرم المرأة بما لم يسبقه إليه سابق ، ولا يلحقه فيه لاحق من أولئك الذين يتحاملون على الاسلام فى هذا الباب جهلاً أو افتئاتا بالباطل وعناداً للحق .

---

(٥٣) سورة النصر

(٥٤) أخرجه أبو داود

وبيان ذلك ماأخرجه جامع الأصول من أن رسول الله - ﷺ - بعد أن فرغ من كتاب الصلح بينه وبين قريش قال لأصحابه من المهاجرين والأنصار : « قوموا فانحروا واحلقوا » .

ومع أن الكلمة الشريفة قد ملأت أسماعهم فإن أحدا منهم لم يقم ، وكرر رسول الله - ﷺ - الأمر ، ولكن أحدا لم يقم ، فأمر مرة ثالثة ، ومع ذلك ظل القوم على سكوتهم لم يتحرك منهم أحد امتثالا لأمر رسول الله - ﷺ - . . وكان ذلك لاعتراضهم على شروط الصلح . . « فقام هو فدخل على أم المؤمنين أم سلمة - رضى الله عنها - فذكر مالقى من الناس .

« فقالت له - مشيرة عليه - : يارسول الله اخرج إليهم دون أن تكلم أحدا منهم فانحر واحلق . .

« فلما خرج رسول الله - ﷺ - من بيته أمضى ماأشارت به عليه زوجة . فلما رأى أصحابه ذلك قاموا ففعلوا كما فعل رسول الله - ﷺ - . . - فكان رأى أم سلمة - رضى الله عنها - بركة وخيرا على المسلمين .

ومما يسترعى النظر فى صلح الحديبية أيضا موقف سهيل بن عمرو وابنيه : عبد الله بن سهيل وأبى جندل بن سهيل ، وقد رأينا كيف كان موقف سهيل من رسول الله - ﷺ - فى تشدده معه ، وإبائه أن يكتب البسملة ، أو يكتب كلمة رسول الله فى عقد الصلح . .

« ثم نرى سهيلا هذا يعتنق الاسلام ويهاجر إلى الشام ، ثم يقتل شهيداً

مع ابنه أبي جندل في خلافة عمر ، وقد قتل قبل ذلك ابنه عبد الله في معركة اليمامة .

« ولست ترتاب في أن الذي يتدبر هذه الصورة على هذا النحو - لا مندوحة له عن أن يرى أن الاسلام كأنه قد خلق هؤلاء القوم خلقاً جديداً .

وأخيراً فإن هذا الصلح قد مهد الطريق لتطهير البلاد من اليهود والتخلص من مؤامراتهم ضد الاسلام والمسلمين فكان فتح خيبر . .



فتح خيبر

- متى خرج النبي لتلك الغزوة ؟
- سبب الغزوة .
- الاستعداد للمعركة .
- عنف الصراع .
- كيف تم فتح الحصن ؟
- أحداث مثيرة في خيبر .
- النهي عن المتعة .
- ما حدث بعد فتح خيبر .
- تشريعات إسلامية .

الفتح القريب : فتح خيبر

لقد جاء فتح خيبر تصديقاً لقوله - تعالى - . .

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٥٥)

ولقوله - تعالى :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٥٦)

ذكر كثير من المفسرين أن الفتح القريب فى هذه الآيات ، هو فتح خيبر . .

ووصف بأنه قريب ، لأنه كان أقرب مماكان يظن المسلمون ، ومماكان يتوقع اليهود والمشركون . . .

فلم يكن بعد العودة من الحديبية والتوجه إلى خيبر أكثر من عشرين ليلة . .

---

(٥٥) الفتح ١٨ ، ١٩
(٥٦) الفتح ٢٧

تجهز النبى - ﷺ - فى خلالها للخروج إلى خيبر . . التى كان الله قد وعده إياها فى تلك الآيات المتقدمة .

أين خيبر ؟

وخيبر - على وزن جعفر - سميت باسم رجل من العماليق نزلها يقال له : خيبر ، وهو أخو يثرب الذى سميت باسمه المدينة ، وهما ابنا قانية بن مهلايل .

وقيل : الخيبر - بلسان اليهود - معناه الحصن ، ولذلك سميت خيابر أيضاً .

وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثير ، بينها وبين المدينة المنورة ثمانية بُرُد - جمع بريد - والبريد أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، فهى على ستة وتسعين ميلا من المدينة - يقطعها المسافر على قدميه فى ثلاثة أيام تقريبا .

متى خرج النبى ؟

خرج النبى - ﷺ - إلى خيبر فى آخر سنة ست من الهجرة الشريفة . وقد استنفر أصحابه الذين صحبوه فى الحديبية .

كانوا زهاء ألف وأربعمائة راجل ومائتى فارس .

وجاء المخلفون من الأعراب عن الحديبية يريدون الخروج طمعا فى الغنيمة ، ولكن النبى - ﷺ - قال لهم : لا تخرجوا معى إلا رغبة فى الجهاد لاغير ، أما الغنيمة فلا . وأمر مناديا ينادى بذلك ، ليكون الخارج على بينة

من أمره ، فلا يطمع فى أن ينال شيئاً من الغنيمة حين توزع على أصحابها ، وكان ذلك عقابا لهم على تخلفهم عن النبى - ﷺ - حين أذّن بالعمرة قبل ذلك ، وتأديبا لهم بأدب الاسلام الذى علم المسلمين الإخلاص فى سبيل الله ، وأن يكون جهادهم خالصاً لوجه الله ، وكان القرآن الكريم قد أخبر عن موقف هؤلاء المخلَّفين ، وأن هدفهم من الاشتراك فى الغزو هو المغنم المادى . . . والجهاد فى الإسلام لم يبن على ذلك ، ولكنه بنى على إعلاء كلمة الله ، وقد سأل المسلمون النبى - ﷺ - عن المجاهد فى سبيل الله - من هو ؟

فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو مقاتل فى سبيل الله . . وإذا مات فهو شهيد ، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

لقد فضح القرآن موقف هؤلاء المخلفين سلَفاً ، وأخبر عما سوف يحدث منهم فى المستقبل ، وعما ينبغى أن يُرَدَّ به عليهم ، فقال سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٥٧)

---

(٥٧) الفتح ١٥

ولذلك لم يصطحب النبى - ﷺ - معه إلا من كان معه فى الحديبية وقد خرجوا جميعاً معه إلا جابر بن عبد الله فقد تخلف لعذر . فقسم له النبى

- ﷺ - سهما كالذين حضروا .

قال القرطبى فى تفسيره : قال رسول الله - ﷺ - لمن أراد أن يخرج من المخلّفين : « إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لاسهم لكم » فقالوا : هذا حسد . . قال المسلمون : قد أخبرنا الله فى الحديبية بماستقولونه .

سبب الغزوة

لقد غضب اليهود غضباً شديداً بسبب الصلح الذى أبرم بين المسلمين والمشركين ، فقد كانوا يعقدون على النزاع الدائر بين الطرفين أمالا كبارا ، ويرون فيه الفرصة الذهبية فى محاولتهم التخلص من المسلمين .

فلما هادنت قريش النبى - ﷺ - تخوف اليهود أن يكون فى هذا الصلح قضاء عليهم ، فأسرعوا فى تحريض القبائل وجمع الأحلاف ضد المسلمين ، واستمروا فى قذف الاسلام بالتهم الباطلة وإيواء أعداء الاسلام ، والغدر بالمسلمين كلما رأوا إلى ذلك سبيلا . .

لقد كانت هناك أسباب كثيرة لتلك الغزوة من أهمها : -

● فتن اليهود وتحريضهم المستمر لغطفان وغيرها من القبائل ضد المسلمين .

● التخلص نهائياً من هؤلاء اليهود الذين يمثلون شوكة فى جنْب المسلمين تسبب الأرق وتثير القلاقل ، وتحرك الفتن وتخلق المؤامرات . .

الخروج للغزوة

وخرج النبى - ﷺ - ومن معه من المسلمين إلى خيبر بعد أن استخلف على المدينة سباع بن عرفطة . . وقال بعضهم : بل استحلف نُمَيلة بن عبد الله الليثى . . والأول أرجح . .

وقال النبى - ﷺ - لعامر بن الأكوع - عم سلمة بن الأكوع - وكان رجلاً شاعرا لبيبا : ألا تسمعنا شيئاً من أراجيزك - يطلب منه أن يحدو بها أمام القوم ليهون عليهم السير ، والحداء هو الغناء للإبل ليحثها على السير .

فأقبل عامر يحدو قائلا :

اللهم لولا أنت ماهتدينا ولاتصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك مااتقينا وألقين سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا إنا إذا صِيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا إن الذين قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا

وفى رواية : أن النبى - ﷺ - سمع عامراً،وهو يحدو . فقال : من هذا ؟ فقالوا : عامر بن الأكوع .

فقال له النبى - ﷺ - يرحمك الله .
وفى رواية : غفرلك ربك . .

وكان النبى - ﷺ - فى أثناء خروجه يسير ليلا ، ولم يُظْهِر أنه سائر إلى خيبر . ولكنه تحرك بأصحابه إلى مواضع « الرجيع » من أرض غطفان ،

ليحول بين تعاون يهود خيبر وقبائل غطفان . وكانوا متحالِفَيْن معاً ضد المسلمين - فقد استطاع اليهود أن يضمنوا معاونة غطفان لهم إذا داهمهم الخطر .

وقد تمكن النبى - ﷺ - بتحركه ناحية غطفان أن يقضى على هذه المعاونة من جانب غطفان فقد ظنوا أن هذا الهجوم موجَّهٌ ضدهم ، وأن قوات المسلمين سوف تنقض وتطوقهم .

وبعد أن تمكن هذا الظن من نفوس الغطفانين - بأن الغارة موجهة إليهم عاد النبى - ﷺ - متوجهاً إلى خيبر ، وكلف طائفة من أصحابه بمباغتة ديار غطفان إذا مافكر الغطفانيون فى نجدة أهل خيبر .

وقال بعض الرواة :

كان الغطفانيون قد سبقوا متجهين إلى خيبر للدفاع عنها قبل ذلك .

فيأن علموا أن المسلمين يريدون بلادهم حتى أسرعوا عائدين للدفاع عن مواطنهم وتركوا خيبر لتلاقى مصيرها المحتوم وحدها أمام المسلمين .

وبذلك نجحت خطة النبى - ﷺ - فى عزل اليهود عن حلفائهم .

وكان اليهود على توقع بأن المسلمين سوف يوقعون بهم ويفاجئونهم ، ولكنهم كانوا فى غرور من أنفسهم .

قال الرواة : كان بخيبر عشرة آلاف مقاتل ، كانوا يخرجون كل يوم ويصطفون للقتال ، ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات هيهات . .

ويقال : إن عبد الله بن أبىٍّ بن سلول رأس المنافقين فى المدينة كان قد أرسل إليهم يحذرهم من المسلمين ، ويقول لهم : إن محمداً سائر إليكم فخذوا حذركم ، وأدخلوا أموالكم حصونكم واخرجوا إلى قتاله ، ولا تخافوا منه فإن عددكم كثير ، وقوم محمد شرذمة قليلة وأسلحتهم أقل . .

ويبدو أنهم سئموا الاستعداد والخروج كل يوم - لما أراد الله من خذلانهم - ويئسوا من أن يجىء أحد للقائهم - فكفوا عن الخروج فى اليوم الذى صبحهم فيه النبى - ﷺ

ففى الليلة التى جاء فيها النبى - ﷺ - ومن معه من المسلمين لم يتحركوا من ديارهم ، ولم يصح لهم ديك ، حتى طلعت الشمس ، فأصبحوا من نومهم وأفئدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم ، وغدوا إلى أعمالهم ، ففوجئوا بجيش المسلمين أمامهم ، فولوا الأدبار وقد ألقوا مابأيديهم ، وأسرعوا راجعين إلى ديارهم وأغلقوا أبوابهم .

قائلين : محمد والخميس(٥٨)

فعند ذلك قال النبى - ﷺ - : الله أكبر هزمت خيبر .

دعاء النبى

كان النبى - ﷺ - حين أشرف على خيبر - وكان وقت الصبح - قد توجه إلى ربه بالدعاء قائلا : -

« اللهم رب السموات وماأظللن ، ورب الأرضين وماأقللن ، ورب الشياطين وماأضللن ، ورب الرياح وماأذرين ، فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير مافيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر مافيها .

---

(٥٨) الخميس : الجيش الكثيف وسمى بذلك لأنه مقسوم إلى خمسة أقسام : المقدمة ، والساقة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب .

ثم التفت إلى أصحابه حاثًا لهم على الجهاد قائلا :
تقدموا باسم الله وادخلوا على بركة الله .

وكان من دأبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول ذلك عند كل قرية يدخلها . .

وكان المسلمون يرفعون أصواتهم بالتكبير قائلين : الله أكبر ، لا إله إلا الله . .

وهذا الهتاف وحده سلاح قاهر ، يزلزل كيان الكفر ويهدم أركانه . . وبالغ المسلمون فى رفع الصوت . فقال لهم النبى ـ ﷺ ـ :

« هونوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم »

حدث عبد الله بن قيس ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت خلف دابة النبى ـ ﷺ ـ فسمعنى أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فقال : ياعبد الله بن قيس .

قلت : لبيك يارسول الله . .
قال : ألا أدلك على كلمة مّن كنوز الجنة ؟

قلت : بلى ، يارسول الله ، فداك أبي وأمي .

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

لقد أراد النبى - ﷺ - أن يؤكد لعبد الله أن كلمته التى كان يرددها إنما هى كنز عظيم من كنوز الجنة وأنها إلهام صادق ألهمه الله إياه . . فدعاه إلى الحرص عليها وملازمة تردادها .

ولايغفلن أحدٌ عن مزية « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » وأثرها الطيب فى تذليل المصاعب ، وتيسير الأمور ، وتهوين المتاعب .

أخرج أبو نعيم عن جابر - رضى الله عنه - قال : شكونا إلى رسول الله - ﷺ - حرَّ الرمضاء فلم يُشْكِنا وقال : « استعينوا بلا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها تذهب سبعين بابا من الضر أدناها الهم »[٥٩]

والنهى عن رفع الصوت بالتكبير منصرف بالطبع إلى ماهو خارج عن العادة . بدليل قوله : هونوا على أنفسكم ، وإلا فإن الإعلان بالتكبير مطلوب لإرهاب العدو وزلزلة الشيطان .

---

(٥٩) من مرويات أبي نعيم عن أبيه فى أخبار أصبهان

ونزل النبى ـ ﷺ ـ أمام حصون خيبر .

وكانت مكونة من سبعة حصون هى : حصن ناعم ، والقموص ، والشّق ، والنَّطَاة ، والسلالم ، والوَطيح ، والكتيبة .

وكان نزوله ـ ﷺ ـ قريبا من حصن النّطاة ، فجاءه الحباب بن المنذر ـ رضى الله عنه ـ وقال له :

يارسول الله ، إنك نزلت منزلك هذا . فإن كان عن أمر أُمِرْتَ به فلا نتكلم . وإن كان الرأى تكلمنا .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : هو الرأى . .

فقال : يارسول الله ، إن أهل النْطاة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مَدَى سهمٍ منهم ، ولاأعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا ، وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، ولانأمن من بياتهم ، فهم يدخلون فى حمرة النخل ـ أى النخل المجتمع بعضه على بعض ـ تَحَوَّلْ يارسول الله عن هذا الموضع .

فأثنى عليه النبى ـ ﷺ ـ وقال له : أشرت بالرأى . . . إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا . .

كان النبى - ﷺ - يقبل الاستشارة من أصحابه ولايستبد برأيه .

ثم دعا بمحمد بن مسلمة - رضى الله عنه - وقال له :

يامحمد بن سلمة - انظر لنا منزلا بعيدا . .

فأخذ محمد بن مسلمة - رضى الله عنه - يطوف حتى وجد منزلا مناسبا ، فعاد إلى النبى - ﷺ - يقول له :

يارسول الله ، لقد وجدت لك منزلا .

فقال رسول الله - ﷺ - : على بركة الله . .

وحين حل المساء تحول إليه ، وأمر الناس بالتحول(٦٠)

وأقام النبى - ﷺ - مسجدا فى منزله هذا . . وفى إقامة المسجد إشارة لا تخفى تدل على أنه قرر الاقامة فى مكانه هذا ، فلا مناص أمام اليهود من الاستسلام أو القتال . . لقد أراد أن يعلمهم بأنه باقٍ فى مكانه هذا ولن يبرحه حتى يفتح هذه الحصون أو يموت أهل خيبر جوعاً . .

---

(٦٠) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٧٣١

وكان اليهود قد قرروا المقاومة ، ورفضوا الاستسلام ، فلديهم الرجال والعدة والطعام . ولم يريدوا أن تكون نهايتهم كتلك النهاية التى انتهى إليها أسلافهم من بنى قينقاع . والنضير ، وقريظة .

وكان فيهم شجعان يدلون بقوتهم ويفخرون بها ، وكان لديهم الغدر الذى يحسنونه ، والكيد الذى يجيدونه ، والخيانة التى تمرسوا عليها ، ولا بأس باستعمال ذلك كله عندهم فهذه أمور مشروعة فى قانونهم . .

وفى الحقيقة لم تكن المعركة سهلة أمام المسلمين ، ولكنها كانت عنيفة . فاليهود يقيمون فى حصون منيعة يصعب الارتقاء إليها أو هدمها . . وهى غنية بالذخيرة والعتاد ، وقد احتاط أهل هذه الحصون لأنفسهم فجمعوا فيها ما يقوتهم لمدة طويلة من الزمن .

فكان لابد من اللجوء إلى سلاح يفت فى عضد هؤلاء اليهود . . . ولا يفت فى عضدهم شىء كإتلاف الأموال الخاصة بهم . . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم ـ بقطع بعض النخيل المحيط بحصونهم . .

وقد كان الهدف من قطع النخيل أيضا كشف الطريق أمام المسلمين . . . فقد كان هذا النخل عائقا للحركة بالإضافة إلى كونه يمثل عائقا يزيد من

تحصين العدو وتخفيه وكان اليهود قد أحسنوا توزيع أنفسهم . .

فقد أدخلوا أموالهم وعيالهم حصنى الوطيح والسلالم »
وأدخلوا ذخائرهم حصن « ناعم »

ودخلت قواتهم المحاربة حصن « النطاة »
وخرجت طائفة من اليهود تهاجم المسلمين يقودها الحارث بن أبى زينب بعد أن قُتِل زعيمهم سلام بن مشكم فى هجوم سابق . .

وتلقاه الأنصار بهجوم مضاد ألجأوه إلى حصنه . .
وشدد المسلمون الحصار والقتال ، وأمعن اليهود فى المقاومة والدفاع .
كانوا يعلمون علم اليقين أن هزيمتهم تعنى خروجهم نهائيا من الجزيرة العربية . . وانتهاء وجودهم فيها . .

وقد ركز المسلمون قتالهم حول حصن ناعم الذى يجمع ذخيرة العدو التى تمدهم بالقوة والمقاومة . .

واستمر هجوم المسلمين على هذا الحصن لمدة ثلاثة أيام . . فلم يجد اليهود بدا من الخروج بعدها للقاء المسلمين خارج الحصن . .

وكانت هذه فرصة طيبة للمسلمين ، فقد استطاعوا أن يقتلوا قائد اليهود الحارث بن أبي زينب ، وبقتله استسلم هذا الحصن ، وفتح أبوابه للمسلمين . .

وأثر استسلام هذا الحصن على معنويات اليهود الذين لم يلبثوا أن سلموا حصنا آخر هو حصن « القموص » ولكن بعد قتال شديد . .

لقد تعود اليهود أن يكون قتالهم من داخل حصونهم ، وهذا هو ما أخبر به القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٦١)

إنهم لايستطيعون مجابهة أعدائهم ، وهذا ما يفعلونه حتى الآن ، وقد برعوا فى إقامة الاستحكامات المحصنة والخطوط القوية التى يختبئون من

---

(٦١) الحشر ١٤

ورائها ، أما لقاء الخصوم وجها لوجه فذلك أمر لايستطيعونه ، وإن حدث فهو نادر ، تجده فى أفراد معدودين . لافى كثرة غالبة .

وركز المسلمون بعد ذلك هجومهم على الحصن الذى جمع اليهود فيه معظم المؤن الغذائية ، وبعد قتال عنيف استطاعوا الدخول إليه .

ويسر هذا الحصن مهمة التموين للمسلمين وحرم اليهود من ميزة كبيرة .

صراع عنيف

لم يكن أمر الاستيلاء على هذه الحصون التى استولى عليها المسلمون سهلا بل كان الصراع عنيفا .. فقد دافع اليهود عن حصونهم دفاعا شديدا ... وأبلوا على غير عادتهم بلاء شديدا فى الدفاع عن مواقعهم ، ولكن الله أوقع الرعب فى قلوبهم والوهن فى صفوفهم ..

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحرض أصحابه على القتال ، وهو بينهم على جواد يقال له : « الظرب » وعليه درعان ومغفر وفى يده قناة وترس .

واستدعى النبى ﷺ رجلا من المهاجرين ودفع له اللواء ، فاندفع الرجل ولكنه رجع دون أن يحقق شيئا .

فأخذ منه اللواء وأعطاه لآخر أيضا من المهاجرين . ولكن كتائب اليهود بقيادة رجل منهم اسمه « ياسر » تقدمت فى طريقها نحو مواقع الأنصار فكشفتهم ، حتى كادوا يصلون إلى موقع النبى - صلى الله عليه وسلم -

فاشتد ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أمسى مهموما . . واستشهد بطل من أبطال المسلمين اسمه « محمود بن مسلمة » أخو محمد بن مسلمة .

فقد ألقى عليه رجل من اليهود رحىً من فوق الحصن .

وكان محمود قد قاتل فى يومه هذا قتالا عنفا حتى أعياه القتال ، وكان الجو شديد الحرارة وثقل عليه السلاح ، فانحاز إلى جوار الحصن ، فألقى عليه رجل هذه الرحا ..

وأدركه بعض المسلمين فحملوه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فعصب رأسه بخرقة ، ولكن أجله قد سبق ، فصعدت روحه إلى بارئها طاهرة مطهرة . .

واشتد الغضب بأخيه محمد بن مسلمة ، حتى حاول أن يغرر بنفسه فى لقاء العدو ، ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفكف من غضبه ، وقال له : « لاتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإنكم لاتدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموه فقولوا :

اللهم أنت ربنا وربهم ، ونواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تقتلهم أنت ، فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا »[٦٢]

وقد مكث المسلمون يناضلون طوال سبعة أيام ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ معهم يتقدم للقتال ، ويخلف عثمان بن عفان فى محل العسكر . فإذا أمسى عاد إلى ذلك المحل ، ومن جرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل للتداوى . .

وكانت هناك مُنَاوبَة بين الصحابة فى حراسة الليل ، فلما كانت نوبة عمر فى الليلة السادسة ، عثر عمر فى أثناء طوافه حول العسكر بيهودى ، فاقتاده إلى حيث تضرب عنقه .

---

(٦٢) السيرة الحلبية حـ٢ صـ٧٣٢

ولكن اليهودى استمهله ، وطلب منه أن يسمح له بمقابلة النبى - صلى الله عليه وسلم - ليكلمه ، فأمسك عمر - رضى الله عنه - عنه .. وانتهى به إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فوجده يصلى ..

فلما فرغ النبى - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة أقبل عليه عمر اليهودى .

فقال اليهودى : تؤمننى يا أبا القاسم ؟
قال النبى - صلى الله عليه وسلم - له : أنت آمن ..

فقال : خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة ..

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : فأين يذهبون ؟
قال : يذهبون إلى حصن الشق ، يجعلون فيه ذراريهم ويتهيئون للقتال ..

وفى هذا الحصن ، - يعنى حصن النطاة - يوجد فى أحد بيوته تحت الأرض منجنيق ودروع وسيوف ، فإذا دخلت الحصن غداً ، وأنت تدخله .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن شاء الله
قال اليهودى : أوقفتك عليه فإنه لا يعرفه غيرى . .

وطلب اليهودى من النبى ـ صلى الله عليه وسلم أن يحقن دمه .
فطمأنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

تسليم الراية لمن يفتح الله على يديه

قال النبى ـ ﷺ ـ : لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه . . وتطلع كثير من أصحاب رسول الله أن يكونوا هم الموعودين بهذه البشارة .

حتى روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم . لأن النبى ـ ﷺ ـ وصف ذلك الرجل بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . .

إن الحرص على الإمارة كان من أجل ذلك الوصف الذى صاحب هذا الرجل ، وهو منزلة ترفع من قدر صاحبها ومجال للتنافس المحمود ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ـ فهل بعد حب الله ورسوله مجال آخر للتنافس والتسابق ؟

وأصبح المسلمون ينتظرون ... من ذلك الذى ينال هذا الشرف العظيم ؟ ونادى النبى - ﷺ - : أين على بن أبى طالب ؟ وكان على فى ذلك الوقت مصابا برمد ، وكان عاصبا عينيه من شدة الوجع . فقيل للنبى - ﷺ - : إنه يشتكى عينيه .

فقال النبى - ﷺ - من يأتينى به ؟

فانطلق إليه سلمة بن الأكوع ، وعاد به يقوده حتى أتى به النبى - ﷺ - فمسح النبى - ﷺ - بيده الشريفة على عينيه ، فذهب الرمد فى الحال ، وأبصر كأن لم يكن فى عينيه شىء من المرض على الإطلاق .

وأعطاه النبى - ﷺ - الراية وقال له : سر على بركة الله ولا تلتفت . .

فسار علىٌ قليلا ثم وقف ولم يلتفت وقال بصوت مرتفع : يارسول الله ، علام أقاتل الناس ؟

قال له : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله .

ثم أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله . . . فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم »

سار علىٌّ ، وكلام النبى - ﷺ - يجلجل فى نفسه ويملؤه ثقة ويقينا وإيمانا ، فقد دعا له النبى - ﷺ - قائلا : اللهم اذهب عنه الحر والقر . . فما شكا بعدها حراً ولا برداً ، وما رمد بعد ذلك ولا صدع . .

وقال حذيفة - رضى الله عنه - : لما تهيأ على - كرم الله وجهه - يوم خيبر للحملة قال له رسول الله - ﷺ - : يا على والذى نفسى بيده إن معك من لا يخذلك ، هذا جبريل - عليه السلام - عن يمينك بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها ، فاستبشر بالرضوان والجنة . . »[٦٣]

ومضى على - كرم الله وجهه - فى طريقه لا يلتفت إلى شىء ، ولا هم له إلا تنفيذ وصية رسول الله - ﷺ - وإعلاء كلمة الله . وأخذ يردد : اللهم لا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت . . وقد رفع اللواء بيده ، وانطلق فى ثقة حتى ركز اللواء أمام الحصن . .

واطلع يهودى من أعلى الحصن فقال له : من أنت ؟
قال : على بن أبى طالب . .

---

(٦٣) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٧٣٦

فاستطار اليهودى فزعا وقال : علوتم وحق ما أنزل على موسى . . وخرج اليهود يحاربون . . يتقدمهم « مرحب » وهو يرتجز :

قد علمـــت خيبر أنى مرحـــب   شـــاكى السـلاح بطـل مجـــرب
إذا الحـــروب أقبلت تلهـــب

برز إليه عامر بن الأكوع : وهو يرد على الرجز بمثله :

قد علمت خيبر أنى عامر   شاكى السلاح بطل مغامر

وتضاربا بالسيوف . فاختلفت ضربتاهما . وقع سيف مرحب فى ترس عامر ، وذهب عامر يضرب مرحب بالسيف من أسفل ، فرجع ذباب سيف عامر إليه فأصابه فى ركبته ، فجرح جرحا شديداً كان فيه حتفه . . وتقاول الناس : ان عامراً قتل نفسه فهو ليس شهيدا . .

وأخذ سلمة بن الأكوع يبكى ـ لا على أن عمه قتل ، بل لما يقوله المسلمون عنه . .

ورآه النبى ـ ﷺ ـ وهو يبكى . . فسأله : ما يبكيك يا سلمة ؟
قال سلمة : يارسول الله ، فداك أبى وأمى ، زعموا أن عامرا أحبط عمله ، يقولون : قتل نفسه

فقال النبى - ﷺ - : كذب من قال ذلك وإن له أجرين . . وجمع بين إصبعيه - وقال : إنه لجاهد مجاهد - والجاهد هو الذى يرتكب المشقة ، والمجاهد هو المجاهد لأعداء الله .(٦٤)

ومضى عامر إلى ربه راضيا مرضيا . .

الثأر لعامر

ومضى مرحب يتحدى ، وهو يرتجز برجزه السابق

وذكرت بعض الروايات أن النبى - ﷺ - قال : من يبرز لهذا المتحدى ؟ قال محمد بن مسلمة : أنا له يارسول الله ، أنا الموتور .

لقد قُتِل أخوه محمود بن مسلمة بالأمس ، فهو يريد أن يأخذ بثأره . . فقال النبى - ﷺ - : قم إليه ، اللهم أعنه عليه . . فقتله محمد بن مسلمة .

ويؤيد هذه الرواية ، ما ذكره الإمام المزنى فى مختصر المزنى على كتاب الأم للشافعى قال : إن النبى - ﷺ - يوم خيبر نفل محمد بن مسلمة سلب

مرحب اليهودى : سيفه ورمحه ومغفره وبيضته ، وكان سيف مرحب قد كتب عليه : هذا سيف مرحب . من يصبه يعطب .

---

(٦٤) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ٢ صـ٢٢٥

أما الإمام مسلم فى صحيحه : فإنه يجزم بأن الذى قتل مرحبا هو الإمام على كرم الله وجهه بنفسه . .

فقد خرج على وهو يرتجز قائلا : ـ

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة ضرغام آجـام وليـث قسـورة

أكيلهم بالسيف كيل السندرة

وحيدرة اسم من أسماء الأسد ، سمى بذلك حين ولد ، سمته به أمه وكان أبوه غائبا ، فلما قدم أبوطالب كره هذا الاسم وسماه عليا .

ومن معانى حيدرة أيضا : الغليظ القوى ، وقد يكون لقب بذلك فى صغره لقوته

وأوقع هذا الرجز الرعب فى قلب مرحب . ذلك أنه كان قد رأى فى نومه قبل هذا اللقاء أن أسدا قد افترسه . . فحين أنشد على ـ رضى الله عنه ـ رجزه تذكر مرحب ما رآه فى منامه .. وتعجل مرحب متمثلا بقول القائل : خذه قبل أن يأخذك . . فأسرع يحاول أن يضرب عليا بسيفه . ولكن عليا ـ رضى الله عنه ـ كان أسرع منه ، فضربه بسيفه ضربة قوية قدت ترسه الذى كان قد تترس به فوق هامته ، ثم قدت مغفره وفلقت هامته ، فخر

صريعا لا يلوى على شيء..

ويمكن الجمع بين هاتين الروايتين - أى بين الرواية التى تقول : إن محمد بن مسلمة هو الذى قتل مرحبا - والتى تقول : إن عليا - رضى الله عنه - هو الذى قتله . . بأن علياً كرم الله وجهه - ضربه الضربة القوية التى ألقته على وجهه ومحمد بن مسلمة - رضى الله عنه - أجهز عليه .

ياسر بعد مرحب

وتقدم بعد مصرع مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز أيضا قائلا :

قد علمت خيبر أنى ياسر شاكى السلاح بطل مغامر

وكان من الفرسان المشهورين بين اليهود . .

تقدم وأخذ يقول : من يبارز؟

فخرج إليه الزبير بن العوام - رضى الله عنه - فقالت أمه صفية بنت عبدالمطلب - رضى الله عنها - : يارسول الله ، يقتل ابنى .

فقال النبى - ﷺ - : بل يقتله ابنك إن شاء الله . .

فقتله الزبير . . .

سقوط الحصون

بهذا الصراع العنيف بين الجانبين دارت أحداث المعركة التى انتهت بانتصار المسلمين ، ودخولهم الحصون حصناً حصناً ، حتى فتح المسلمون خمسة حصون . وصدقت كلمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن علىّ حين قال : لأسلمن الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه . .

وكان ما وجده المسلمون فى هذه الحصون المفتوحة من طعام وسلاح وآلات حرب معيناً لهم على استمرار القتال ، والاصرار على فتح بقية الحصون السبعة .

لقد بقى حصنان هما : الوطيح والسلالم .

ومكث المسلمون فى حصار هذين الحصنين أربعة عشر يوماً ، فلم يخرج أحد من أهل الحصنين للقاء المسلمين . .

فهمّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرميها بالمنجنيق ـ وهو آلة حربية ـ كان يستعملها اليهود ، وقد عثر عليها المسلمون فى الحصون التى فتحوها . . . . . . دلهم عليها ذلك اليهودى الذى جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحين عاين اليهود المحاصرون المنجنيق وقد وُجِّه إليهم أيقنوا بالهلكة . فسألوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلح على حقن الدماء وترك الذرية ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، وألا يصحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره .

فصالحهم على ذلك ، وعلى أن ذمة الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم بريئة إن كتموه شيئاً من متاعهم يسألهم عنه . .

وخرج أهل هذين الحصنين وهم ينفذون ما فرضوه على أنفسهم من شروط .. وأصبح الحصنان فيئا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ..

أما بقية الحصون فقد جرى فيها تقسيم الأسهم بين المقاتلين .. لقد عثر المسلمون في هذين الحصنين على غنائم كثيرة منها مائة درع ، وأربعمائة سيف وألف رمح ، وخمسمائة قوس عربية ..

وعثروا على صحائف متعددة من التوراة ، فطلبها اليهود فدفعها النبى - صلى الله عليه وسلم - إليهم .

ولكن اليهود كانوا قد غيبوا حليهم التى أخذوها معهم عند جلائهم من حصون بنى النضير بالمدينة .

وقد مر بنا هناك أن سلام بن أبى الحقيق كان قد وضع هذه الحلى الثمينة فى جراب ورفعه فى أثناء خروجه من المدينة وهو ينادى بأعلى صوته : هذا ما أعددنا لرفع الأرض وخفضها ..

لقد انخدع - كما ينخدع اليهود - بالمال ، وجعله نهمته كما جعلوه نهمتهم ..

إنه درس أتقن اليهود تعلمه عبر الأزمان . وكانوا وما زالوا يعملون بكل ما وسعهم من حيلة وقوة للسيطرة على أسواق المال ، حتى يتحكموا بذلك فى رقاب الشعوب .

وها هم أولاء الآن فى كل مكان يحلون فيه يسعون إلى هذه الغاية حتى تصبح الثروات فى أيديهم ، وتصبح لهم مركز قوة ينفذون من خلالها إلى تحقيق مآربهم .. هذا ما هدف إليه سلام بن أبى الحقيق منذ خمسة عشر قرناً

ولم يستطع أن يحققه ، ولكن أحفاده وعوا هذا الدرس وحققوه بعده . .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسعية بن عمرو ـ وهو عم حيى بن أخطب ـ أين مَسْك حُيَىّ بن أخطب[٦٥] ؟

ونسب إلى حُيَى بن أخطب لأنه كان زعيم بنى النضير حين خروجهم من المدينة . وقد سبق أن ذكرنا أنه قتل مع بني قريظة .

فقال سعية : أذهبته الحروب والنفقات .

فدفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سَعْية للزبير ـ رضى الله عنه ـ فخاف سَعْية واعترف بمكان الحلى . .

لقد كانت مدفونة فى خربة من خربات الحصن . .

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنانة بن الربيع ، زوج صفية بنت حيى بن أخطب أين آنيتكم التى كنتم تعيرونها أعيان مكة ؟

وكانت لدى اليهود آنية تحتوى على حلى وجواهر ـ إذا كان لأحد من أهل مكة عرس يرسلون فيستعيرون من تلك الحلى ـ

فقال كنانة مثلما قال سعية : أذهبته الحروب والنفقات .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك . وسوف يعلمنى الله بمكانه .

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد هداه الله إلى موضع هذه الحلى . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجل من الأنصار : اذهب

---

(٦٥) المسك ـ بفتح الميم ـ الجلد الذى تودع به الذخائر .

إلى محل كذا وكذا ، ثم ائت النخل ، فانظر نخلة عن يمينك . . أو قال عن يسارك ـ مرفوعة فائتنى بما فيها .

فانطلق الرجل الى حيث وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء بالآنية وفيها الحلى . .

وكان فيها أساور وخلاخيل وأقرطة وخواتم وغير ذلك من الحلى التى قومت بعشرة آلاف دينار .

أحداث مثيرة فى خيبر

لقد جرت فى خيبر أحداث مثيرة تستحق التسجيل ، من ذلك :

زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صفية بنت حيى بن أخطب . .

فقد جمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الغنائم التى غنمت قبل الصلح . وقسمها بين المجاهدين .

وكانت صفية بنت حيى بن أخطب قد أسلمت بعد قتل زوجها بسبب خيانته لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وجعلها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أم سليم ـ وهى أم أنس ـ أيضاً . . . . . . فلما هداها الله إلى الاسلام تزوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل عتقها صداقها . .

وأولم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليها ، ومنه أخذ الفقهاء استحباب الوليمة عند الزواج .

وحين بنى بها النبى ﷺ وجد فى عينها خضرة ، فسألها عنها ، فقالت : رأيت مرة فى منامى كأن القمر وقع فى حجرى ، فانتبهت فأخبرت أبى بذلك .

قالت : فلطمنى هذه اللطمة التى أخضرت منها عينى ، وقال لى : تتمنين ملك العرب ؟ [٦٦]

وقالت صفية ـ رضى الله عنها : انتهيت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما من الناس أكره إلىَّ منه ـ قتل أبى وزوجى وقومى .

فأخذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لها : فعل قومك بى كذا وكذا . وما زال يعدد أفعالهم حتى ذهب ما فى نفسى ، فقمت من مقعدى وما أحد من الناس أحب إلىَّ منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وبنى بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قبة . ووقف أبو أيوب الأنصارى بجوار هذه القبة متوشحاً سيفه .

فلما انفتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لصلاة الصبح رآه يقظاً متحفزاً . .

فقال له : ما لك يا أبا أيوب ؟

قال : يا رسول الله ، خفت عليك منها قَتَلْتَ أباها وزوجها وقومها ، وهى حديثة عهد بكفر ، فبت أحرسك .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى .

---

(٦٦) أسد الغابة ٧ / ١٧٠

ذكر السهيلى فى الروض الأنف : فحرس الله أبا أيوب بهذه الدعوة ، حتى إن الروم لتحرس قبره ، ويستشفون به فيصحون ، ويستسقون فيسقون .

روى ابن الأثير : أن أبا أيوب خرج غازياً إلى القسطنطينية فى جيش يزيد ابن معاوية فمات هناك . فخشى يزيد أن ينبش الروم قبره ، فقال لهم : هذا رجل من أكابر أصحاب نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقدمهم إسلاماً ، وقد دفناه حيث رأيتم فلا تنبشوا قبره . . .

فأخذت الروم تتعهد بحفظه وحراسته . قال مجاهد : وكانوا إذا أمحلوا طلبوا السقية عند قبره فمطروا[٦٧] .

أما الوليمة التى أولمها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كانت « حَيْساً » والحيس طعام يتخذ من تمر وأقط وسمن .

بسط النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فراشاً وقال : من كان عنده شىء فليأت به فجعل الرجل يجىء بالتمر ، وجعل الرجل يجىء بالسمن ، وجعل الرجل يجىء بالأقط . .

وقال لأنس : آذن من حولك ليأكلوا من ذلك الحَيْس . .

فجاء المسلمون وأكلوا جميعهم . .

وأحسن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صحبة صفية كما أحسن صحبة غيرها من زوجاته ـ رضى الله عنهن ـ وكانت صفية تحدث قائلة : ما رأيت

(٦٧) أسد الغابة ١ /٩٥ ، ٦ /٢٥

أحداً قط أحسن خلقاً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقد رأيته ركب ناقته ليلا فى خيبر وأنا على عجز الناقة ، فجعلت أنعس فتضرب رأسي مؤخرة الرحل ، فيمسنى بيده ويقول : يا هذه مهلاً . .

وروى الترمذى فى أبواب المناقب قائلاً : حدثت صفية قالت : دخل علىَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد بلغنى عن حفصة وعائشة كلام ، فذكرت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ألا قلت : كيف تكونان خيراً منى وزوجى محمد - صلى الله عليه وسلم - كما هو زوجكما .
وكان بلغها أنهما قالتا : نحن أكرم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها ، نحن أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبنات عمه[68] .

النهى عن المتعة

وفى هذه الغزوة ورد النهى من النبى - صلى الله عليه وسلم - عن متعة النساء - أى عن زواج المتعة .
جاء فى صحيح مسلم عن على - رضى الله عنه - « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عن متعة النساء يوم خيبر » .

والمتعة هى الزواج إلى أجل محدود قرب أو بعد ، وذلك أن يقول الرجل للمرأة : نكحتك يوماً ، أو عشراً ، أو شهراً ، أو نكحتك حتى أخرج من هذا البلد . . وكانوا يلجأون الى هذا النكاح أحياناً . قال ابن مسعود -

---

(٦٨) تحفة الاحوذى ، الحديث ٣٩٨٣ جـ ١٠ ص ٣٩١ .

رضى الله عنه ـ كنا نغزو مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس لنا نساء ، فشق علينا ذلك ، فشكونا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرخص لنا النكاح إلى أجل .. ثم قرأ هذه الآية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[69]

وكان انفصال الرجل عن زوجته فى مثل هذا الزواج لا يتم بالطلاق ولكن بانتهاء المدة التى تعاقدا على المتعة فيها ، ولا يتوارثان بهذا الزواج .. ثم نهى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مثل هذا الزواج ، وكان النهى عن ذلك فى هذه الغزوة على الأرجح ، وإن كان بعضهم يقول : إن النهى كان بعد ذلك .. فقد روى الربيع الجهنى عن أبيه قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة فى حجة الوداع ، فأذن لنا فى المتعة ، فانطلقت إلى إمرأة من بنى عامر .. فعرضت عليها نفسى فتزوجتها ، ومكثت معها ثلاثة أيام ، ثم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : من كان عنده شيء من هذه النساء اللاتى يتمتع بهن فليخل سبليها[70] »

ذكر المزنى فى مختصره على كتاب الأم للشافعى قال : وفى القرآن والسنة دليل على تحريم المتعة قال الله ـ تعالى ـ

---

(٦٩) المائدة ٨٧ .

(٧٠) شرح معانى الآثار للطحاوى جـ ٣ ص ٢٥ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (٧١)

فلم يحرمهن الله على الأزواج إلا بالطلاق ،

وقال - تعالى -

﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ (٧٢)

وقال - تعالى -

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (٧٣)

فكان بيّناً أن نكاح المتعة منسوخ بالقرآن والسنة ، لأنه إلى مدة ، ثم نجده ينفسخ بلا إحداث طلاق فيه وليس فيه أحكام الزواج(٧٤) .

ومن طرائف المناظرات فى تحريم المتعة ما جرى بين المأمون والقاضى يحيى بن أكثم .

---

(٧١) الأحزاب ٤٩
(٧٢) البقرة ٢٢٩
(٧٣) النساء ٢٠
(٧٤) مختصر المزنى على الأم جـ ٤ ص ٢

وكان المأمون يرى أن نكاح المتعة حلال لم يحرم .

فدخل عليه يحيى بن أكثم وهو متغير اللون بسبب ذلك . فقال له المأمون :

ما لى أراك متغيراً ؟

قال يحيى : لما حدث فى الإسلام

قال المأمون : وما حدث ؟

قال : النداء بتحليل الزنا .

قال المأمون : المتعة زنا ؟

قال يحيى : نعم ، المتعة زنا .

قال : ومن أين لك هذا ؟

قال : من كتاب الله وسنة رسول الله ـ ﷺ ـ أما الكتاب ، فقد قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ ﴾ (٧٥)

---

(٧٥) المؤمنون ١ : ٧

يأمير المؤمنين ، هل زوجة المتعة ملك يمين ؟

قال المأمون : لا

قال يحيى : فهل هى الزوجة التى عند الله ترث . وتورث ، ويلحق بها الولد ؟

قال : لا

قال يحيى : إذن فمتجاوز هذين من العادين . ثم قال : وأما السنة ، فقد روى الزهرى بسنده إلى على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال : « أمرنى رسول الله ـ ﷺ ـ أن أنادى بالنهى عن المتعة ، وتحريمها بعد أن كان أمر بها » .

فالتفت المأمون للحاضرين وقال : أتحفظون هذا من حديث الزهرى ؟

قالوا : نعم ، يأمير المؤمنين .

فقال المأمون : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة .

النهى عن تحريم لحوم الحمر الأهلية

وأصاب المسلمين جوع شديد فى أيام حصارهم خيبر ، وصادف أن ثلاثين حمارا خرجت من أحد الحصون ، فأخذها رهط من المسلمين ، وذبحوها وقطعوا لحومها فى القدور . وتهيأوا لطبخها للأكل .

فمر بهم النبى ـ ﷺ ـ فسألهم عما فى القدور والبرم ، فقالوا : لحوم حمر إنسيه .

فنهاهم النبى ـ ﷺ ـ عن أكلها ، وأمر بالقدور فأهرق مافيها ، وإنما

لتفور ، كما أمر بغسل القدور بعد إراقة مافيها . وأمر منادياً أن ينادى فى الناس : إن لحوم الحمر الأهلية لا تحل لمن يشهد أن محمداً رسول الله .

وروى مسلم فى صحيحه : أمر رسول الله - ﷺ - أبا طلحة فنادى : إن رسول الله - ﷺ - ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها لا تحل . .

وهذه الآثار تدلنا على أن المسلمين لم يتناولوا شيئاً من هذه اللحوم ، وإن كان ابن هشام فى سيرته يقول : « وأكل المسلمون من لحوم الحمر ، فقام رسول الله - ﷺ - فنهى الناس عن أمور سماها لهم » .

ولئن كانوا قد أكلوا فإنما أكلوا للاضطرار ، ولحم الميتة مباح عند الاضطرار بشرط عدم التجاوز قال - تعالى - بعد أن ذكر تحريم بعض الأشياء :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٧٦)

ذكر الإمام الطحاوى فى كتابه شرح معانى الآثار : عن عبد الرحمن بن بشير عن رجال من مزينة من أصحاب النبى - ﷺ - عن أبجر أو ابن أبجر أنه قال : يارسول الله ، إنه لم يبق من مالى شىء ، أستطيع أن أطعمه أهلى إلا بعض حمر لى .

---

(٧٦) البقرة ١٧٣

قال لى : « فأطعم أهلك من سمين مالك ، فإنما كرهت لكم جوّال القرية » .

وروى كذلك من طريق آخر عن غالب بن أبجر . قيل للنبى - ﷺ - : إنه قد أصابتنا شدة وإن سمين مالنا فى الحمير . فقال : كلوا من سمين مالكم[٧٧] .

لقد كان ذلك إذن فى حال الضرورة . . . . . فليس فى هذه الآثار دليل على تحليلها فى غير الضرورة .

وتحريم ماحرم الله لم يكن إلا لمصلحة العباد ، فإن الله بحكمته لم يحل إلا الطيبات ، وماحرم إلا الخبائث . .

استطراد لابد منه :

ومادمنا بصدد التعرض لما شرع من الأحكام فى تلك الغزوة ، فإن الحاجة تدعو إلى ذكر مااستخلصه العلماء من حكمة التشريع فى تحريم هذه الأنواع التى حرمها الله على الناس ، والتى تضمنتها الآيتان الكريمتان فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ

---

(٧٧) شرح معانى الآثار جـ ٤ ص ٢٠٣ باب لحوم الحمر الأهلية .

﴿ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ ﴾ (٧٨)

قال العلماء : فى هاتين الآيتين لطائف منها :

●● المراد من الطيبات الرزق الحلال ، فكل ماأحله الله فهو طيب ، وكل ماحرمه الله فهو خبيث . وقال عمر بن عبد العزيز : المراد طيب الكسب لا طيب الطعام ..... ويؤيده الحديث الشريف : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ ﴾ (٧٩)

وقال : « ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم .. »

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يقول : يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام فأنى يستجاب له (٨٠)

فهذا بيان الطيب من الرزق ببيان الرسول ـ ﷺ ـ ولاعطر بعد عروس ـ كما يقول المثل العربى المشهور .

●● قال أبو حيان : لما أباح الله ـ تعالى ـ لعباده أكل مافى الأرض من

---

(٧٨) البقرة ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٧٩) المؤمنون ٥١ .

(٨٠) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ

الحلال الطيب وكانت وجوه الحلال كثيرة ، بين لهم ماحرم عليهم لكونه أقل ، فلما بين ماحرم بقى ماسوى ذلك على التحليل حتى يرد منع آخر ، وهذا مثل قوله - ﷺ - لما سئل عما يلبس المُحْرِم فقال : « لا يلبس القميص ولا السروال » . فعدل عن ذكر المباح إلى ذكر المحظور ، لكثرة المباح وقلة المحظور ، وهذا من الايجاز البليغ .

●● فى قوله - تعالى - « اشكروا لله » التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة ، إذ لو جرى على الأسلوب الأول لقال « واشكرونا » وفائدة هذا الالتفات تربية المهابة والروعة فى القلوب .

●● قوله - تعالى -

« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »

هو على حذف مضاف ، أى أكل الميتة وأكل لحم الخنزير مثل قوله - تعالى :

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٨١)

أى أهل القرية .

قال العلامة الألوسى : وإضافة الحرمة إلى العين - مع أن الحرمة من الأحكام الشرعية وليست مما يتعلق بالأعيان - اشارة إلى حرمة التصرف فى الميتة من جميع الوجوه بأخصر طريق وأوكده .

---

(٨١) يوسف ٨٢ .

وقال أبو السعود : وإنما خص لحم الخنزير مع أن سائر أجزائه أيضاً فى حكمه ، لأنه معظم مايؤكل من الحيوان ، وسائر أجزائه بمنزله التابع له .

والأحكام الشرعية المتعلقة بهاتين الآيتين تتلخص فيمايأتى : ـ

الحكم الأول : هل المحرم فى الميتة الأكل أم الانتفاع ؟

ورد التحريم فى الآية مسنداً إلى أعيان الميتة والدم ، ولكن لما حرم الأكل حرم البيع كذلك ، وحرم الانتفاع بشيء منها لأنها ميتة ، إلا ماستثناه الدليل .

وذهب بعض العلماء إلى أن المحرم إنما هو الأكل فقط ، بدليل قوله تعالى : ـ

« كلوا من طيبات مارزقناكم »

وبدليل مابعده « فمن اضطر غير باغ » أى اضطر إلى الأكل .

قال الجصاص : والتحريم يتناول سائر وجوه المنافع ، فلا يجوز الانتفاع بالميتة على وجه ولايطعمها الكلاب والجوارح ، لأن ذلك ضرب من الانتفاع بها ، وقد حرم الله الميتة تحريما مطلقاً معلقاً بعينها ، فلايجوز الانتفاع بشيء منها إلا أن يخص بدليل يجب التسليم به .

الحكم الثانى : فيمايتعلق بالميتة من السمك والجراد .

تضمنت الآية تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ومأهل به لغير الله . فأما الميتة فهى ماماتت من الحيوان حتف أنفه من غير قتل ، أو قتل بغير ذكاة شرعية ، وكان العرب فى الجاهلية يستبيحون الميتة فلما حرمها الله جادلوا فى

ذلك المؤمنين ، وقالوا : لاتأكلون مما قتله الله ، وتأكلون مماتذبحون بأيديكم ؟ فأنزل الله فى سورة الأنعام :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (٨٢)

ويستثنى من ذلك ماورد بخصوصه أحاديث مثل قوله ـ ﷺ ـ : « أحل لكم ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال »(٨٣)

وقوله : فى البحر : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »(٨٤)

وفى الصحيحين عن جابر بن عبد الله أنه خرج مع أبى عبيدة بن الجراح ، يتلقى عيرا لقريش . . . . . قال : فانطلقنا على ساحل البحر ، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم ، فأتيناه فاذا هى دابة تدعى العنبر(٨٥)

قال أبو عبيدة : ميتة . . . ثم قال : بل نحن رسل رسول الله ـ ﷺ ـ وقد اضطررتم فكلوا .

قال : فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ـ ﷺ ـ فذكرنا ذلك له ، فقال :

---

(٨٢) الأنعام ١٢١ .

(٨٣) رواه أحمد وابن ماجة والدارقطنى .

(٨٤) رواه مالك فى الموطأ .

هو رزق أخرجه الله لكم من البحر . هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ قال :

فأرسلنا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ منه فأكله[٨٦]

وروى عن ابن أوفى قال : غزونا مع رسول الله ـ ﷺ ـ سبع غزوات نأكل الجراد[٨٧]

الحكم الثالث : ذكاة الجنين بعد ذبح أمه .

رأى بعض الفقهاء أن الجنين الذى يخرج ميتا بعد ذبح أمه حرام لأنه ينسحب عليه حكم الميتة . وهذا رأى أبي حنيفة .

وذهب الشافعى وأبو يوسف ومحمد إلى أنه يؤكل لأنه مذكًّى بذكاة أمه .

واستدلوا بحديث : « ذكاة الجنين ذكاة أمه »[٨٨]

وقال مالك : إن تم خلقه ونبت شعره أُكِلَ وإلا فلا .

الحكم الرابع : هل ينتفع بالميتة فى غير الأكل ؟

قال بعضهم : يجوز الانتفاع بشحم الميتة وجلدها وحجة من يقول بذلك قوله ـ تعالى

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾[٨٩]

---

(٨٥) هى سمكة بحرية كبيرة الحجم .

(٨٦) رواه البخارى ومسلم .

(٨٧) أخرجه مسلم . (٨٨) اخرجه أبو داود بمعناه وطرقه واهية (٨٩) الأنعام ١٤٥

وذهب الجمهور إلى تحريمه مطلقاً ، لأن ظاهر الآية يقضى بذلك . . .

ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها » . ـ

وجملوها أى أذابوها

فهذا الحديث يدل على أن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه .

الحكم الخامس . . ما يتعلق بالدم الذى يبقى فى العروق .

الدم حرام بخس لا يؤكل ولا ينتفع به . وهو وإن كان مقيداً فى قوله ـ تعالى ـ

« أو دما مسفوحا »

إلا أن العلماء حملوا المطلق على المقيد ، وورد عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قولها : « لولا أن الله قال أو دماً مسفوحاً لتتبع الناس ما فى العروق » .

فما خالط اللحم غير محرم بإجماع ، وكذلك الكبد والطحال مجمع على عدم حرمتهما ، وإن كانا فى الأصل دماً .

الحكم السادس ـ ماذا يحرم من الخنزير ؟

ذهب بعض الظاهرية الى أن المحرم من الخنزير لحمه لا شحمه ، وعلتهم فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

« ولحم الخنزير » .

ولكن الجمهور ذهبوا الى أن شحمه حرام كذلك ، لأن اللحم يشمل الشحم ، وهو صحيح ،

وإنما خص الله ـ تعالى ـ اللحم بالذكر ليدل على تحريم عينه ، سواء ذكى ذكاة شرعية أم لا .

ويجوز الانتفاع بشعره ـ عند بعضهم ، ولا يجوز مطلقاً عند بعضهم ، ويكره عند آخرين .

أما خنزير الماء فقد قال أبو حنيفة : لا يؤكل لعموم الآية .

وقال الشافعى ومالك والأذراعى : لا بأس بأكل كل شىء يكون فى البحر .

الحكم السابع : ما يجوز للمضطر

اختلف العلماء فى المضطر . أيأكل حتى يشبع أم يأكل على قدر ما يسد به رمقه ؟

ذهب مالك الى الأول ، لأن الضرورة رفعت التحريم فتعود الميتة مباحة .

وذهب الجمهور إلى الثانى . لأن الإباحة ضرورة تقدر بقدرها ، وعلة الخلاف ترجع إلى مفهوم قوله ـ تعالى ـ

« غير باغ ولا عاد »

فالجمهور فسروا البغى بالأكل لغير حاجة ، والعَادِى هو المتعدى حد الضرورة .

ومالك فسر ذلك بالبغى والعدوان على الإمام .

لقد أباح الله لعباده المؤمنين تناول الطيبات من الرزق ، وحرم عليهم الخبائث ، كما نهاهم عن تعذيب النفس وحرمانها من اللذائذ الدنيوية ، فإن المشركين وأهل الكتاب حرموا على أنفسهم أشياء لم يحرمها الله تعالى .

وكان المذهب الشائع عند النصارى أن أفضل ما يتقرب به العبد لربه تعذيب النفس واحتقارها وحرمانها من جميع الطيبات المستلذة ، وكانوا يعتقدون أنه لا حياة للروح إلا بتعذيب الجسد . وهذه الأحكام ليست من عند الله بل وضعها الرؤساء لهم ، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ (٩٠)

وقد تفضل الله على أمة الاسلام فجعلها أمة وسطا ، تعطى الجسد حقه والروح حقها ، فأحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث وأمرنا بالشكر على الطيبات ، ولم يجعلنا جثمانيين خلصا كالأنعام ، ولا روحانيين خلصا كالملائكة ، بل جعلنا أناسى كملة بهذه الشريعة المعتدلة .

---

(٩٠) الأعراف ٣٢ ، ٣٣.

وحكمة تحريم الميتة لما فيها من الضرر ، لأنها إما أن تكون ماتت لمرض أو علة أفسدت بدنها وجعلتها غير صالحة للبقاء والحياة ، وإما أن يكون الموت لسبب طارىء . .

فأما الاولى فقد خبث لحمها وتلوث بجراثيم المرض فيخشى عدواها وانتقال مرضها للآكلين .

وأما الثانية فإن الموت الفجائى يقتضى بقاء المواد الضارة فى جسمها .

وحُرِّم الدم المسفوح لقذارته وضرره ، وقد أثبت الطب الحديث أن الدم ضار كالميتة ، وأنه تتجمع فيه الميكروبات والمواد الضارة .

وحرم لحم الخنزير لأن غذاءه من القاذورات والنجاسات ، فهو قذر لذلك ، وقد اكتشف العلماء أن لحم الخنزير يحمل جراثيم شديدة الفتك ، والمتغذى من لحم الخنزير يكتسب من طباع ما يأكله ، والخنزير فيه كثير من الطباع الخبيثة ، وأشهرها عدم الغيرة وعدم العفة .

وذكر الشيخ سيد قطب فى تفسيره ما نصُّه : الخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم ، ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل . وقد كشف علم الناس منذ قليل أن فى لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة : « الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة »

ويقول الآن قوم : إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت ، فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر ، لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التى توفرها وسائل الطهو الحديثة . وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى

قرون طويلة ليكشف آفة واحدة ، فمن ذا الذى يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى فى لحم الخنزير لم يُكْشَفْ عنها بعد ؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشرى بعشرات القرون أن نثق بها ، وندع كلمة الفصل لها ، ونحرم ما حرمت ، ونحلل ما حللت وهي من لدن حكيم خبير ؟

أما ما أهل لغير الله به فعلة تحريمه أنه وجه لغير الله ، فهو محرم لعلة روحية ، لسلامة القلب وطهارة الروح وخلوص الضمير ، فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية ، وقد حرص الاسلام علي أن يكون التوجه لله وحده لا شريك له[91] .

لقد استطردنا عامدين الى ذكر هذه الأحكام وما يتعلق بها من آثار فردية واجتماعية لنقيس عليها حكمة تحريم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للحمر الأهلية . وتحريم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لشيء إنما هوَ تحريم من الله لذلك الشيء ، لانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينطق عن الهوى . . . . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا ألفين أحداً منكم متكئاً على أريكة يأتيه الأمر من أمرى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، وما وجدنا من حلال أحللناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو مثل ما حرم الله » .

لقد أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإكفاء القدور التى طبخت فيها هذه اللحوم فقال : اكفئوا القدور واكسروها ـ فى رواية سلمة بن الأكوع ـ

---

(٩١) روائع البيان ـ تفسير آيات الأحكام ـ محمد على الصابونى ـ جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها . .

فقالوا : يا رسول الله . أو نغسلها ؟ فقال : أو ذاك .

الخيل والبغال

وعلى العكس من لحوم الحمر الأهلية ـ الخيل والبغال . ولذلك قال جابر ـ رضى الله عنه ـ فيما رواه أبو داود « ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال ولم ينهنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الخيل ، وفى رواية : ورخص فى أكل الخيل[٩٢] . ويبدو أن غزوة خيبر كانت فرصة أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لإعلان أصحابه بتحريم بعض الأشياء . فقد نهاهم عن أكل لحم الجلالة وعن ركوبها حتى تعلف أربعين يوماً . . . . والجلالة هى التى تأكل الروث والعذرة .

كما نهى أيضاً عن أكل كل ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطير ـ كما نهى عن بيع المغانم حتى تقسم .

عود إلى الأحداث المثيرة بعد فتح خيبر

قدوم مهاجرة الحبشة

وبعد أن فتحت خيبر عاد المسلمون الذين كانوا قد هاجرو الى الحبشة فراراً بدينهم ، وفى مقدمتهم جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وكان معه وفد من الأشعريين منهم أبو موسى الأشعرى وأخواه ـ أبورهم ، وأبو بردة . .

---

(٩٢) السيرة الحلبية جـ٢ ص٧٥٣ .

وقد سُرَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقدوم جعفر حتى قال : لا أدرى بأيهما أسر ؟ أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟

ورحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجعفر ـ رضى الله عنه ـ وصافحه .

ولما رأى جعفر سرور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقدومه فرح فرحاً شديداً برضاء الله ورسوله عنه . . . . . ولماذ لا يفرح والله ـ تعالى ـ يقول

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[٩٣]

وكانت مع جعفرٍ زوجته السيدة « أسماء بنت عميس » ـ رضى الله عنها ـ ويحدثنا أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن رحلته فيقول :

« بَلَغَنَا مبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى ، أنا أصغرهما ، أحدهما أبو رهم والآخر أبو بردة ـ وكنا فى ثلاثة وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلًا ـ من قومى ـ فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا الى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده .

فقال جعفر : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثنا وأمرنا بالاقامة فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين فتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن خيبر شيئاً إلا نحن وجعفر وأصحابه . .

---

(٩٣) يونس ٥٨ .

« وكان ناس يقولون لهم : سبقناكم بالهجرة . نحن أحق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم . فغضبت ـ أسماء بنت عميس ـ وقالت ، كلا ، والله لقد كنتم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا فى أرض ـ أو فى دار ـ بعيدة بالحبشة ، وذلك فى الله وفى رسوله ، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن كنا نقاسى ونُؤذى . وسأذكر ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله لا أكذب ولا أزيغ ، ولا أزيد على ذلك .

« فلما جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قات له : يارسول الله إن ناساً قالوا كذا وكذا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما قُلتِ لهم ؟

قالت : قلت لهم : كذا وكذا .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليسوا بأحق بى منكم ، لهم هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

وكان أبوموسى وأصحاب السفينة يأتون أسماء ـ أرسالا ـ جماعات ـ يسألونها عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شىء هم أفرح به ولا أعظم فى أنفسهم مما قال رسول الله ـ ﷺ ـ فى شأنهم »[٩٣]

أجل ، فهذه هى رحمة الله وفضله ـ وهل هناك أعظم من أن يظفر إنسان

---

(٩٤) انظر صفوة السيرة ـ الشيخ أحمد حسن الباقورى ص ٣٧٣ .

برضاء رسول الله عنه الذى هو عنوان رضاء الله . . ؟

قدوم أصحاب الصوامع

ومن قدم أيضا على النبى - ﷺ - سبعون رجلا عليهم ثياب الصوف ، منهم اثنان وستون من الحبشة ، وثمانية من الروم .

وقيل : كانوا ثمانين رجلا - فقرأ عليهم رسول الله - ﷺ - سورة يس إلى آخرها ، فبكوا وأسلموا . وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى - عليه السلام .

ووفد إلى رسول الله أيضا وفد النجاشي ، فقام - ﷺ - يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك يارسول الله

فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أكافئهم .. لقد أراد النبى - ﷺ - أن يطبق أدب القرآن الكريم تطبيقا عمليا حين قال

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾ (٩٥)

سئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن أخلاق النبى - ﷺ - فقالت : كان خلقه القرآن . .

وفد دوس

قال ابن سعد : أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا ، وقدم معه إلى المدينة سبعون أو ثمانون أهل بيت من قومه ، وفيهم

(٩٥) النساء ٨٦ .

أبو هريرة وعبدالله بن أزيهر الدوسى . جاءوا ورسول الله بخيبر ، فساروا إليه فلقوه هناك . . .

ثم عادوا معه إلى المدينة .

وقال الطفيل بن عامر : يارسول الله ، لا تفرق بينى وبين قومى فى مكان - فأنزلهم النبى - ﷺ - حرة الدجاج -

وقال أبوهريرة فى هجرته حين خرج من دار قومه :

ياطولها من ليلة وغناءها على أنها بلدة الكفر نجت

وقال عبدالله بن أزيهر : يارسول الله ، إن لى فى قومى مكانة ومكانا فاجعلنى عليهم .

فقال رسول الله - ﷺ - : يا أخا دوس ، إن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ، فمن صدق الله نجا ، ومن آل إلى غير ذلك هلك ، إن أعظم قومك ثوابا أعظمهم صدقا ، ويوشك الحق أن يغلب الباطل »[٩٦]

ويذكر أبوهريرة أنهم حين وفدوا إلى المدينة صلوا الصبح خلف سباع بن عرفطة ، وهو الذى استخلفه النبى - ﷺ - على المدينة فى خلال تلك الغزوة .

وأخبرهم سباع أن النبى - ﷺ - بخيبر ، وزودهم حتى وصلوا إليها .

قال أبوهريرة : جئنا خيبر فأقمنا حتى فتح الله عليه .

قدوم أم حبيبة

وقدمت مع الوفد القادم من الحبشة أم حبيبة بنت أبي سفيان . وكانت قد

---

(٩٦) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ٢ ص ٨١ .

هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش . . واسمها الأصل « رملة » ولكنها شهرت بكنيتها .

وكان زوجها قد تنصر بالحبشة ومات بها . وثبتت هى على إسلامها . . وأبوها هو أبوسفيان الذى كان زعيم قريش وقائدها فى حرب الإسلام ، وعلى الرغم من ذلك كانت من السابقين إلى الإسلام . . . . . .

فكان لابد من مكافاتها على ثباتها على الاسلام . وإذهاب الوحشة من نفسها بعد كفر زوجها ووفاته ، وهى فى ديار غريبة عن الأهل والوطن ، وهى امرأة ليس لها ما للرجال من قوة تحمل وصبر على المعاناة . .

فأرسل النبى - ﷺ - عمرو بن أمية الضمرى ، إلى النجاشى يوكله عنه فى أن يزوجه منها . .

قالت أم حبيبة - رضى الله عنها - : رأيت فى المنام كأن قائلا يقول لى : يا أم المؤمنين . ففزعت . فأولتها أن رسول الله - ﷺ - يتزوجنى .

قالت : فما شعرت إلا وقد دخلت علىّ جارية النجاشى فقالت لى : إن الملك يقول لك : إن رسول الله - ﷺ - كتب إليه أن يزوجك منه .

قالت : فقلت لها : بشره الله بالخير .

قالت الجارية : ويقول لك الملك : وكلّ من يزوجك .

فأرسلت أم حبيبة بالوكالة إلى خالد بن سعيد رضى عنه - وأعطت الجارية سوارين ، وخلخالين وخاتم فضة - أى حليها التى كانت عليها - سرورا بما بشرت به .

فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين ، فحضروا ، وخطب النجاشى فقال فى خطبته :

ـ الحمدلله الملك القدوس . أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم . عليه الصلاة والسلام ـ أما بعد فإن رسول الله ـ ﷺ ـ كتب إلى أن أزوجه أم حبيبه بنت أبى سفيان ، فأجبنا إلى مادعا إليه رسول الله ـ ﷺ ـ وقد أصدقها أربعمائة دينار .

وسكب النجاشى الدنانيربين يدى القوم .

ثم تكلم خالد بن سعيد بن العاص فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد . . . . فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ـ ﷺ ـ وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فبارك الله لرسول الله ـ ﷺ ـ

قيل : ودفع النجاشى الدنانير لخالد بن سعيد ، فقبضها منه ، وقيل : إنه أنفذها إلى أم حبيبة . على يد جاريته ، فأعطت أم حبيبة الجارية خمسين دينارا . .

ويقال : إن الجارية أخبرت النجاشى بما وهبته لها أم حبيبة ، فأمرها بأن ترد عليها ما أخذت منها ، فردت الجارية المال ، وقالت : إن الملك رفض أن آخذ منك شيئا ، وأمر نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من العطر . .

فأهدى إلى أم حبيبة من ذلك الشيء الكثير . .
وأولم النجاشي وليمة . .

وَذُكِر أن أم حبيبة عادت بصحبة جعفر إلى المدينة والرسول - ﷺ - في خيبر وقيل : عادت قبل ذلك .

رؤيا عيينة بن حصن الفزاري

كانت غطفان كما علمنا حليفة لليهود ، ولكن الله حال بينها وبين نصرة اليهود ، وكان النبي - ﷺ - قد أوهم غطفان بأنه يريدها ، فتخلفوا عن يهود خيبر دفاعا عن أنفسهم .

وقد حاول اليهود الاستنجاد بغطفان على أن يعطوهم نصف ثمار خيبر . فهم الغطفانيون بنجدتهم ، ولكن الله خذلهم . . . . ذلك أنهم بعد أن ساروا إليهم سمعوا أن قوة من المسلمين أغاروا على أهليهم ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ، ورجعوا إلى ديارهم . .

ويقال : إن النبي - ﷺ - كان قد أرسل إلى بني فزارة يثبطهم عن إعانة أهل خيبر على أن يكون لهم من خيبر كذا وكذا ، ولكن بني فزارة أبو ذلك ، وخرجو لنصرة اليهود فسمعوا ما سمعوا فرجعوا إلى ديارهم . . فلما فتح رسول الله خيبر أتاه بنو فزارة فقالوا : وعدك الذي وعدتنا .

فقال النبي - ﷺ - لكم ذو الرقيبة ، وذو الرقيبة جبل من جبال خيبر .
فلما سمعوا ذلك قالوا : إذا نقاتلك .
فقال النبي - ﷺ - : موعدكم كذا .

فلما سمعوا ذلك ولوا هاربين .

أما قول النبى - ﷺ - لهم :.لكم ذو الرقيبة ، فله معناه - قال الواقدى : قال أبو شييم المزنى - وكان ممن أسلم فحسن أسلامه ، : لما نفرنا إلى أهلنا مع عيينة بن حصن ، رجع بنا عيينة .

فلما كان دون خيبر قال : عيينة : أبشروا ، إنى رأيت الليلة فى المنام ، أننى أعطيت ذا الرقيبة - جبلا بخيبر - . قد والله أخذت برقبة محمد .

فلما قدمنا خيبر قدم عيينة ، فوجد رسول الله - ﷺ - قد فتح خيبر .

فقال : يا محمد ، أعطنى مما غنمت من حلفائى ، فإنى انصرفت عنك ، وقد فرغنا لك .

فقال رسول الله - ﷺ - كذبت ، ولكن الصياح الذى سمعت ، نفرك إلى أهلك .

قال : أجزنى يا محمد .

قال : لك ذو الرقيبة .

قال : وما ذو الرقيبة .

قال : الجبل الذى رأيت فى النوم أنك أخذته .

فانصرف عيينة .

فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف ، فقال له : ألم أقل لك : إنك توضع فى غير شىء ؟ والله ليظهرن محمد ما بين المشرق والمغرب . . إن يهود كانوا يخبروننا بهذا ، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول :

إنا لنحسد محمدا على النبوة ، حيث خرجت النبوة من بنى هارون . . ومحمد نبى مرسل ، ويهود لا تطاوعنى على هذا . .

قال الحارث : قلت لسلام : يملك الأرض جميعا ؟

قال : نعم والتوراة التى أنزلت على موسى ، وما أحب أن يعلم يهود بقولى هذا »[٩٧]

الشاة المسمومة

وأهدت زينب بنت الحارث اليهودية زوجة سلام بن مشكم ، أهدت للنبى - ﷺ - شاة مسمومة . . وضعت السم فى سائرها ، وأكثرت منه فى الذراع حين سألت فعلمت أن النبى - ﷺ - يحب الذراع

وأقبل النبى - صلى الله عليه وسلم - على الطعام ومعه بعض أصحابه ، فمد يده إلى الذراع وقضم منه قضمة ، ولكنه لم يُسِغْها ، فلفظها ، وقال : إن هذه الذراع تخبرنى أنها مسمومة . .

وكان بعض أصحابه قد ألقوا ما فى أفواههم .

واستدعى النبى - صلى الله عليه وسلم - زينب ، وسألها عما صنعت ، فاعترفت بأنها وضعت السم فى الشاة ، قالت : قلت : إن كان كاذباً أراحنا الله منه ، وإن كان نبياً فسيخبره الله . وقد استبان لى أنك نبى وأنك صادق ، وَأُشْهِدُكَ ومن حضر أنى على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله[٩٨] .

---

(٩٧) صفوة السيرة ص ٣٧٦ .
(٩٨) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ ٢ ص ٢٤١ .

قال بعض الرواة : وقد عفا عنها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال بعضهم : حين مات بعض أصحابه الذين أكلوا قتلها قصاصاً .

وكان الذى مات بعد أن أكل هو بشر بن البراء بن معرور ـ رضى الله عنه ـ ويرجح بعض العلماء العفو عنها لأن فعلها هذا كان قبل الاسلام ، والاسلام يَجُبُّ ما قبله .

الحجاج بن علاط ـ يسخر من قريش

وحين ظهر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل خيبر ، استأذن الحجاج بن علاط النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوجه إلى مكة لاستيفاء مالٍ كان له بها فأذن له . . وقبل أن نذكر هذا الخبر نقدم بين يديه خبراً آخر طريفاً عن سبب إسلام حجاج هذا .

قال ابن الأثير : كان سبب إسلامه أنه خرج فى ركب قومه إلى مكة ، فلما جن عليه الليل ، وهو فى وادٍ مخوف قعد ، فقال له أصحابه : قم يا أبا كلاب ـ وهذه كنيته ـ فخذ لنفسك ولأصحابك أماناً ـ كان من عادة العرب فى الجاهلية أنهم إذا نزلوا فى مكان فى أثناء سفرهم يتعوذون بالجن الذين يقطنون بهذا المكان قائلين : نعوذ بأهل هذا الوادى أو بسيد هذا الوادى ـ

فقام الحجاج بن علاط يطوف حول أصحابه يكلؤهم وهو يقول :

أعيذ نفسى وأعيذ صحبى   من كل جنى بهذا النَّقب

حتى أؤوبَ سالماً وركْبى

فسمع قائلاً يقول :

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٩٩)

فلما قدم مكة أخبرَ بذلك فى نادى قريش ، فقالوا له : صبأت والله يا أبا كلاب ، إن هذا مما يزعم محمد أنه نزل عليه ـ فقال : والله لقد سمعته . . . . ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، وهاجر إلى المدينة ، وابتنى بها مسجداً وداراً تعرف به ، وهو والد نصر بن حجاج الذى اشتهر بجمال الوجه .

قال حجاج بن علاط للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله إن لى مالاً بمكة وإن لى بها أهلاً ، وإنى أريد أن آتيهم ، فهل أنا فى حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئاً ؟

قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم .

ويبدو أنه حين أسلم لم تعلم قريش بإسلامه . .

وخشى إن علموا بإسلامه أن يأكلوا ماله ، وهو كثير . وكانت له زوجة بمكة اسمها شيبة بنت أبى طلحة أخت بنى عبد الدار .

وانطلق حجاج فى طريقه إلى مكة حتى إذا انتهى إلى ثنية البيضاء ـ وجد نفراً من قريش يتحسسون الأخبار ، فلما رأوه قالوا : هذا الحجاج وعنده الخبر .

---

(٩٩) الرحمن ٢٣ .

قال حجاج : فقلت لهم : هُزِم الرجل - يقصد النبى - صلى الله عليه وسلم - أقبح هزيمة سمعتم بها وقُتل أصحابه وأخذ أسيراً . فقالت يهود : لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتل بين أظهرهم .

واتجه حَجَّاج معهم إلى مكة . . وأذاعوا هذه الأخبار التى التقطوها من حجاج ابن علاط .

وقالوا : هذا حجاج قد جاءكم بالخبر . . إن محمداً قد أسر ، وإنما تنتظرون أن تُؤتوا به فَيُقْتل بين أظهركم .

وانتهزها حجاج فرصة ، فقال : أعينونى على جمع مالى فإنى أريد أن ألحق بخيبر فأشترى مما أصيب من محمد قبل أن يأتيهم التجار . .

وكان قد انطلق إلى صاحبته فأخبرها بذلك ، وطلب ودائعه عندها حتى يلحق الفرصة قبل أن يغتنمها التجار دونه . .

وسرى الخبر إلى العباس - وكان يُسِرُّ إسلامه - فساءه الخبر ، واشتد عليه حتى لم يستطع القيام من موضعه . .

وأخذ القرشيون يغلظون له ويتفوهون بما يسوؤه . .

فلما اشتد الأمر عليه أرسل غلاماً له سراً الى حجاج بن علاط يطلب منه أن يعلمه بحقيقة الأمر .

فلقى حجاج الغلام وقال له : قل لمولاك فليلقنى فى موضع خال فى بعض بيوته فإن له عندى ما يسره . . وضرب له موعداً . .

وعاد الغلام إلى العباس - رضي الله عنه - بهذا الخبر فأعتقه سروراً بما سمع منه .

وجاء حجاج في موعده . فقال له العباس : ما عندك من الخبر؟

فقال حجاج : الذي والله يسرك ، تركت والله ابن أخيك قد فتح الله عليه خيبر ، وقَتَل من قَتَل من أهلها ، وصارت أموالها له ولأصحابه ، وتركته وقد تزوج ابنة ملكهم ، ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالي ، ثم ألحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاكتم عليّ الخبر ثلاثاً فاني أخشى القوم .

فلما كان اليوم الثالث لبس العباس حلة ، وتخلّق - تطيب - ثم أخذ عصاه وخرج الى المسجد ، واستلم الركن .

فنظر إليه رجال قريش فقالوا له : يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد على حر المصيبة .

فقال : كلا والذي حلفتم به . ولكن ابن أخي قد فتح خيبر ، وصارت له ولأصحابه ، وتركه حَجّاج وقد تزوج ابنة ملكهم .

قالوا : ومن أخبرك بهذا ؟

قال : حجاج بن علاط - فقد أسلم وتابع محمداً على دينه ، وما جاء إلا ليأخذ ماله ثم يلحق به .

فقالوا : أي عباد الله ، خدعنا الحجاج بن علاط . . . . ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر[١٠٠] .

---

(١٠٠) اسد الغابة جـ ١ ص ٤٥٦ .

وكان العباس قبل أن يذهب إلى المسجد قد مر على زوجة حجاج ، فقال لها : ما فعل زوجك ،

قالت : ذهب . ثم قالت : لا يحزنك والله ما سمعت ، لقد شق علينا الذى بلغك يا أبا الفضل .

فقال : أجل لا يحزننى والله ، ولم يكن والله إلا ما أحب بحمد الله ، فتح الله على رسوله خيبر ، وجرت فيها سهام الله ، وتزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفية بنت حيى بن أخطب ـ ملكهم .

وإن كان لك فى زوجك حاجة فالحقى به

قالت : أظنك والله صادقاً ، فمن أخبرك ؟

قال أخبرنى بذلك زوجك[١٠١] .

بقية اليهود

وبفتح خيبر انكسرت شوكة اليهود فى الحجاز ، فلم يبق إلا يهود « فدك » « ووادى القرى » و« تيماء » .

فأما أهل « فدك » وهى قرية فى الحجاز بينها وبين المدينة يومان ـ وقيل : ثلاثة .

فقد أذعنوا بدون قتال ، واستسلموا على أن يدفعوا النصف من أموالهم .

ثم تجهز الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعودة الى المدينة عن طريق

---

(١٠١) صفوة السيرة ـ بتصرف ص ٣٨٢ .

وادى القرى ، وهو وادٍ بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى .

وبعد أن استعد يهود وادى القرى للقتال رأوا أنهم لا يستطيعون الصمود فأذعنوا للصلح .

ويعدهم أهل « تيماء » وهى فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى ..... وقد قبل أهل تيماء أن يدفعوا الجزية من غير حرب ولا قتال .

وبذلك تكون اليهود قد دانت جميعاً لسلطان المسلمين ، وأصبح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مأمن من ناحية الشمال إلى الشام ، كما أصبح فى مأمن من ناحية الجنوب بصلح الحديبية .

وباستسلام اليهود ذهبت مشاعر الكراهية ضد الاسلام ، فقد كانوا هم العامل الأكبر فى إثارة الحقد والعداوة ضد المسلمين ..

وتفرغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك لإرسال رسله إلى خارج الجزيرة العربية للملوك والأمراء تبليغاً لدعوة الاسلام التى أمر بإبلاغها للناس جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها ..

ولهذا حديث خاص سوف نعرض له إن شاء الله بعد أن نعرض لبعض الأحداث المهمة التى أعقبت غزوة خيبر . تلك الغزوة التى أطلق عليها القرآن الكريم اسم الفتح القريب-وقد ذكرنا الآيات الكريمة الواردة فى ذلك ..

وكان من أهم هذه الأحداث :

« إسلام خالد بن الوليد »

هو سيف الله المسلول . . خالد بن الوليد بن المغيرة بن عُمَر بن مخزوم . وكنيته أبو سليمان ، أمه هى لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية ، أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كان خالد أحد أشراف قريش فى الجاهلية ، وإليه أمر القبة وأعنة الخيل . أما القبة فكانوا يضربونها عند التجهز للحرب ، يجمعون فيها ما يعدونه للجيش ، وأما الأعنة فهى جمع عنان ، ويكنى بذلك عن قيادة الفرسان..وكان خالد على رأس الفرسان فى معارك قريش ضد أعدائها .

ولنترك خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ يحدثنا عن قصة إسلامه فيقول : لما أراد الله ـ عز وجل ـ بى الخير قذف فى قلبى الاسلام ، وحضرنى رشدى ، فقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى مُوضِع فى غير شىء ـ أى أعمل دون فائدة ـ وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يظهر .

فلما جاء ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمرة القضاء ـ تغيبت ولم أشهد دخوله . وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطلبنى فلم يجدنى ، فكتب إلىّ كتاباً فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أمابعد ، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام وقلة عقلك ـ ومثل الاسلام يجهله أحد ؟

وقد سألنى عنك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أين خالد ؟

فقلت : يأتى الله به .

فقال رسول الله : يأتى الله به .

ثم قال : ما مثله يجهل الاسلام ، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كأن خيراً له . .

فاستدرك يا أخى ما فاتك ، فقد فاتك مواطن صالحة . .

قال خالد : فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الإسلام ، وسرتنى مقالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورأيت فى المنام كأنى فى بلاد ضيقة جدباء فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة .

فلما أردت الخروج الى المدينة لقيت صفوان ، فقلت : يا أبا وهب ، أما ترى أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظهر على العرب والعجم ؟ فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا ؟

قال : لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبداً .

قلت : هذا رجل قُتِل أبوه وأخوه ببدر .

فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان . فقال مثل الذى قال صفوان .

قلت له : فاكتم ما قلت لك .

قال : لا أذكره .

ثم لقيت عثمان بن طلحة . قلت : هذا لى صديق ، فأردت أن أذكر له ، ثم ذكرت من قتل من آبائه ـ فقد قُتِل أبوه طلحة وعمه عثمان ، وإخوته الأربعة ، كلهم قتلوا يوم أحد ـ فكرهت أن أذكر له .

ثم قلت : وما علىَّ ؟

فقلت له : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جُحْر ، لو صُبَّ فيه ذَنُوب ـ دلو ـ من ماء لخرج .

ثم قلت له ما قلته لصفوان وعكرمة ، فأسرع الإجابة . فواعدنى إن سبقنى أقام فى محل كذا ، وإن سبقته إليه انتظرته فلم يطلع الفجر حتى التقينا فغدونا حتى انتهينا إلى الهدَّة ـ موضع ـ فوجدنا عمرو بن العاص بها ، فقال : مرحباً بالقوم .

فقلنا : وبك .

قال : أين مسيركم ؟

قلنا : الدخول فى الاسلام .

قال : وذلك الذى أقدمنى .

ـ وفى رواية قال عمرو : يا أبا سليمان أين تريد ؟

قال خالد : والله لقد استقام الميسم ـ تبين الطريق ـ وظهر الأمر ، وإن هذا الرجل لنبى ، وسوف أذهب فأتبعه . فحتى متى ؟

فقال عمرو : وأنا ما جئت إلا لأسلم .

قال خالد : فسرنا جميعاً حتى دخلنا المدينة الشريفة ، فأنخنا بظهر الحرة ركابنا ، فأُخبرنا رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسُرَّ بنا وقال : أسلم فرسان مكة .

قال : فلبست من صالح ثيابى ، ثم عمدت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقينى أخى ، فقال : أسرع فإن رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم - قد سُرَّ بقدومكم وهو ينتظركم ،

فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه ، فما زال - صلى الله عليه وسلم - يتبسم إلىّ حتى وقفت عليه . فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق .

فقلت : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك رسول الله .

قال : الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير .

قلت : يا رسول الله ، ادع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك .

فقال - صلى الله عليه وسلم - الإسلام يَجُبُّ ما قبله .

ثم تقدم عثمان وعمرو فأسلما[102] . . »

وهذه القصة التى وردت على لسان خالد - رضى الله عنه - تفيد أن إسلامه كان بعد عمرة القضاء . إلا أن هناك بعض الروايات تشير إلى أن إسلامه كان قبل عمرة القضاء .

وأبلى خالد فى الإسلام بلاء حسناً ، وكان ميمون النقيبة ، ما توجه فى الاسلام وجهة إلا كان الفتح على يديه ، حتى أطلق عليه أنه القائد الذى لم يهزم أبداً .

وكانت أولى المعارك التى خاضها خالد فى ظل الاسلام هى معركة مؤتة وستتحدث عنها بعد قليل إن شاء الله - تعالى -

أما الحدث الثانى المهم الذى كان بعد فتح خيبر فهو - عمرة القضاء . .

---

(١٠٢) السيرة الحلبية جـ٢ ص ٧٧٦ .

عُمرة القضاء

- خروج المسلمين للعمرة .
- قريش تخرج من مكة حتى يؤدى الرسول وأصحابه العمرة .
- زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من ميمونة بنت الحارث .

غزوة مؤتة

- سبب الغزوة .
- سير الأحداث .
- دروس من تلك الغزوة .

عمرة القضاء

وسميت بهذا الاسم لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاضى قريشاً عليها - أى صالحهم عليها -

ويقال لها من أجل ذلك عمرة الصلح ، ويقال لها أيضاً عمرة القضية ، ويقال لها : عمرة القصاص - وسميت بعمرة القصاص لقوله - تعالى -

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (١٠٣)

قال القرطبى فى تفسير هذه الآية : أى اقتصصت لكم منهم إذ صدوكم سنة ست فقضيتم العمرة سنة سبع .

وقد نزلت آية الحصر فى نفس العام وهى قوله - تعالى -

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ

---

(١٠٣) البقرة ١٩٤ .

وقد اعتبرت عمرة الحديبية عمرة كاملة لأن الحيلولة دون الوصول إلى البيت كانت بفعل العدو ، ولذلك نحر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هديه وحلق رأسه .

وقد قال بعض العلماء : إن من أحصر بعدو فلا قضاء عليه لحجه أو عمرته إلا أن يكون صَرُورة ـ أى لم يحج قبل ذلك ـ أو لم يعتمر عند من اعتبر العمرة فرضاً ـ وهذا قول مالك والشافعى .

أما أبو حنيفة فقد قال : المحصر بمرض أو عدو عليه حج وعمرة .
وعلى ذلك فأصحاب هذا القول يرون أن عمرة القضاء كانت قضاء لتلك العمرة التى لم تتم فى الحديبية . ولذلك قيل لها : عمرة القضاء .
ولكن أصحاب الرأى الأول يقولون : لم يأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحداً من أصحابه ولا ممن كان معه أن يقضوا شيئاً ولا أن يعودوا بشىء ، ولا حُفِظ ذلك عنه بوجه من الوجوه ، ولا قال فى العام المقبل : إن عمرتى هذه كانت قضاءً عن العمرة التى حصرت فيها ، ولم ينقل ذلك عنه .

ولذلك قال الامام مالك : وعمرة القضاء وعمرة القضية سواء ، وإنما قيل لها ذلك لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاضى قريشاً وصالحهم فى ذلك العام على الرجوع عن البيت وقصده من قابل فسميت بذلك عمرة القضية(١٠٥) .

---

(١٠٤) البقرة ١٩٦ (١٠٥) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٣٧٦ ط دار الكتب .

قال الواقدى : وقد اعتمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أربع عمرات : عمرة الحديبية وهى عمرة الحصر ، وعمرة القضاء من قابل ، وعمرة الجعرانة ، والرابعة التى مع حجته . وكانت الثلاث الأولى فى ذى القعدة من كل عام تمت فيه .

قال : أخبرنا الفضل بن دكين ، حدثنا زكرياء بن أبى زائدة عن عامر قال : لم يعتمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمرة إلا فى ذى القعدة[١٠٦] .

الخروج للعمرة

حين أهل شهر ذى القعدة من العام القابل سنة سبع أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التى صدهم المشركون عنها بالحديبية وأمر ألا يتخلف أحد ممن شهدوا الحديبية فلم يتخلف أحد إلا من سبقه أجله .

وجاءه قوم من حاضرى المدينة من العرب فقالوا : يا رسول الله ، والله ما لنا زاد وما لنا من يطعمنا ، فأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه أن ينفقوا فى سبيل الله وأن يتصدقوا وأن يكُفُّوا أيديهم . .

فقالوا : يا رسول الله ، بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئاً ؟

فقال - صلى الله عليه وسلم - ما كان ولو بشق تمرة .

روى البخارى والبيهقى وغيرهما أن قوله - تعالى -

---

(١٠٦) الطبقات الكبرى جـ ٢ قسم ١ ص ١٢٣ .

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (١٠٧)

يعنى حث المسلمون على الإنفاق فى سبيل الله ، وأن التهلكة هى ترك النفقة فى سبيل الله ، وليست التهلكة هى أن يُقْتل الرجل فى سبيل الله(١٠٨) .

وقد نزلت هذه الآية فى سياق الحديث عن عمرة القضاء والإحصار فى الحديبية . فكأنها نزلت لتحض المسلمين على الا يبخلوا بما فى أيديهم على مساعدة العاجزين والضعفاء غير القادرين .

وخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألفان سوى النساء والصبيان .

واستخلف على المدينة أبارُهم الغفارى ، وهو كلثوم بن الحصين ، أسلم بعد قدوم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة وشهد أُحُداً فرمى بسهم فى نحره فسمى المنحور ، فجاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمسح عليه بيده فبرأ واستخلفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرتين . مرة فى عمرة القضاء ومرة عام الفتح(١٠٩) .

---

(١٠٧) البقرة ١٩٥ .
(١٠٨) المواهب اللدنية جـ٢ ص ٢٥٤ .
(١٠٩) اسد الغابة جـ٦ ص ١١٧ .

وساق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الهدى ، ستين بدنة ، قَلَّدها بيده ، وجعل عليها « ناجية بن جندب » يسير بها أمامه ، يطلب الرعى فى الشجر ، ومعه أربعة فتيان من أسلم .

واحتاط النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحمل معه سلاحاً ، وأعد مائة فرس . . وجعل على السلاح بشير بن سعد والد النعمان بن بشير .

وقد قيل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله لم حملت السلاح وقد شرطوا عليك أن لا تدخلها إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القُرُب ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنا لا نُدْخِل السلاح عليهم الحرم ، ولكن يكون قريباً منا ، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا .

ولما انتهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ذى الحليفة ـ قدَّم الخيل أمامه ، وجعل عليها محمد بن مسلمة ـ رضى الله عنه ـ

فلما كان بمرِّ الظهران وجد محمد بن مسلمة نفراً من قريش ، فسألوه :

فقال : هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتى هذا المنزل غداً إن شاء الله . وقد رأى هؤلاء القوم السلاح ، فأسرعوا الى قريش يخبرونهم بما رأوا من خيل وسلاح . .

ففزعت قريش ، وقال بعضهم لبعض : ما أحدثنا حدثاً ، وإنا على عهدنا وكتابنا ومدتنا ، ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟

وبعثت قريش مكرز بن حفص فى نفر منها إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا له : والله يا محمد ماعُرِفْتَ صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، فكيف

تدخل بالسلاح فى الحرم على قومْك وقد شرطت أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر - وهو السيوف فى قُرُبِها ؟

فقال - صلى الله عليه وسلم - إنى لا أدخل عليهم بسلاح .

فقال مكرز : هذا الذى تُعرفُ به : البر والوفاء .

وعاد مكرز إلى قريش يخبرها أن محمداً لن يدخل مكة بسلاح ، وهو على الشرط الذى شرط لكم .

قريش تخرج من مكة

ونزل النبى - صلى الله عليه وسلم - بمر الظهران ، وقدم السلاح إلى مكان يسمى « بطن يأجج » وهو مكان ينظر إلى أنصاب الحرم ، أى قريب من مكة .

وخلف عليه « أوس بن خولى » الأنصارى فى مائتى رجل ، ثم خلَفَهم مثلهم بعد أن قضوا عمرتهم ، وذهب هؤلاء مكانهم حتى اعتمر الجميع .

وخرجت قريش من مكة إلى رءوس الجبال ، عداوةً لله ورسوله ، ولم يقدروا على الصبر على رؤيته - صلى الله عليه وسلم - وهو يطوف بالبيت هو وأصحابه . . . . خرجوا لأنهم لم يقدروا أن ينظروا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غيظاً وحَنَقاً وحسداً .

ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة بعد سبع سنوات من خروجه منها مهاجراً لله بدينه ، وقد ركب ناقته القصواء ، وأصحابه

يحيطون به قد توشحوا السيوف يلبوُّن .

ثم دخل من الثنية التى تطلعه على الحجون وهى ثنية كُدَاء ..
وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما دخل مكة يكثر من الدعاء وكان يدعو لأصحابه قائلاً : اللهم أمض لأصحابي هجرتهم .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه المهاجرون يحرصون على مهاجرهم الجديد وهو المدينه ، ويعتبرونه هو الوطن الذى يثوبون إليه إن خرجوا فى جهاد أو حج أو عمرة أو تجارة ، ويحرصون على أن يكون فيه مثواهم الأخير ، وما كان ذلك إلا استجابة لدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى دعا الله أن تكون المدينة أحب إلى المهاجرين من مكة . ولقد حج سعد بن خولة وهو من المهاجرين مع النبى ـ صلي الله عليه وسلم ـ حجة الوداع ، ومرض فى مكة ، وعاده النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مرضه ورثى له أن مات فى مكة ، وقال : اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم[١١٠] .

وأخذ عبد الله بن رواحة بزمام ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل يرتجز قائلاً :

خلوا بني الكفار عن سبيله	اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويُذهل الخليل عن خليله
يا رب إنى مؤمن بقيله	إنى رأيت الحق فى قبوله

---

(١١٠) الاستيعاب لابن عبد البر ج ٢ ص ٥٨٦ .

فقال عمر - رضى الله عنه - يا بن رواحة ، بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى حرم الله تقول شعراً ؟

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - خلٍّ عنه يا عمر ، فلهى فيهم أسرع من نضْح النبل[111] .

ثم قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لعبد الله بن رواحة : يا ابن رواحة ، قل : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ،

فقال عبد الله ذلك ، فقالها الناس معه .

وقد تأذى القرشيون بهذه الكلمات أكثر من تأذيهم بشعر ابن رواحة الذى قاله أولاً .

ولم يزل النبى - صلى الله عليه وسلم - يلبى حتى استلم الحجر الأسود بمحجنه[112] .

كان كفار قريش فوق الجبال يرقبون موكب المسلمين وهم يطوفون حول نبيهم - صلى الله عليه وسلم - وقد أحس النبى بما يعتمل فى نفوس القرشيين الذين كانوا يقولون : إن المهاجرين أوهنتهم حُمىً يثرب .

أطلعه الله على ما يعتمل فى نفوسهم ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة . . وأمرهم أن

---

(١١١) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٥٦ .

(١١٢) المحجن : عصا معوجة الرأس يلتقط بها الراكب ما سقط منه .

يرملوا فى الأشواط الثلاثة الأولى ، أى يسرعوا ، فأسرعوا فى طوافهم ، فرآهم المشركون فى قوتهم ونشاطهم وجريهم . ما بهم ضعف ولا فتور ولا وهن . فأخذ بعضهم يقول لبعض : أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى وهنتهم ؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا ..... إنهم لينفرون نفر الظبى .. أى يثبون وثب الغزال فى نشاطه وخفته وقوته .

وقد رأى المشركون قوة أعضادهم أيضاً فلم يجدوا فيهم ضعيفاً أو مهزولاً ..

وقد أصبح الرمل - أى الإسراع فى الأشواط الأولى ، من سنن الاحرام فى الحج والعمرة منذ ذلك الوقت .

وبعد الطواف بالبيت سعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المسلمين بين الصفا والمروة .. وقد سمى السعى بينهما طوافاً اقتداء بما جاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾(١١٣)

فقد سمى القرآن السعى طوافاً .

وبعد أن انتهى من الشوط السابع فى السعى ، وكان الهدى واقفاً فى انتظاره عند المروة ، وكان قد بعث فى إحضاره بعد أن كان محبوساً بذى طُوى .

---

(١١٣) البقرة ١٥٨ .

وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر . فنحر النبى - صلى الله عليه وسلم - الهْدى عند المروة وحلق هناك أيضاً . وكذلك فعل المسلمون .

ثم أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - مائتين من أصحابه أن يذهبوا الى بطن يأجج ليحلوا محل إخوانهم الذين خُلِّفوا عند السلاح ليأتى هؤلاء فيطوفوا بالبيت ويسعوا بين الصفا والمروة كما فعلوا هم .

ففعلوا ذلك حتى أدى الجميع نسكهم ..

وأقام النبى - صلى الله عليه وسلم - بمكة ثلاثاً .

وجاء وفد من قريش إلى على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فقالوا له : قل لصاحبك أخرج عنا فقد مضى الأجل .

فخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - وفاء للشرط ، وفى أثناء الخروج جاءت ابنة الحمزة - رضى الله عنه - تجرى وهى تقول : ياعم ياعم فأخذها على - رضى الله عنه - وضمها وأعطاها لفاطمة الزهراء - رضى الله عنها- وقال لها : دونك ابنة عمك . فأخذتها فاطمة وقالت : إنه شرط - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن لا يصيب منهم أحداً إلا رده عليهم .

فقال لها على : إنها ليست منهم ، إنما هى منا .

فحملتها فاطمة معها . واختلف فى اسم هذه الفتاة والمشهور أنها أُمامة ثم اختصم فيها - بعد ذلك - على وجعفر وزيد ، كل منهم يريد أن تكون عنده ، فقضى النبى - صلى الله عليه وسلم - بها لجعفر لأن خالتها أسماء

بنت عميس عنده . أما طلب زيد بن حارثة لها ، فلأن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان قد آخى بينه وبين حمزة - رضى الله عنه - ثم زوجها النبى - صلى الله عليه وسلم - من سلمة ابن أم سلمة ، وقال له حين زوجها منه - : هل جُزِيت سلمة ؟

لأن سلمة هو الذى زَوَّج أمه أم سلمة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم[114] .

وأخذت أمامة تسأل عن قبر أبيها ، فدُلَّت عليه وهو بأحد .

فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

تسائل عن قَرْم هجان سميذع ... لدى الناس مغوار الصباح جسور

فقلت لها : إن الشهادة راحة ... ورضوان رب يا أُمام غفور

دعاه إله الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنة فيها رضا وسرور[115]

زواجه - صلى الله عليه وسلم - من ميمونة

وتزوج النبى - صلى الله عليه وسلم - من ميمونة بنت الحارث الهلالية فى سفرته هذه ، وهى أخت لبابة بنت أم الفضل زوج العباس - رضى الله عنه - وأصدقها العباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أربعمائة درهم .

وبنى بها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مكان اسمه « سَرَف » .

قال ابن اسحاق . وكانت قريش قد وكُلت سهيل بن عمرو بإخراجه - صلى الله عليه وسلم - من مكة ، فقال له : اخرج عنا

---

(114) أسد الغابة جـ7 ص 21 .

(115) المواهب اللدنية جـ2 ص 262 . والقرم البطل الشجاع والهِجان : الأبيض الكريم ، والسميذع : الشجاع . والمغوار : كثير الإغارة .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لو تركتموني تزوجت بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟

فقال : لا حاجة لنا فى طعامك ، فاخرج عنا .

وغضب سعد بن عبادة وأراد أن يغلظ القول لقريش . . ذكر أنه قال لسهيل بن عمرو - لما رأى من غلظ كلامه للنبى - صلى الله عليه وسلم - وإلحاحه عليه فى الخروج : كذبت لا أم لك ، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يبرح منها رسول الله إلا مختاراً راضياً .

فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : يا سعد ، لا تؤذ قومنا . زارونا فى رحالنا .

ذكر بعض العلماء أن ميمونة بنت الحارث هى التى نزل فى شأنها قوله - تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (١١٦)

---

(١١٦) الأحزاب ٥٠ .

جاء فى القرطبى : وقد اختلف اسم الواهبة ، فقيل : هى أم شريك الأنصارية ، واسمها غُزَيَّة أو غزيلة ، وقيل : ليلى بنت حكيم ، وقيل : هى ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاءها الخاطب وهى على بعير لها فقالت : البعير وما عليه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم[117] .

وشاءت الأقدار أن تموت ميمونة فى نفس المكان الذى بنى بها فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو « سرف » وذلك سنة احدى وخمسين . . . . وقيل سنة ثلاث وستين من الهجرة .

غزوة مؤتة

لقد سبقت مؤتة بسرايا كثيرة ، إلا أنها كانت أول صدام مسلح ضد الروم .

ومؤتة بالهمزة وبدونها ، وأولها ميم مضمومة ، هى قرية فى حدود الشام . . وقد أطلق البعض على هذه الغزوة اسم ـ سرية مؤتة ـ لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن فيها ـ وهم يقولون : إن الغزوة تطلق على الحملة التى يكون فيهاالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما تسميتها غزوة ، فلكثرة عدد الجنود والأمراء فيها ، ولأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصف ماحدث فيها كأنه يراه رأى العين . .

---

(١١٧) القرطبى تفسير سورة الأحزاب الآية رقم ٥٠ ، وجاء ذلك فى تفسير ابن كثير وسيرة ابن هشام .

وسببها أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قد أرسل الحارث بن عمير الأزدى برسالة الى أمير بُصْرَى من جهة هرقل ، وهو الحارث بن أبي شمر الغسانى ، فتصدى له فى الطريق شرحبيل بن عمرو الغسانى ، فقال له : أين تريد ؟

قال الحارث : الشام

فقال شرحبيل : فلعلك من رسل محمد ؟

قال : نعم

فأمر به فأوثق بالحبال ثم قدمه فضرب عنقه .

ولم يقتل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول غيره .

فنما الخبر الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعزم على الثأر له ، مع تأديب الأعراب الذين غدروا بدعاة المسلمين فى ذات الأطلاح ـ وراء ذات القرى ـ من أرض الشام . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أرسل كعب بن عمير الغفارى على رأس فرقة من خمسة عشر صحابيا فغدر بهم الأعراب فى هذا المكان وقتلوهم ولم ينج منهم سوى رجل واحد أفلت بجراح .

فعقد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لزيد بن حارثة على رأس ثلاثة آلاف جندى وقال له : إن أصبت فالراية لجعفر ، فإن أصيب فالراية لعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب اختار المسلمون أميرا منهم . .

وتوجه الجيش الاسلامى وعدته الصبر والايمان إلى جانب مامعه من أسلحة العرب المعروفة ، فوجد فى انتظاره الروم فى مائة ألف يقودهم هرقل

قيصر الروم ، ومعهم الأعراب الموالون للروم .. يقودهم شرحبيل ابن عمرو الغسانى الذى قتل الحارث بن عمير الذى أرسله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم اليهم .....

سير الأحداث

كانت هذه الغزوة فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة ....

وقد ودعهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكبار أصحابه حتى ثنية الوداع وأوصاهم ألا يقتلوا النساء أو الأطفال أو المكفوفين ، وألا يهدموا المنازل ولايقطعوا الاشجار ..

كما أوصاهم أن يأتوا إلى المكان الذى قتل فيه الحارث بن عمير ، ويدعوا من هناك إلى الاسلام فان أجابوا كفوا عنهم ، وإلا استعانوا عليهم بالله ـ تعالى ـ وقاتلوهم .

وظل المسلمون يدعون للخارجين للغزو قائلين : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا سالمين غانمين .

وأقبل عبد الله بن رواحة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمدحه بأبيات قال فيها :

فثبت اللـه ماآتاك من حسـن ... تثبيت موسى ونصر كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة ... فراسة خالفت فيك الذى نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : وأنت ثبتك الله يابن رواحة[118] .

وسارت القوة تشيعها الدعوات الصالحات ، والتمنيات بالنصر والسلامة . . حتى وصلت الى مكان فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء .

ووصلت أنباء تحركاتهم إلى الروم قبل وصول المسلمين الى هذا المكان . . فحشد الروم قواتهم فى « مآب » فى طرف الشام من نواحى البلقاء . . وفوجىء المسلمون بهذه الأعداد الهائلة من قوات الروم والأعراب الموالين لهم . وهى تفوق عدد المسلمين عشرات المرات . فماذا يجدى ثلاثة آلاف أمام مايقرب من مائة ألف ؟ والمسلمون بعيدون عن بلادهم وهؤلاء فى بلادهم ؟

واجتمع قواد المسلمين للتشاور . فقال بعضهم : نكتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نخبره بحقيقة الأمر ، فإما أرسل لنا مددا أو أفادنا بما نصنع .

ولكن أغلبهم رأى أن يمضوا لأداء مهمتهم مهما كانت النتائج . . . . ومن هؤلاء عبد الله بن رواحة الذى قال : ياقوم ، والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له . خرجتم تطلبون الشهادة ونحن مانقاتل الناس بعدد ولاقوة ولاكثرة ، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به ، فإنما

---

(118) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٧٠ .

هى إحدى الحسنين إما ظهور وإما شهادة .

فقال المسلمون : صدق والله ابن رواحة

وكان عبد الله بن رواحة شاعرا فأنشد أبياتا زادت فى حماس الجند وألهبت مشاعرهم ، فقد قال :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى ... يا أرشد الله من غاز وقد رشدا [119]

ومضى الناس للقتال ، وتحركوا نحو جيوش الروم ـ وقد انحاز المسلمون إلى مؤتة . ويدأ القتال الأول عند قرية « مشارف » بتخوم البلقاء ، وهى قرب حوران من أعمال دمشق . .

ولكن المسلمين رأوا أن منطقة قرية « مؤتة » بين الكرك والطفيلة أنسب لخوض المعركة فيها ، لوجود العوارض الطبيعية التى يمكنهم التحصن بها نظرا لقلة عددهم بالنسبة لعدوهم .

ودار القتال بين قوتين غير متكافئتين عددا وعدة ، ولم يكترث المسلمون بكثرة عدوهم بل أقبلوا فى هجومهم بشجاعة نادرة وبسالة فائقة . .

وتقدم زيد بن حارثة أمير الجيش فى حماس منقطع النظير وهجم على

---

(١١٩) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٧٠ ـ وذات فرغ يعنى : واسعة يسيل دمها كالعيون ، والزبد ـ بفتح الزاى والباء رغوة الدم .

عدوه الذى وجه إليه رماحه من مختلف الجهات ..

واستشهد البطل زيد بعد قتال مستميت ..

وحمل الراية بعده جعفر بن أبى طالب كما أشار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واندفع بها نحو صفوف العدو ، فأصيبت يده اليمنى ، فحمل الراية بيسراه فأصيبت أيضا ، فاحتضن الراية بعضدية ومازال محافظا عليها حتى استشهد ـ رضى الله عنه ـ ولذلك لقبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذى الجناحين ، فقد قال : لقد أبدله الله بيديه جناحين فى الجنة .

وكان جعفر يقاتل أولا على فرس له شقراء فنزل عنها . وأخذ ينشد :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

علّى إذ لاقيتها ضرابها

وقاتل حتى قتل(١٢٠)

وحمل الراية من بعده الأمير الثالث الذى سماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو عبد الله بن رواحة . وتقدم بالراية وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ، وربما تردد بعض تردد ، فاستحث نفسه مخاطبا لها قائلا :

أقسمت بالله لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه

قد طالما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة فى شنة ؟

---

(١٢٠) المرجع السابق ص ٢٧٢

ثم قال :

يانفس إن لاتقتلى تموق   هذا حمام الموت قد صليت
وماتمنـيت فقـد أعطـيت   إن تفعلى فعلهما هديت[١٢١]

يريد صاحبيه زيدا وجعفرا .

فلما نزل عن الفرس ، أتاه ابن عمه بعرق من لحم وقال : شد بهذا صلبك فإنك لقيت فى أيامك هذه مالقيت ، فأكل منه قطعة ثم سمع ارتطام السيوف - فألقاه من يده وأخذ سيفه ، وقاتل حتى قتل .

فأسرع ثابت بن أقرم العجلانى - وأخذ اللواء ، وقال : يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم .

قالوا : أنت .

قال : ماأنا بفاعل . والتفت إلى خالد بن الوليد ، وقال ماأنا بصاحب ذلك ، ماأخذت اللواء إلا لأقدمه إليك .

فاصطلحوا على تولية خالد بن الوليد . . وكانت هذه أول معركة يخوضها وهو مسلم ، وهى أول اختبار له فى الإسلام .

نظر خالد الى الموقف فأدرك أنه فى غير صالح المسلمين . . ولأن ينسحبوا انسحابا منظما أشرف من أن يبادوا جميعا .

والانسحاب فى لغة العسكريين يقصد به التخلص من القتال بالحركة الى الخلف انتظارا لظروف مناسبة .

ولذلك قرر خالد الانسحاب لتخليص قوات المسلمين من المأزق الحرج الذى وقعوا فيه . .

---

(١٢١) المرجع السابق

واستفاد من حلول الظلام فأعاد تنظيم قواته وجمع مؤخرة قوية لحماية الانسحاب .

لقد قام بعملية تمويه بارعة على العدو ، فقد جعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة والمقدمة ساقة والساقة مقدمة ، وأمر جماعة يثيرون التراب من بعيد ليظن العدو أن هناك أمدادا قادمة للمسلمين . .

والتزم العدو حصونه انتظارا لما سوف يحدث . .

وانتهز خالد الفرصة . . فأبقى المؤخرة لشغال العدو وتعويقه عن المطاردة وبذلك تم إنقاذ الجيش من عملية تطويق كان من الممكن أن يقوم بها العدو لإفنائه . .

وجعل مؤخرة المسلمين تنتشر فى جبهة واسعة وتحدث ضجة هائلة لإيهام العدو بقدوم إمدادات جديدة للمسلمين ، ولحرمان العدو من معرفة انسحاب قوات المسلمين .

وقد أدت هذه الخطة مفعولها بنجاح . فلم يتكبد المسلمون فى انسحابهم خسائر تذكر ، على الرغم من أن عملية الانسحاب من أصعب العمليات العسكرية لاحتمال انقلاب الانسحاب الى هزيمة .

لقد كان تفكير خالد سليما ويعد من أبرع العمليات التى يقوم بها القائد الناجح .

إن خالدا لم يترك القتال فى أثناء القيام بهذه العملية ، بل كان يناوش العدو ويقاتله فى الوقت الذى تتم فيه عملية الانسحاب فى خفاء ، حتى لقد تكسر فى يد خالد تسعة سيوف .

وعاد المسلمون ولم يفقدوا فى هذه المعركة العنيفة سوى اثنى عشر شهيدا فى الوقت الذى كان من الممكن أن يفنى الجيش بأسره .

أما قتلى العدو فكانت أضعاف قتلى المسلمين . حقا إنه لاتوجد معلومات توضح مقدار خسارته ، لكنها بلاشك كانت جسيمة ، لأن كل قائد من قواد المسلمين الذين تولوا القيادة قبل خالد كان شجاعا ومقاتلا بارعا ومن المؤكد أنه لم يبع نفسه رخيصة ..... وقد تكسرت فى يد خالد تسعة سيوف قبل أن يتناول السيف العاشر ، وهذه السيوف لم تتكسر إلا على رقاب الأعداء وأجسامهم ..

ولقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون الجيش العائد .. وتحدث بعض الناس قائلين .. لهم : يافرار فررتم من القتال فى سبيل الله .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رد اعتبارهم قائلا : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله .. ووضع وساما باقيا على صدر خالد حين قال عنه : إن خالدا سيف من سيوف الله .. ومنذ ذلك الوقت أصبح خالد يطلق عليه : سيف الله المسلول .

لقد كانت نتيجة هذه المعركة رائعة بالنسبة للمسلمين .. فقد استفادوا منها كثيرا فى معرفة قوات الروم وأسلوب قتالها ، فأفادوا من ذلك فى قتالهم لهم بعد ذلك .. ولاتعد خسائر المسلمين الطفيفة فى الأرواح شيئا بجانب المزايا العسكرية التى أفادوها من الاطلاع على خواص قوات الروم وتنظيمها

وتسليحها وأساليب قتالها[١٢٢]

درس من مؤتة :

والآن بعد أربعة عشر قرنا من موقعة مؤتة أو تزيد ، ننظر الى واقعنا الأليم فنزداد حسرة وألما . .

لقد كان المسلمون وهم ثلاثة آلاف فى مواجهة مايقرب من مائة ألف ومع ذلك لم يجزعوا ولم يجبنوا ولم يضعفوا ولم يترددوا بل أقبلوا على عدوهم الكثيف العدد الكثير المدد ، القوى العُدَدِ ، بقلوب ثابتة ، وعقيدة راسخة ، ويقين صادق . .

ومع ذلك لم يضعف هذا الايمان بقتل الأمير الأول ثم الثانى ثم الثالث . بل ازداد المسلمون حماسا وقوة . .

●● لقد كان المسلمون يقتحمون أبواب الشهادة فى نشوة بالغة وإقبال عجيب ، حتى يدخل الرعب الإلهى فى أفئدة كثير من المشركين ، دون أن يكون له سبب ظاهر فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير ويقتل منهم الكثير ، وهذا أمر يثير العجب والدهشة . . ولكن الدهشة كلها تزول والعجب ينتهى إذا تذكرنا مايفعله الإيمان بالله والاعتماد عليه واليقين بوعده فى نفوس المسلمين . . .

●● بل إن المدهش بالنسبة للمسلمين - إذا كانوا مسلمين حقا-ألا يكونوا كذلك والعجيب فيهم حقا أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد والعدة

---

(١٢٢) الرسول القائد ص ٢٩٥ وما بعدها

حساب فى أفكارهم .. إن هذا الحساب يجب أن يتلاشى الى جانب ماوعدهم الله به من نصر وتأييد ، أو جنة ونعيم خالدين .. فالمسلمون كما قال عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ لايقاتلون بعدد ولاعدة ولاكثرة ، وانما يقاتلون بهذا الدين الذى أكرمهم الله به .(١٢٣)

إننا نتحسر الآن على أنفسنا وقد وصل عدد المسلمين إلى الف مليون ومع ذلك فهم مهزومون فى كل ميدان ، مغلوبون على أمرهم تتحكم فى أقدارهم ومواردهم ومستقبلهم شعوب أجنبية وتستولى على أرضهم شراذم من آفاق العالم ، تطرد السكان المسلمين من مواطنهم لتقيم مكانهم مهجرين ولاجئين من مختلف الجنسيات واللغات . فهل هناك هوان أفظع من ذلك ، وكل ذلك تحت سمع العالم الذى يدعى الحرية والتحضر ..... بل وبموافقته ومشورته ..

إننا لو تدبرنا موقف المسلمين فى مؤتة وكيف أبلى الابطال فيها بلاءهم الحسن ، لاتخذنا من ذلك درسا يحرك فى نفوسنا الغيرة على أنفسنا وديننا ومجتمعنا .. ولنا ان ننظر الى موقف الابطال وتشوقهم الى الجنة ..

فقد روى ابن إسحاق قال : « ودع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الجيش عند خروجه من المدينة ، وفى تلك الأثناء بكى عبد الله بن رواحة فقالوا له : مايبكيك ؟ قال : أما والله ماأبكى فى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ آية من كتاب الله ـ تعالى ـ يذكر فيها النار ... وهى قول الله تعالى :

« وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا »(١٢٤)

---

(١٢٣) فقه السيرة ص ٢٧١ (١٢٤) سورة مريم ٧١

فلست أدرى كيف لى أن أصدر بعد الورود ؟

إنه الإيمان الحقيقى ، والشوق الى الجنة والخوف من النار ـ هو الذى أبكاه ـ إن هؤلاء الأبطال لاهم لهم إلا ماأعدوا أنفسهم له من طلب الآخرة والحرص على مافيها من سعادة فى الجنة . .

ومن أجل ذلك دانت لهم الحياة عن طريق حرصهم على الوت فى سبيل الله . . وعلينا أن نتدبر هذه الحكمة التى نبعت من صفوفهم : احرص على الموت توهب لك الحياة .

ثم انظر إلى هذه المعجزة الخارقة من معجزات المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين وقف ينعى أصحابه وعيناه تذرفان بالدموع .... لقد زوى الله له الأرض حتى أراه المعركة التى دارت مع هؤلاء الأبطال .

ثم إنه زكى خالد بن الوليد وهو واقف مكانه فقال : لقد أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم . .

كانت موقعة مؤتة جولة فى تاريخ الجهاد الاسلامى تبعته جولات أخرى قهرت الباطل وقضت على الشرك وقوضت حصون الكفر . .

وقد آن لنا الآن أن ننتقل معا إلى صفحة أخرى من صفحات هذا الجهاد المقدس لرفع كلمة الله . .

وهذه الصفحة وإن كانت ليست حربية إلا أن تأثيرها فى نشر الإسلام كان عظيما . . تلك هى مرحلة بعث الكتب والرسل الذين بعث بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مختلف الجهات يبلغون الملوك والامراء كلمة الله ويؤكدون عموم رسالة الإسلام ....

البعوث والكتب

- الإسلام دين لعموم البشرية
- لماذا اختار الله نبيا عربيا للرسالة العامة الخاتمة ؟
- ما المقصود بعالمية الإسلام ؟
- القرآن يؤكد عموم رسالة الإسلام .
- وجوب تبليغ رسالة الإسلام لعموم البشر .
- متى بدأ النبي إرسال الكتب والرسل إلى الملوك ؟
- كتاب الرسول إلى قيصر .
- محاورة بين قيصر والرسول الذى أرسل إليه .
- كتاب النبي إلى كسرى .
- كسرى وموقعة ذي قار .
- ديانة الفرس .
- كسرى يرفض كتاب رسول الله .
- كتاب النبي إلى النجاشي .
- صلاة الجنازة على النجاشي .
- كتاب النبي إلى المقوقس .
- حوار بين المقوقس والرسول الذى أرسل إليه .



الاسلام دين عالمى

فى خلال العام السابع الهجرى بدأ النبى - ﷺ - يبلغ دعوة الاسلام إلى شعوب الأرض فى خارج الجزيرة العربية عن طريق ملوكهم ورؤسائهم . . وتبليغ الدعوة إلى العالم أجمع هو محور هذه الرسالة العالمية التى اختارها الله للبشر جميعاً . . مصداقاً لقوله - تعالى -

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٨٥) ﴾ (١٢٥)

ولايمنع أن يكون النبى عربيا ثم هو فى الوقت نفسه رسول إلى العالم أجمع فقد جعل الله الأمة العربية أمة وسطا - قال تعالى . .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾ (١٢٦)

ولايمنع أن يكون النبى معتزاً بقوميته ثم هو فى الوقت نفسه يقدر قوميات الآخرين ، فالاعتزاز بالقومية إنما هو اعتداد بكرامة الانسان وصيانة لحقه ، وإحياء لمعانى الإنسانية فى الناس أجمعين .

---

(١٢٥) آل عمران ٨٥

(١٢٦) البقرة ١٤٣

قبل ألف وأربعمائة سنة بعث الله فى العالم الأرضى رجلا كان إماما للبشرية فى مثلها الأعلى ، ورسولا للإنسانية فى مقدمتها الحسنى .

ذلك هو محمد بن عبد الله ، النبى العربى ، رسول رب العالمين إلى جميع خلقه من عرب وعجم ، ومن بيض وسود ، ومن سادة ومستعبدين .

نبى عربى مبين .. ولكنه رسول رب العالمين إلى جميع بنى الإنسان ، وذلك هو مثال القومية الفاضلة ، وقوام الانسانية كما يتمثل فيها جميع بنى الانسان .

كان محمد بن عبد الله - ﷺ - راضى النفس بعروبته ، يحمد الله لأنه ولد يوم أعز الله العرب ونصرهم على دولة الأكاسرة التى طغت على حوزتهم واستباحت ماملكت من جوارهم . وكان يحب قومه ولايحب من يبغضهم ، فلايكره العرب إلا منافق ، ولايخلص فى عقيدته من لا يخلص فى رعايتهم وعرفان حقهم ، قال لصاحبه وحبيبه « سلمان الفارسى » : « ياسلمان لاتبغضنى فتفارق دينك » .

قال سلمان رضى الله عنه - : وكيف أبغضك وبك هدانا الله ؟

قال - صلوات الله عليه : تبغض العرب فتبغضنى »

وفى حديث عثمان ذى النورين : من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى » .

« كان النبى - ﷺ - يحب قومه ، ويحب أن يحبهم الناس ، ولكنه الحب الذى يعمل وينفع ويرفع من قدر قومه وإنسانية الآخرين .

« وهذا الحب هو الذى جمع شمل العرب وألف بين قلوبهم ، وأخرج من

أشتات قبائلهم أمة واحدة تهابها الأمم ، وتتلقى عنها رسالة الهداية باسم الله ، باسم رب العرب والعجم ، باسم رب العالمين ، باسم رب الانسان فى المشارق والمغارب »[١٢٧] .

.. لقد كانت البشرية قبل بعثة محمد ـ ﷺ ـ فى حاجة إلى رسالة عامة تنقذها مما كانت تتردى فيه من فساد وضلال وانحلال وانحراف عن الجادة ، وخروج على النهج الذى جاءت به الرسالات السابقة على الاسلام .

لقد كان العرب ـ مثلا ـ قبل الإسلام يزعمون أنهم يسيرون وفق شريعة جدهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكن ذلك قول يجانبه الصدق فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان حنيفا مسلما ، ولم يكن وثنيا مشركا . وقد زعم اليهود والنصارى أيضا أن إبراهيم منهم ، ولكن زعمهم هذا مردود عليهم ـ فما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ، ولكنه كان حنيفاً مسلماً ..

وقد تصدى القرآن الكريم للرد على هذه الافتراءات فقال : ـ

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[١٢٨]

---

(١٢٧) الاسلام دعوة عالمية للعقاد ص ١٠ ـ دار الهلال

(١٢٨) النحل ١٢٠ : ١٢٣

وقال :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨ ﴾[129]

لقد حرف العرب فى الجاهلية دين إبراهيم فجعلوا صلاتهم للأوثان وحولوا الحج والعبادة للأحجار والأنصاب . . . . . ولم يكن فى شريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ سجود لصنم أو دعاء له أو تقديم القرابين إليه أو وأد للأناث أو غير ذلك مما شاع بينهم . ولم يكن الانحراف عن الجادة فى الجزيرة العربية فحسب ، بل كان العالم كله من شرقه إلى غربه يضطرب بالفتن ويموج بالبلايا والمحن وتسوده شريعة الغاب وقانون القوة الغاشمة . . والأمم المختلفة وقود للحرب بين أمتين تسيطران على شعوب العالم ـ الفرس شرقا ، والرومان غربا . . وأرزاق العباد نهب لأولئك المسيطرين ، والكل عبيد لأولئك الجبارين ، وهم فى جبروتهم لايخشون نقمة الجبار يوم الدين .

---

(١٢٩) آل عمران ٦٥ : ٦٨

« والديانتان السماويتان الموجودتان فى ذلك الوقت قد سخرتها الشهوات لخدمة الطغاة المستبدين ، وحرفت الأهواء كتبهما بثمن قليل . . . . فكان العالم كله بحاجة إلى بعثة عامة شاملة ترفع المظالم عن المظلومين وتكبح جماح الظالمين ، وتنقى العقائد من الوثنية والشرك ، وتنزه الخالق عن الصاحبة والولد ، وعن أن يكون له كفوا أحد ، وتُطَمْئِن كل انسان على رزقه ، وتنشر الأمن والطمأنينة بين العباد وتعيد الحق إلى نصابه والعدل إلى محرابه »(١٣٠) .

لماذا اختير نبى عربى لهذه الرسالة العامة ؟

أما لماذا اختار الله لهذه الرسالة العامة نبيا عربيا ، مع أن الرسل فى هذه المنطقة كانوا من ذرية إسحاق أخى إسماعيل عليهما السلام ؟ . .

فلأن حكمة الله وفضله قد أرادا ذلك . . خصوصاً وأن بنى إسرائيل ـ كما يقول ـ الشيخ مصطفى الطير ـ كانوا قد تمردوا على شريعة الله جيلا بعد جيل .

ففى عهد موسى ـ عليه السلام ـ عبدوا العجل ، ولم يمض على إنجاء الله لهم من قبضة فرعون قليل من الزمن ، فبعد أن عبروا البحر الأحمر ، ورأوا بأعينهم كيف أغرق الله فرعون وقومه ، رأوا قوما يعبدون الأصنام فقالوا لموسى اجعل لنا أصناما نعبدها مثلهم ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك قائلا :

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ

---

(١٣٠) عطاء الرحمن من شريعة القرآن ـ الشيخ مصطفى الحديدى الطير ص ٥٤

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (١٣١)

ثم انتهزوا فرصة غيبة موسى فى مناجاة ربه فاتخذوا من حليهم عجلا جسدا له خوار وسجدوا له من دون الله ،

وانساقوا بعد موسى فى تيار الوثنية مع الشعوب المجاورة لهم ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل تطاولوا على أنبيائهم وقتلوهم . .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١٣٢)

وقد بينا ذلك تفصيلا فى موضعه من قصة سيدنا موسى مع بنى إسرائيل .

ومن أجل هذا الانحراف فى طباعهم وأخلاقهم كان الله يتعهدهم بإرسال الرسال والأنبياء إليهم ، لوعظهم وإرشادهم وردهم إلى سواء السبيل . . . وكان آخر هؤلاء الأنبياء الذين أرسلوا إليهم عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ .

---

(١٣١) الأعراف ١٣٨ : ١٤٠

(١٣٢) آل عمران ١١٢

ولم يزل الانحراف عن التعاليم السماوية سائداً حتى قالت اليهود : ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

« لهذا فَقَد بنو إسرائيل الصلاحية لجعل الرسالة العامة فيهم ، فاختار الله ـ تعالى ـ لها أمة شديدة العزم قوية البأس ، وقوما صلاب الإرادة . . . . . . فقراء لكن لايبطرهم الغنى إذا جاءهم ، ولايستحوذ عليهم الغرور إذا نصروا على الناس ، ولايبعثهم على الصلف أن رسالتهم هى الرسالة العامة ، وأن رسولهم هو خاتم الرسل . .

وتتمثل هذه الأمة الرشيدة فى أحفاد اسماعيل الغر الميامين ، حراس البيت الحرام الذى بناه إبراهيم وابنه اسماعيل ليكون مثابة للناس وأمنا ، وليكون كعبة للرسالة الخاتمة .

« واختار الله من هذه الأمة واحداً من أنضر أرومة فيهم ، وأعرق مجد فى أنسابهم . أراد الله له أن يذوق اليتم فى طفولته ليعظم إحساسه بآلام البشر . . . . إنه لا يعرف الألم إلا من ذاق طعمه .

وقد رباه ربه على أرفع السجايا وأطهر الأخلاق ، ومنحه قوة الصبر والاحتمال على محن الحياة ، ليستطيع القيام بعبء هذه الدعوة الجسيم . . ذلك هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب حفيد إسماعيل ، ودعوة إبراهيم وبشرى الأنبياء المتتابعين . . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً

﴿لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (١٣٣)

المقصود بعالمية الإسلام ..

من أجل عالمية هذا الدين العظيم الذى اختاره الله للبشر جميعاً ـ اختار الله له هذا النبى الكريم ـ ﷺ ـ

ولكن ماذا تعنى عبارة عالمية الدين ..

إنها تعنى أن الدين لايختص بجنس دون جنس ، أو بإقليم دون إقليم ، أو بجيل دون جيل ، أو بعصر دون عصر .

بمعنى أن يكون صالحاً لكل زمان ومكان . . . . أو بمعنى آخر ـ أن يكون الدين شريعة الانسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة التى لا تدخل فى ماهية الإنسان كإنسان . .

ولا يوجد دين من الأديان السماوية ، أو غير ذلك من القوانين الوضعية فيه من المواصفات الخلقية والقوانين السماوية التى تجعله عالمياً إلا دين الاسلام .

فالديانتان السماويتان الكبيرتان اللتان سبقتاه ـ وهما اليهودية والنصرانية كانتا مخصوصتين بقومهما وبعصرهما .

---

(١٣٣) البقرة ١٢٧ : ١٢٩

« فاليهودية لا تصلح أن تكون دينا عالميا لأنها مرتبطة بشعب معين تعرض للتشريد غير مرة ، وتقوم حياته على العصبية الحادة والعنصرية الجامحة ، ذلك أنهم يحاولون أن يستأثروا بعبادة الله الذى وصفوه بأوصاف تجعله إلها لهم فقط .

وهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار وأن غيرهم أميون ، ويستبيحون من غيرهم مالا يستبيحون من أنفسهم كالربا ، فهل مثل هذا الدين يصلح أن يكون عالميا ؟

على أنه لا يوجد نص فى التوراة يتحدث عن هذه العالمية . . . . فهو دين أسرة بشرية واحدة هم بنو إسرائيل ، وهم يكرهون أن يدخل بينهم غير عنصرهم . يقول (جوليان ويل) حاخام باريس فى كتابه اليهودية : يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخول فى عهد إبراهيم ثلاث مرات ، لافتا نظره إلى الصعوبات التى سيصادفها ، والتكاليف الشاقة التى سيتحملها ، والأخطار التى سيتعرض لها .

ثم قال : ثم هذا التحفظ فى أمر طالبى التهود دعت إليه طبيعة اليهودية ونظامها الخاص الذى لايقصد به إلا الإسرائيلى بأدق معانى هذه الكلمة . . وأوجبه كذلك ما فى اليهودية من التكاليف الكثيرة التى يستدعى العمل بها الاتصاف بأمور معينة والعمل على تحقيق غايات معينة . .

وغاية ما يتمسك به اليهود فى إدعاء عموم رسالتهم ما يزعمون من أنه ورد فى كتابهم أن بنى إسرائيل سيكونون مربين للشعوب القوية ، وأنه قبيل قيام الساعة سيتفق العالم كله على عبادة الله اتباعا لديانة بنى إسرائيل ، إذ

يكونون قد عقدوا مع الخالق عهداً جديداً ، فيضطر الناس إلى القيام عليه . ولكن هذا النص على فرض ـ صحته ـ يفهم منه أن دينهم لايصلح الآن ولا فى عهده الأول لقيادة البشر عامة ، بل سيكون ذلك على زعمهم قبيل قيام الساعة ـ على افتراض صحة هذه النصوص .

وأنى لها أن تكون صحيحة ، وقد حكم القرآن بأنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وبدلوا كتاب الله وغيروا معالمه ؟

لقد استبدلوا به تلموداً مملوءاً بالتعاليم الشاذة القائمة على الفساد والإفساد ، ليبسطوا نفوذهم على العالم كله بأية وسيلة مهما كانت . .

ولو نظرنا إلى المسيحية لوجدنا أنها تنادى بالزهد البالغ والرهبانية الشديدة ، وتحرم الأغنياء أن يدخلوا ملكوت السموات . .

على أن سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ بدأ دعوته ببنى إسرائيل خاصة كما جاء فى إنجيل متى وهو يقص محاورة المرأة الكنعانية لعيسى ـ وهى غير إسرائيلية ـ فأجاب عيسى وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة .

. . فليس فى المسيحية نص على عالميتها ، وما نشطت الدعوة إليها إلا بعد اعتناق الرومان لها ، وقد بقيت نحو ثلاثة قروق محصورة فى طوائف مبعثرة ، ولم تقم لها دولة إلى أن تولى قسطنطين الأول الامبراطورية الرومانية ، وكانت أمه قد ربته على المسيحية فحمل قومه عليها . ومن ذلك الحين قام النصارى بإرسال بعثات التبشير إلى البلاد النائية . بعد أن أعلن قسطنطين النصرانية

دينا رسمياً للبلاد سنة ٢٧٤ ـ ٣٣٧ م وحطم الهياكل والمعابد الوثنية[١٣٤]

وإذا كان هذا شأن هاتين الديانتين فى عدم صلاحيتهما للعالمية ، فأولى بذلك بقية الأديان والدعوات الأخرى .

القرآن يؤكد عموم رسالة النبى

لقد ذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خصائص رسالته أنه أرسل إلى الناس كافة ، وفى ذلك يقول : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة العظمى ، وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[١٣٥]

وستأتى أحاديث أخرى تظاهر هذا الحديث وتؤكده ، ولكننا ذكرنا هذا الحديث فى المقدمة لأنه يشير إلى ما ورد فى القرآن الكريم من آيات بينات تتحدث عن عموم رسالة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الناس جميعاً ، وإلى أنه من المحتوم عليه بناء على ذلك أن يقوم بابلاغها . .

فمن ذلك قوله ـ تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ

---

(١٣٤) الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه ـ الشيخ عطية صقر ص ١٠ ومابعدها .

(١٣٥) أخرجه الإمام البخارى عن جابر بن عبد الله ـ كتاب التيمم ـ والحديث متفق عليه

﴿ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١٣٦)

وقد جاءت هذه الآية بعد آية تُذَكِّر بنى إسرائيل بأن الله مرسل رسولا أمياً يجب عليهم أن يتبعوه ويؤمنوا به وأورد لهم صفته ـ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (١٣٧)

فقوله ـ تعالى لنبيه :

« قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »

---

(١٣٦) الأعراف ١٥٨

(١٣٧) الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧

أمر من الله تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغ دعوته لجميع البشر ، من العرب والعجم ، وبيان بأن رسالته ليست خاصة بقومه . . .

وقد ورد فى القرآن الكريم آيات أخرى تحمل هذا المعنى ، مثل قوله ـ تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١٣٨)

وقوله ـ تعالى :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (١٣٩)

وقوله ـ تعالى :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١٤٠)

وهذه الآية تشير إلى وجوب تبليغ الرسالة إلى كل الخلق حتى يطوى الله الأرض ومن عليها .

وهذا مثل قوله ـ تعالى :

« وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »

أى من بلغه القرآن فى أى زمان ومكان .

---

(١٣٨) سبأ ٢٨

(١٣٩) الفرقان ١

(١٤٠) يس ٦٩ ، ٧٠

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ (١٤١)

وواضح أن أم القرى هى مكة ، أما من حولها فهم الناس جميعا فى مختلف الأقطار ، لأنهم حول مكة التى هى قطب العالم ، وهى بالنسبة للقرى قلبها ووسطها ، فكل حى على وجه الأرض مقيم حول مكة ، فهى مركز الدائرة ، وقطرها ممتد بين كل نقطتين على المحيط العالمى .

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١٤٢)

إشارة إلى أثر هذه الرسالة العالمية فى العالم أجمع ، فهى التى تنقذهم من الضلالة وترشدهم إلى الحق ، وتأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة الواسع ، فأى رحمة أعظم من ذلك ؟

وكتاب الله الذى هو دستور هذه الرسالة ، ليس كتابا خاصا بالعرب ـ وإن كان عربيا ـ ولكنه كتاب للناس أجمعين على اختلاف لغاتهم وأجناسهم

قال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١٤٣)

وقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٤٤)

---

(١٤١) الشورى ٧

(١٤٢) الأنبياء ١٠٧

(١٤٣) القلم ٥٢

(١٤٤) التكوير ٢٧

وهذا يبين أن الله اختار اللغة العربية لسانا لتبليغ هذه الدعوة فى أرجاء الأرض ، بدليل أنه لاتقبل صلاة أحد ـ وهى الشعيرة الأساسية فى الاسلام التى تمارس يوميا خمس مرات ـ إلا بتلاوة آيات من القرآن الكريم باللغة التى نزل بها .

وإذا كانت الآيات التى استشهدنا بها مكية فهناك آيات مدنية تشير إلى عالمية هذه الرسالة وتؤكد وجوب تبليغها إلى مختلف الأمم وأتباع الديانات الأخرى . .

فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١٤٥)

وقوله

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن

(١٤٥) المائدة ٤٨

يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١٤٦)

فقد جاء القرآن ليهيمن على ما سبقه من كتب ، ووجب أن يكون هديه وحكمه هو الذى يَدين به الجميع .

وقد دعا القرآن كلا من اليهود والنصارى إلى أن يقبلوا عليه ويستمعوا إلى ما جاء به من أحكام ويؤمنوا بشريعته التى أرسل بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١٤٧)

وأمر القرآن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغ أهل الكتاب دعوة الإسلام صريحة دون مواربة فقال له :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١٤٨)

---

(١٤٦) المائدة ٤٩ ، ٥٠

(١٤٧) آل عمران ٦٤

(١٤٨) آل عمران ٢٠

وأمره كذلك أن يبين لهم انحرافهم عن الدين الحق - وهو الذى سبق أن جاء به إبراهيم - عليه السلام - وقد جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - ليصحح هذا الانحراف ، ويعدل هذا الاتجاه ، ويرد عليهم مزاعمهم الباطلة التى زعموها .. يقول الله - تعالى :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) ﴾ (١٤٩)

ثم أعلنها لهم صريحة لامواربة فيها فقال لهم :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ (١٥٠)

وأعلمهم أن الله مظهر دينه على سائر الأديان ، مهما استعلت كلمة الكفر

---

(١٤٩) البقرة ١٣٥ : ١٣٨

(١٥٠) آل عمران ٨٥

وأعلنت العصيان قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾ (١٥١)

وقال

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨ ﴾ (١٥٢)

ولقد ذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رسالته عامة ، وأشار فى أحاديث متعددة رواها الثقات إلى أنه مبعوث للعالم أجمع ـ وأحاديثه هى المبينة والمفسرة لما جاء فى القرآن الكريم مجملا ، ومهمتها تفصيل موجزه وبيان مجمله

وقد سبق أن ذكرنا حديثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يقول فيه : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى . . . » ومن بين تلك الخمس عموم رسالته .

ويضاف إلى ذلك أيضا ماورد فى خطبه وكتبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من إشارات الى رسالته العامة . فمن ذلك قوله :

« كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود » .

وفى إحدى خطبه قال : « إنى رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة »

---

(١٥١) التوبة ٣٣

(١٥٢) الفتح ٢٧

وفى إحدى رسائله : « فإنى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين »

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون .

ولاتختم الرسالة إلا بنبى تدوم رسالته وتعم سائر الممالك والأقطار ، وروى البخارى ومسلم عنه ـ صلى الله عليه وسلم . أنه قال : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأكمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين . .

وفى هذا الحديث دليل على أن هذه الرسالة لم تترك ثغرة لمستكمل ، أو فرصة لمستدرك ، فهى رسالة كاملة شاملة صالحة لكل زمان ومكان . .

وجوب تبليغ هذه الدعوة لعموم البشر :

فقد وجب إذن تبليغ هذه الرسالة الخاتمةالى جميع البشر ، وقد شمَّر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالفعل عن ساعد الجد فى ذلك ـ كما ذكرنا وكما سيأتى ـ وهذا الوجوب مستمر إلى يوم القيامة بنص القرآن الكريم . .

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (١٥٣)

---

(١٥٣) آل عمران ١٠٤

ذلك أن الناس كلما ابتعدوا عن التعاليم السماوية ازداد اقترابهم من الوثنية والجهالة التى كانت متفشية قبل الاسلام . وهانحن أولاء نرى مظاهر ذلك واضحة فيما حولنا .

فقد انتشرت التيارات الالحادية ، والشبه العقلانية ، والعلمانية وظهرت دعاوى كثيرة تغرى الانسان بالبعد عن الله ، وتصم الدين بوصمات من الجهل والتخلف وتسم المدينين بميسم الغفلة ، والبلادة وعدم مسايرة العصر ، إلى غير ذلك مما هو شائع وواضح .

ولئن كان العداء للاسلام قديما قد ظهر فى مقاومته بالقوة والوقوف فى وجه انتشاره بالسيف ، وتجريد الحرب ضده فى الأماكن التى انتشر فيها ـ فإن العداء الحديث قد ظهر فى صورة أخرى أشد ضراوة من الحرب المعلنة . ظهر فى صورة التبشير الذى رصد الكثير من الوسائل والامكانات المادية التى يحاول بها أن يقضى على الدعوة الاسلامية فى الشعوب التى تعتنقها منذ مئات السنين . .

وبدلا من أن يوجه التبشير المسيحى جهوده إلى محاربة الوثنية ، بذل هذه الجهود فى محاولة تحويل المسلمين عن دينهم وسلخهم عن شخصيتهم . وهدف التبشير الآن موجه إلى تشكيك المسلم فى دينه ولايهمه بعد ذلك أن يقبل على أى دين آخر . ويعد المبشر نفسه ناجحا إلى أقصى حدود النجاح لو استطاع أن يبذر الشبهات والشكوك فى نفس الضحية التى يستهدفها ، واذا ضعفت الثقة فى نفس المتدين بالنسبة الى دينه ، فقد ضاع منه كل شىء . إن الانسان فى ظل دينه آمن مطمئن واثق قوى ، ولكنه بدون ذلك خائف

ضائع تائه مشرد . . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى قوله ـ تعالى ـ على لسان إبراهيم عليه السلام ـ

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

فيجب علينا أن ننتبه ونتيقظ ونعرف واجبنا نحو هذا الدين الحنيف ونتابع الدعوة اليه ونرد على الشبه التى يثيرها هؤلاء الأعداء بغية زعزعة العقيدة فى نفوس المسلمين . كما يجب علينا أن نقف بالمرصاد لحركات التبشير الضارية التى يقوم بها الأعداء بوسائل فى منتهى الدناءة والخبث .

هذه واحدة . أما الأخرى فانه فى هذا العصر قد انتشر الالحاد وتجددت لأهل الباطل على اختلاف فرقهم شبهات جديدة يتكئون فيها على مسائل من العلوم العصرية لم تكن معروفة من قبل . . وقد أثار ذلك انتشار المادية وفوضى الآداب وتدهور الأخلاق وتغلب الرذائل على الفضائل ، وظهور

---

(١٥٤) الأنعام ٨٠ : ٨٢

الفساد فى أفظع صورة . مما أوجب ضرورة الدعوة للعودة الى تعاليم الاسلام التى تأخذ بأيدى الناس الى الحياة السعيدة النظيفة التى تقيم بنيان المجتمع على أسس من الخير والفضيلة التى يولدها الايمان بالله واليوم الآخر . .

بعد هذا التقديم الذى لابد منه . نرى لزاما علينا أن نوضح للقارىء كيف استجاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمر ربه حين قال له

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١٥٥)

وقد جاء بعد هذه الآية مباشرة قوله ـ تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١٥٦)

وتجاور الآيتين يوحى بأن الأمر بالتبليغ ليس قاصرا على أمة العرب بل هو شامل للعرب وغيرهم ـ كما سبق بيانه ـ وإذا كان أهل الكتاب مدعوين الى الايمان بالرسالة الخاتمة ـ فغير أهل الكتاب أولى بالدعوة إلى الايمان بها . .

متى أرسل النبى كتبه ورسله الى الملوك والأمراء ؟

ذكر ابن سعد فى طبقاته أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رجع من

---

(١٥٥) المائدة ٦٧

(١٥٦) المائدة ٦٨

الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب إليهم كتبا ، وقد قال له بعض أصحابه : يارسول الله ، إن الملوك لايقرءون كتابا إلا إذا كان مختوما ، فاتخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ خاتما من فضة ، نقش عليه ـ محمد رسول الله ـ وختم به الكتب . . . . . فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد . وذلك فى المحرم سنة سبع . وكان كل رجل منهم يعرف لسان القوم الذين بعثه اليهم(١٥٧)

لقد كانت لغة هذه الكتب هى اللغة العربية ، وهى لغة كتاب هذه الدعوة وقد قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾(١٥٨)

قال المفسرون : لاحجة للعجم وغيرهم فى هذه الآية لأن كل من ترجم له ماجاء به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترجمة يفهمها لزمته الحجة . . قال الله تعالى ـ

« وماأرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ٣٨ سبأ »

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وكان كل نبى يرسل الى قومه خاصة وأرسلنى الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه » وقال : « والذى نفسى بيده لايسمع بى أحد من الناس يهودى ولانصرانى لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »(١٥٩)

---

(١٥٧) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ٢ ص ١٥

(١٥٨) ابراهيم ٤

(١٥٩) أخرجه مسلم . وراجع تفسير القرطبى فى الآية المتقدمة .

وقد فهم العلماء من الآية السابقة أن اللغة العربية ستسود وتنتشر حتى تصبح لغة الشعوب التى تدين بالاسلام ـ وهذا ماحدث فعلا ـ فى مصر والشام وأفريقيا وفارس وغيرها من الدول التى اعتنقت الاسلام . وبذلك اتفق لسانها مع لسان ذلك الرسول الذى نزل عليه القرآن .

قال صاحب تفسير المنار : ومما يدخل فى شأن اتِّباعه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تعلم لغته التى هى لغة الكتاب الالهى الذى أوحاه الله ـ تعالى ـ إليه ، وأمر جميع من اتبعه ودان بدينه أن يتعبد به وأن يتلوه فى الصلاة وغير الصلاة مع التدبر والتأمل فى معانيه ، وذلك يتوقف على إتقان لغته وهى العربية . . فالمسلمون يبلغون الدعوة لكل قوم بلغتهم حتى إذا ماهدى الله من شاء منهم ودخل فى الاسلام علموه أحكامه ولغته ، وكذلك كان يفعل الخلفاء والفاتحون فى حيز القرون ومابعدها . الى أن تغلبت الأعاجم على العرب وسلبوهم الملك فوقفت الدعوة إلى الإسلام وضعف العلم بالعربية »(١٦٠)

وقد أوجب الفقهاء على المسلمين من مختلف الأمم تعلم اللغة العربية لفهم القرآن الذى نزل بها . .

والحكمة فى نزول القرآن باللغة العربية هى بيان أفضلية هذه اللغة ووجوب تعلمها على كل مسلم حتى يستطيع أن يقيم صلاته على الوجه الأكمل والصلاة هى رأس العبادات كما نعلم . .

ولنعد إلى هؤلاء الرسل الذين بعثهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم

---

(١٦٠) انظر تفسير المنار ج١ ص ٢٦٤ ط الهيئة المصرية للكتاب .

عرب خلص إلا أنهم كانوا على دراية بمعرفة لغة الأقوام الذين أرسلوا إليهم .

على أن عدم معرفتهم بلغات من أرسلوا اليهم لايحول دون تبليغ الرسائل فان للملوك مترجمين يحيطون بهم ، وقد جاء فى خبر كتاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هرقل عندما سلمه إليه دحية بن خليفة الكلبى ـ أن هرقل دعا الترجمان وأمره أن يقرأ الرسالة .

وعلينا أن نلاحظ الدقائق الآتية ـ التى تنبه لها فضيلة الشيخ عطية صقر ـ فى هذه الرسائل المرسلة للملوك والأمراء فى خارج الجزيرة العربية .

أولا : أنها كتبت باللغة العربية وهى اللغة الرسمية للجهة المرْسِلة ، وفى ذلك ضمان أكيد لدقة التبليغ بالمعنى الذى يريد المبلغ ، حتى إذا حدث خطأ فى الترجمة كانت التبعة على المترجم لا على الكتاب ولاعلى مرسله . وكثيرا ماتحدث مشكلات كثيرة من جهة الخطأ فى الترجمة وفى الرجوع الى النص الأصلى فيصل الموضوع .

ثانيا : أن كتب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى هؤلاء الملوك كانت على خلاف كتبه الى أمراء العرب ، فقد ختمت بخاتم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان نقش الخاتم « محمد رسول الله » كما رواه البخاري ـ ولهذا الخاتم أهميته فى الوثوق من رسمية الكتاب وصدوره عن مرسله ، وفيه تكريم لهؤلاء الكبار على ماكان متبعا عندهم .

ثالثا : اتبع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إرسال هذه الكتب طريقا

يتسم بحسن التصرف وعظمة التفكير . . إذ بعث بها إلى ممثلى هؤلاء الملوك فى بلاد العرب ليكونوا وسطاء فى توصيلهاالى الملوك ، وهو تقليد يجرى عليه العرف الحديث اتبعه الرسول ـ صلى الله على وسلم ـ منذ قرون . .

رابعاً : أن النقط الجوهرية التى دعت إليها هذه الكتب هى التوحيد والايمان برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا ترتيب طبيعى فى الدعوة ، يبدأ فيها بالأصول والمبادىء الأساسية ، فإذا حصل التصديق بها بينت الفروع بعد ذلك .

خامساً : كانت الدعوة إلى الملوك دعوة إلى العالم كله أو إلى غالبه . . بوصف هؤلاء الملوك ممثلين للشعوب التى يحكمونها ، والأجناس التى تعيش تحت ظلهم ، وقد كانت لفارس مستعمرات تحتها أجناس ، وللروم كذلك مستعمرات كثيرة متعددة ، وكان للحبشة نفوذ فى البلاد التى تجاورها ـ وكان يُحمِّل المرسل إليهم التبعة فى تبليغ شعوبهم تلك الدعوة . .

سادساً : ضمن كتابه لهرقل آية كريمة هى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾[١٦١]

وفى ذلك دعوة إلى المساواة ورفع لكرامة الانسان ، ودعوة إلى عدم خضوع أحد لأحد ، وبعد عن الاستعلاء أو التحكم .

---

(١٦١) ال عمران ٦٤

وفى ذلك أيضاً تقليد حسن رائع أساسه الدعوة إلى السلام والاحترام المتبادل بين الأمم[١٦٢] . .

تحذير من الاختلاف

حين عزم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء خرج على أصحابه يوماً فقال : أيها الناس إن الله بعثنى رحمة للعالمين كافة ، فأدُّوا عنى ـ رحمكم الله ـ ولا تختلفوا علىَّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ

فقالوا : سمعنا وأطعنا يا رسول الله .

وقد بلغت وصية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبلغها من القوم ، فما حدث أن تمرد رسول على الجهة التى أرسل إليها ، بل كل منهم قبل المهمة التى وجه إليها بصدر رحب ، ومضى الى وجهته مستبشراً مسروراً .

وقد أحسن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اختيار رسله ، وكلهم كانوا من ذوى اللباقة وحسن التصرف ، وسنرى طرفاً من ذلك حين نعرض لأخبارهم . . وحسن اختيار الرسول يغنى المرسِل والمرسَل إليه عن هموم كثيرة . وقد صدق القائل :

إذا كنت فى حاجة مرسلًا   فأرسل حكيماً ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى   فشاور لبيباً ولا تعصه

وهذه هى أهم الكتب والرسائل التى بعث بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١٦٢) الدين العالمى ص ٥٩

كتابه - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل

كان رسول النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل قيصر الروم - هو دحية بن خليفة الكلبى - الذى كان جبريل - عليه السلام - يأتى فى صورته أحياناً بالوحى . .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد قال لأصحابه : من ينطلق بكتابى هذا فيسير إلى هرقل وله الجنة ؟ فقالوا : وإن لم يصل ؟ قال : وإن لم يصل .

فقال دحية : أنا .

وأمره النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يدفع الكتاب إلى الحارث بن أبى شمر - ملك غسان - ليدفعه الى هرقل .

وسار دحية حتى وصل إلى الحارث فأرسل الحارث معه عدى بن حاتم ليوصله إلى قيصر . فذهب به إليه .

وقال له القوم : إذا رأيت الملك فاسجد له ، ثم لا ترفع رأسك حتى يأذن لك .

قال دحية : لا أفعل ذلك أبداً ولا أسجد لغير الله .

قالوا : إذن لا يأخذ كتابك .

فقال له رجل منهم : أنا أدلك على أمر يجعله يأخذ كتابك دون أن تسجد له .

قال دحية : ما هو ؟

قال له : إن للقيصر على كل عتبة منبراً يجلس عليه ، فضع صحيفتك

تجاه المنبر فإن أحداً لا يحركها حتى يأخذها هو ثم يستدعى صاحبها .

فقبل دحية ذلك .

وأخذ قيصر الكتاب فوجد عليه عنوان كتاب العرب . فدعا الترجمان الذى يقرأ بالعربية وأمره بقراءته . فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى قيصر عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعوة الاسلام أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين (١٦٣) .

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

قال قيصر : انظروا لنا مِنْ قومِ هذا الرسول أحداً نسأله عنه .

وكان أبو سفيان بن حرب فى تجارة بغزة ، مع رجال من قريش ، وذلك فى أثناء هدنة الحديبية .

فإذا برسل قيصر يطلبون أبا سفيان ، فانطلقوا به هو ومن معه إلى قيصر . وكان فى بيت المقدس .

ويحكى أبو سفيان قصة لقائه بقيصر . فيقول :

قدمنا عليه فإذا هو جالس وعليه التاج ، وعظماء الروم حوله .

فقال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسباً لهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟

---

(١٦٣) أخرجه البخارى عن ابن عباس . والإريسيين : جمع إرِّيس الفلاح والأجير

فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً إليه ، لأنه لم يكن فى الركب يومئذ من بنى عبد مناف غيره .

فقال له قيصر : ادن منى . . . . يقول أبو سفيان . . . . ثم أمر بأصحابى فجعلوا خلف ظهرى ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه : إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، وإنما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه الكذب إن قاله .

ثم قال قيصر لترجمانه : قل له : كيف نَسَبُ هذا الرجل فيكم ؟

قلت : هو منا ذو نسب .

قال : قل له : هل قال هذا القول أحد قبله ؟

قلت : لا

قال : قل له : هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا

قال : قل له : هل كان من آبائه ملك ؟

قلت : لا

قال : قل له : كيف عقله ورأيه ؟

قلت : لم نعب عليه عقلاً ولا رأياً .

قال : قل له : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : قل له : فهل يزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : قل له : فهل يرتدُّ أحد منهم سخْطةً لدينه ؟

قلت : لا

قال : فهل يغدر إذا عاهد ؟

قلت : لا . . . . . . ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

قال : فهل قاتلتموه ؟

قلت : نعم .

قال : فكيف حربكم وحربه ؟

قلت : دُوَل وسجال ، ندال عليه مرة ويدال علينا أخرى ـ وفى لفظ قال أبو سفيان : انتصر علينا مرة يوم بدر وأنا غائب ، ثم غزوتهم يوم أحد وانتصرت عليهم .

قال : فما يأمركم به ؟

قلت : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدقة .

وفى لفظ : جمع بين الصدق والصدقة والعفاف ـ أى ترك المحارم وخوارم المروءة ـ ويأمرنا بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

فقال قيصر لترجمانه : قل له :

إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها . .

وسألتك : هل هذا القول قاله أحد منكم قبله ؟ فقلت لا . . فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأتَمُّ بقولٍ قيل قبله .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا فعرفت أنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى .

وسألتك : هل كان من آبائه ملك ؟ فقلت : لا ، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

فقلت : ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل ـ ذلك أن أتباع الرسل هم أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار ـ

وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون . وكذلك الإيمان حتى يتم .

وسألتك : هل يرتد أحد منهم سَخْطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، إذا حصل به انشراح الصدور ، والفرح به لا يسخطه أحد .

وسألتك : هل قاتلتموه ؟ قلت : نعم ، وقلت : إن حربكم وحربه دُوَل وسجال ، يدال عليكم مرة وتدالون عليه أخرى ، وكذلك الرسُل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

وسألتك : ماذا يأمركم به ؟ فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا . . . وكذلك الرسل لا تغدر ـ لأنها لا تطلب حظ الدُّنيا الذى لا يناله

طالبه إلا بالغدْر ـ فعلمت أنه نبى . . . . . . وقد كنت أعلم أنه يبعث ، ولكن لم أظن أنه فيكم . وإن كان ما حدثتنى به حقاً فيوشك أن يملك موضع قدمى هاتين . ثم قال قيصر : ولو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت ـ تكلفت مع المشقة ـ لقاءه ، ولكنى لا أستطيع أن أفعل ، إن فعلت ذهب ملكى وقتلنى الروم .

قال أبو سفيان : فلما قضى قيصر مقالته ارتفعت الأصوات وكثر الصخب ، فلا أدرى ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا . فلما خرجت أنا وأصحابي وخلصت قلت لهم : لقد عظم أمْر ابن أبي كبشة[١٦٤] ، هذا ملك بنى الأصفر يخافه . فمازلت موقنا أن سيظهْر حتى أدخل الله علىّ الاسلام . .

لم يجد أبو سفيان فى حواره مع الملك فرصة ينال فيها من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أنه حاول أن يغمز بالتخوف من نقض العهد حين قال : ونحن الآن معه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

كما أنه حاول ـ فى بعض روايات هذا الحوار أن يشكك القيصر فى بعض معجزات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد قال أبو سفيان حين سأله قيصر عن النبى : هل يكذب ؟ قال : لا ، ولكنى أخبرك عنه أيها الملك خبراً .

قال الملك : ما هو ؟

---

(١٦٤) أبو كبشة كنية تطلق على وهب والد آمنة بنت وهب أم النبى ـ ﷺ ـ وتطلق أيضا على زوج مرضعته حليمة السعدية . فكانوا يقولون للنبى ـ ﷺ ـ : ابن أبي كبشة لذلك .

قال : إنه يزعم أنه خرج من أرضنا ـ أرض الحرم ـ فى ليلة فجاء مسجدكم هذا ورجع إلينا فى تلك الليلة قبل الصباح . . . . . وقد هيأ الله للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يؤكد لقيصر صدق هذا الأمر .

فقد قال بطريق من البطارقة الذين كانوا حاضرين :

صدق أيها الملك . .

فنظر قيصر إليه وقال : ما أعلمك بهذا ؟

قال البطريق : إنى كنت لا أنام ليلة أبداً حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة ـ أى التى يشير إليها أبو سفيان ـ أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى ، فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول جبلاً ، فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا : لا نستطيع أن نحركه حتى نصبح .

فلما أصبحت جئت إليه فإذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة ـ أى البراق ـ

فقلت لأصحابى : ما امتنع هذا الباب الليلة إلا لهذا الأمر .

فقال قيصر لقومه : يا قوم ، ألستم تعلمون أن بين يدى الساعة نبياً بشركم به عيسى بن مريم . . . . ترجون أن يجعله الله فيكم ؟

قالوا : بلى .

قال : فإن الله قد جعله فى غيركم ، وهى رحمة الله ـ عز وجل ـ يضعها حيث يشاء .

ثم أمر بإنزال دحيه وإكرامه . .

ويقال : إن قيصر عرض الإسلام على قومه فأبوا أخرج البخارى : أن هرقل لما سار إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكرة ـ قصر ـ له ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يامعشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ؟ وأن يثبت ملككم ؟ تبايعوا هذا النبى . . .

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت .

فنفروا منه وقالوا له : أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيداً لهذا الأعرابى ؟

فلما رأى قيصر نفرتهم ويأس من إيمانهم قال : ردوهم علىّ . . فلما رجعوا قال لهم : إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم ـ وقد رأيت ـ فسجدوا له ورضوا عنه .

عند ذلك كتب قيصر كتاباً وأرسله مع دحية إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فيه : إنى مسلم ولكنى مغلوب ، وأرسل بهدية إلى رسول الله . . . . فلما قرىء رد قيصر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كذب عدو الله ، ليس بمسلم . وقسم هديته بين المسلمين .

والدليل على أن قيصر كاذب فى ادعائه الإسلام محاربته المسلمين بعد ذلك فى مؤتة ـ

لقد خاف قيصر ، كما يقول الحافظ بن حجر ـ وآثر العافية على العاقبة .

رسالة أخرى لقيصر

وروى عن أنس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب لقيصر كتاباً آخر

وهو فى تبوك يدعوه إلى الإسلام ، وأن قيصر قارب الإجابة ولكنه لم يجب . . وسيأتى أن الذى حمل هذا الكتاب هو دحية أيضاً ، وحدثت بينه وبين قيصر محاورة سوف نعرض لها . .

وذكر الإمام أحمد فى مسنده أن هرقل كتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إنى مسلم .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كذب ـ إنه على نصرانيته .

وقد أرسل قيصر رسالة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى تبوك . وجاء حامل الرسالة فسأل عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجده بين أصحابه جالساً . فقال : أين صاحبكم ؟ فأشاروا له الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس بين أصحابه لا يتميز عنهم فى مجلس أو شارة ، بل هو كأحدهم .

فأقبل رسول قيصر حتى جلس بين يديه ، وناوله الرسالة ، فوضعها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجره . ثم قال للرسول : من أنت ؟

قال : أنا رسول قيصر

قال له : هل لك فى الاسلام دين الحنيفية ملة إبراهيم ؟

قال : أنا رسول قوم وعلى دينهم ، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم .

فضحك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقرأ قول الله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١٦٥)

---

(١٦٥) القصص ٥٦

وقرأ النبى ـ الكتاب ـ أى قرأه بعض أصحابه عليه ـ فلما فرغ من القراءة قال للرسول : إن لك حقاً ، وإنك رسول مَلِك ، ولو كان عندنا ما نهديه لك فعلنا . .

فقال عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ أنا أعطيه يا رسول الله . . . . . فأتى بحلة فوضعها فى حجره[١٦٦] .

ويقال : إن قيصر احتفظ برسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى كان قد أرسلها إليه ـ تكريماً لها . فقد ذكر الرواة ـ أن هرقل وضع الكتاب فى قصبة من ذهب تعظيماً له .

وحين أرسل الملك المنصور قلاوون بعض أمرائه إلى ملك المغرب بهدية ، فأرسله ملك المغرب إلى ملك الفرنجة فى شفاعة ـ أكرمه وقال له : لأتحفنك بتحفة سنية ، فأخرج له صندوقاً مغلفاً بالذهب ، وأخرج منه مقلمة ـ وفى لفظ قصبة من ذهب ـ فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه ، وقد ألصق عليه خرقة من الحرير . فقال : هذا كتاب نبيكم لجدى قيصر ، مازلنا نتوارثه حتى الآن ونحفظه غاية الحفظ ونعظمه[١٦٧] .

محاورة بين دحية وقيصر

وكان دحية عاقلاً لبيباً فى عرضه رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قيصر . فقد ذكر الهيل فى الروض الأنف أن دحية قال لقيصر :

---

(١٦٦) السيرة الحلبية جـ٣ ص٢٩٠

(١٦٧) انظر المرجع السابق ـ والمواهب اللدنية نقلا عن الحافظ ابن حجر فى فتح البارى من حديث بدء الوحى وراجع فتح البارى ج١ ص ٥٧

يا ملك الروم أرسلني إليك من هو خير منك ، فاسمع منى ثم أجب بنصح ، فإنك إن لم تسمع لم تفهم ، وإن لم تنصح لم تنصف .

قال : هات

قال : هل تعلم أن المسيح كان يصلى ؟

قال : نعم

قال : فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلى له ، وأدعوك إلى من دبَّر خلق السموات والأرض والمسيح فى بطن أمه ، وأدعوك الى هذا النبى الأمى الذى بشر به موسى ، وبشَّر به عيسى بن مريم بعده ، وعندك من ذلك أَثَارة من علم تكفى وتشفى ، فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة ، وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت فى الدنيا .

واعلم أن لك رباً يقصم الجبابرة ويغير النعم .

قال : فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينيه ورأسه وقبله .

ثم قال : أما والله ما تركت كتاباً إلا وقرأته ، ولا عالماً إلا وسألته فما رأيت إلا خيراً .

فأمهلنى حتى أنظر فى هذا الأمر ، فأنى أكره أن أجيبك اليوم بأمر ارى غداً ما هو أحسن منه ، فأرجع عنه فيضرنى ذلك ولا ينفعنى ـ أقم حتى أنظر .. فلم يلبث أن أتاه وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم[١٦٨] ـ

وواضح أن هذا الحوار كان عند إرسال الكتاب الثانى الذى أرسله

---

(١٦٨) الروض الأنف ج٤ ص ٢٤٩

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هرقل فى أثناء غزوة تبوك ، لأن الكتاب الأول كان سنة سبع . .

فمن تبوك كتب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاباً وأرسله إلى قيصر مع دحية بن خليفة الكلبى أيضاً . .

وذكر بعض الرواة أنه حين وصل الكتاب إلى هرقل أمر منادياً ينادى . . ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه فدخلت الأجناد فى سلاحها وأطافت بقصره تريد قتله . فقال لهم : إنه أراد اختبارهم[١٦٩] . .

وعلى ذلك يمكن تفسير الأحداث التى صاحبت تصرف قيصر إزاء الكتب كما يلى :

أن الكتاب الأول هو الذى حدثت فيه المحاورة بينه وبين أبى سفيان . وقد يكون قيصر قد أظهر على أثره الميل إلى الاسلام ولكنه لم يستطع أن يعلنه .

وأن الكتاب الثانى هو الذى حدثت فيه المحاورة بينه وبين دحية ، وأظهر قيصر على أثره الاسلام ونادى به ، ولكنه تراجع عنه حين علم إصرار قومه على الكفر . . .

وعلى الرغم من استبانة الحق لهرقل ، فقد حارب الإسلام بكل شدة ، ومازال يقاوم الفتح الاسلامى حتى قُضِىَ على نفوذه تماماً فى الشرق العربى فى أيام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وخلصت الشام كلها للاسلام ،

---

(١٦٩) المرجع السابق ص ١٩٦

وأصبحت دمشق حاضرة الدولة الاسلامية فى العصر الأموى ، ومنها انطلقت الحضارة الإسلامية الى شتى بقاع العالم .

رسالة النبى إلى كسرى

حمل رسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - الى كسرى عبد الله بن حذافة السهمى . وهو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى من بنى سهم ، ولذلك يلقب بالسهمى ، ويكنى بأبى حذافة .

أسلم قديماً ، وصحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية مع أخيه قيس بن حذافة .... وهذه قصة عن عبد الله بن حذافة تشهد بقوة إيمانه وشدة تعلقه بدينه ..... نقدمها بين يدى ما نحن بصدده لندرك أيضاً من خلالها قوة إيمان عبد الله ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان مصيباً حين اختاره ليكون رسولاً من رسله .

روى ابن الاثير بسند عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال :

أَسَرت الروم عبد الله بن حذافة السهمى ، صاحب النبى - صلى الله عليه وسلم - وذلك فى فتوحات الشام -

فقال له الطاغية - ملك الروم - تنصر وإلا ألقيتك فى البقرة ، وهى بقرة من النحاس -

قال عبد الله : ما أفعل .

فدعا الطاغية بالبقرة النحاس ، فملئت زيتاً وأغليت ، ودعا برجل من الأسرى فعرض عليه النصرانية ، فأبى ، فألقاه فى البقرة ، فإذا عظامه

تلوح ، ثم قال لعبد الله : تنصر وإلا ألقيتك .

قال : ما أفعل

فأمر به أن يلقى فى البقرة . فبكى عبد الله .

فقالوا : إنه جزع ، فبكى .

فقال الطاغية : ردوه . فردُّوه ـ وقد ظن الطاغية أنه استجاب لهم .

فقال عبد الله : لا تظن أنى بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بى ؟ ولكنى بكيت حيث ليس لى إلا نفس واحدة يفعل بها هذا فى الله . كنت أحب أن يكون لى من الأنفس عدد كل شعرة فى جسدى ثم تسلط علىَّ فتفعل بى هذا .

فتعجب منه الطاغية من ذلك وأحب أن يطلقه . فقال له : قبل رأسى وأطلقك .

قال عبد الله : ما أفعل .

قال الطاغية : تنصر وأزوجك ابنتى ....

قال عبد الله : ما أفعل

قال الطاغية : قبل رأسى وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين .

قال عبد الله : أما هذه فنعم . فقبل رأسه وأطلقه . وأطلق معه ثمانين من المسلمين .

فلما قدموا على عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وعرف قصته قام إليه عمر فقبل رأسه ـ تكريماً له ، وإعجاباً بما فعل ـ

قال ابن عباس : فكان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

يمازحون عبد الله فيقولون : قبلت رأس علج ؟[170]

فيقول لهم : أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين[171] ، وكان هذا الحدث فى بعض غزوات عمر على قيسارية . .

كان عبد الله بن حذافة هذا هو رسول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى كسرى فى أرجح الأقوال . وكان نص الكتاب الذى حمله هو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ـ الى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

أدعوك بدعوة الله فإنى أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين .

أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس »

وختم الكتاب بختم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ محمد رسول الله ـ

وسار عبد الله بالكتاب حتى وقف على باب كسرى .

من كسرى ؟

وكسرى هو لقب الملك أما اسمه فهو « أبرويز بن هرمز بن أنوشروان . . وهو كسرى الكبير المشهور الذى بنى الإيوان ، وملك ثمانية وأربعين عاما ، وهو الذى حدثت فى عهده موقعة ذى قار المشهورة . . كانت هذه الموقعة

---

(١٧٠) العلج ـ الرجل من كفار العجم . .

(١٧١) أسد الغابة ج ٣ ص ٢١١

لتمام أربعين سنة من مولد رسول الله - ﷺ - وقيل بعد أن هاجر بقليل - وكانت بين الفرس وبنى بكر بن وائل ، وكان قائد الفرس فيها هو الهرمزان صاحب كسرى - وانتصر العرب فيها انتصارا مؤزرا .. قال فيه النبى - ﷺ - : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بى »

- وسجل الشعر العربى هذا الحديث فى قول الأعشى : -

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململة شهباء يقدمها للموت لا عاجز فيها ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة موفق حازم فى أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم مثل الأسنة لا ميل ولا كشف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ليعرفوا أننا بكر فينصرفوا
قالوا : البقية والهندى يحصدهم ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو أن كل معد كان شاركنا فى يوم ذى قادر ما أخطاهم الشرف .

لقد أشرنا إلى هذه القصة لأنها تعد من إرهاصات النبوة . وكان سبب هذه الموقعة أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة رفض أن يخضع لأوامر كسرى التى رأى فيها إهدارا لكرامته . فغضب عليه كسرى ، وأراد أن ينتقم منه .

وشعر النعمان بغضب كسرى عليه . وكان النعمان أميرا على الحيرة وهى خاضعة لنفوذ الفرس .

واحتمى النعمان بهانىء بن قبيصة الشيبانى زعيم قبائل بكر .. ومازال

كسرى يحتال على النعمان حتى أقدمه عليه تاركا أمواله وسلاحه وحرمه أمانة عند هانىء .

وظن النعمان أن كسرى قد عفا عنه ، ولكن كان استقدامه خدعة من كسرى الذى زج به فى السجن ـ فمات . ،

ثم أقبل كسرى يطلب ودائع النعمان التى تركها عند هانىء فرفض هانىء إعطاءها له بإباء وشمم .

فجرد كسرى جيشا بقيادة الهرمزان وأمره أن يؤدب هؤلاء العرب .

وكانت قبيلة إياد موالية للفرس . ولكن طبعها العربى أبى عليها أن تقاتل مع الفرس ضد إخوانهم العرب . فأرسلوا بنى بكر يقولون لهم : أى الأمرين أحب إليكم : أن نطير تحت الليل فنذهب ، أو نقيم حتى إذا التقى القوم بكم فررنا عنهم ؟

فقال بنو بكر لهم : كونوا مع الفرس حتى إذا التقى الجيشان تخاذلتم عنهم . . والتقى الجمعان فى بطحاء ذى قار بين البصرة والكوفة ، وكان البكريون قد أعدوا كمينا للعدو . . وعندما فاجأهم هذا الكمين تخلت إياد فى الوقت نفسه . . فاضطرب الفرس وانهزموا هزيمة منكرة ـ وكان ذلك إيذانا ببزوغ فجر جديد أشرق على العرب نوره فتخلصوا من تبعيتهم للفرس .

ديانة الفرس

وكانت ديانة الفرس هى المجوسية يعبدون النار . . . وقد تواضعوا على

ذلك منذ القدم ، ويحكى فى سبب ذلك ـ أن أفريدون الملك وهو من أقدم ملوك الفرس وجد نارا يعظمها أهلها وهم عاكفون على عبادتها ، فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم فى عبادتها ، فأخبروه بأشياء اجتذبت نفسه إليها ، وأنها واسطة بين الله وبين خلقه وأنها من جنس الآلهة النورية ـ وذكروا له أمر النور ، وأنه مراتب ، وفرقوا بين طبع النور وطبع النار ، وأن الحيوان يجتذب إلى النار فيحرق نفسه كالفراش الطائر بالليل . . إلى غير ذلك من كلام ما أنزل الله به من سلطان .

فأمر أفريدون بحمل جزء من تلك النار التى يعبدها هؤلاء القوم إلى خراسان وبنى لها بيتا بطوس ، واتخذ بيتا آخر فى مدينة « بخارى » يقال له : « برد سورة » وبنى بيتا آخر فى سجستان وسماه « كراكر » وتوارث الملوك هذا الأمر ، وأخذوا يبنون البيوت يعظمون فيها النار ، وكان عدد هذه البيوت قبل ظهور « زرادشت » عشرة بيوت .

وزرادشت هذا يطلقون عليه لقب : نبى المجوس . .

ويبلغ من حمق هؤلاء أنهم كانوا يفرقون بين النيران . . . . . فالنيران التى تشتعل فى هذه البيوت غير النار الأخرى التى يستعملونها فى إنضاج الطعام وغيره من الاستعمالات الأخرى .

فهم يعظمون النار المعبودة التى بنوا لها بيوتا وجعلوا لها سدنة وحفظة وكهانا موكلين بها يسهرون عليها حتى لا تنطفىء أبدا . وكان من بين هؤلاء الحفظة سلمان الفارس وأبوه ـ كما سبق أن ذكرنا ذلك ـ فى موضعه .

وحاول الفرس المحافظة على هذه النار حين ظهر الإسلام وتخوفوا من إطفائها ولهذا فرقوها فى أماكن كثيرة ، ونقلوا بعضها إلى مواضع مختلفة لتبقى إحدى هذه النيران مشتعلة إن أطفئت الأخرى .(١٧٢)

وقد جاء الإسلام فأبطل كل ذلك ، ورد إلى الناس عقولهم ، وهداهم إلى الصواب وأرشدهم إلى الدين الحق وهو عبادة الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . .

كسرى يرفض خطاب الرسول

وحين أعلم كسرى بكتاب الرسول - ﷺ - أذن لحامل الكتاب أن يدخل عليه فدخل .

فلما وصل أمر كسرى بأن يؤخذ منه الكتاب .

قال عبد الله بن حذافة : لا حتى أدفعه إليك كما أمرنى بذلك رسول الله - ﷺ -

فقال له كسرى : ادن منى . . فدنا منه

فدعا كسرى من يقرأ له الكتاب . فقرىء له . .

فلما سمع كسرى أن النبى - ﷺ - بدأ بنفسه . . يعنى قال : من محمد رسول الله - ﷺ - إلى كسرى عظيم فارس - غضب غضبا شديدا ومزق الخطاب قبل أن يعلم ما فيه .

وأمر بإخراج حامل الكتاب . فأخرج . .

---

(١٧٢) مروج الذهب للمسعودى ج١ ص ٤٧٠ ط دار التحرير

وامتطى عبدالله بن حذافة راحلته ومضى . .

ثم لم يلبث أن ذهب غضب كسرى ، فاستدعى عبدالله ، ولكنه كان قد ذهب .

وجاء عبدالله إلى النبى - ﷺ - فأخبره بما حدث فقال النبى - ﷺ - مزق الله ملكه . .

فلم يلبث أن وثب عليه ولده « قباذ » المعروف بشيرويه القابض على أبيه والجانى عليه والقاتل له . . فانتزع الملك من أبيه وقتله . . . . . . والفرس تسمى قباذ هذا بالمشئوم . . وفى أيامه كان الطاعون بالعراق وغيرها من الأقاليم ، فهلك فيه آلاف من الناس . ودام ملك شيرويه هذا سنة أو ستة أشهر . . (١٧٣)

كسرى يرسل إلى عامله باليمن فى شأن النبى .

ولم يكتف أبرويز بتمزيق الخطاب ، بل كتب إلى عامله باليمن « باذان » وكانت اليمن تحت سيطرة الفرس فى ذلك الوقت . وقد سبق أن أشرنا إلى أن سيف بن ذى يزن استعان بالفرس على إخراج الحبشة من اليمن ، فأمدوه بجيش طرد الأحباش ، وجعل اليمن تحت حكم الفرس . .

وكان آخر ولاة الفرس فى اليمن هو باذان هذا . . الذى كتب إليه كسرى « أبرويز » يقول له :

---

(١٧٣) مروج الذهب جـ١ ص ٢١١

إنه بلغني أن رجلا من قريش بمكة يزعم أنه نبي ، فسر إليه ، فاستتبه ، فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه ثم قال : لقد كتب إليَّ هذا الرجل كتابا بدأ فيه بنفسه .. فكيف» يفعل هذا وهو عبدى ؟

ويقال : إنه كتب إليه يقول : إن تكفنى رجلا خرج بأرضك يدعون إلى دينه وإلا فعلت بك كذا وكذا ، وأخذ يتوعده .. فابعث إليه برجلين جلدين فيأتيانى به ..

وأرسل باذان قهرمانه ومعه رجل من الفرس ، بكتاب كسرى إلى النبى - ﷺ - وطلب منهما أن يأمرا النبى - ﷺ - أن يقدم معهما إلى كسرى ، حسب ما جاء فى خطابه .

فخرج الرجلان حتى قدما الطائف ، فوجدا بها رجلا من قريش ، فسألاه عن النبى - ﷺ - فقال لهما : هو بالمدينة .

فأقبلا إليه . وقالا : شاهنشاه - أى ملك الملوك - كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتى بك إليه ، وقد بعثنا إليك ، فإن أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بلادك ..

وكانا حين رأيا النبى - ﷺ - هاباه وارتعدت فرائصهما من الخوف .

وكان الرجلان يرتديان زى الفرس ... فكره النبى - ﷺ - النظر إليهما . ثم قال لهما : ويلكما ، من أمركما بالمجىء إلى هنا ؟

قالا : أمرنا ربنا - يعنيان كسرى -

وقال لهما : اذهبا الآن واتيا إلىَّ غدا وكأنه أراد بذلك أن يهدى من روعهما بعد أن رأى شدة خوفهما واضطرابهما .

وأتِ رسول الله - ﷺ - بهذين الرجلين ، فقال لهما : إن الله أخبرنى أن كسرى يقتله ابنه - وذكر لهما الموعد .. الذى يحدث فيه ذلك .

ثم كتب كتابا إلى باذان قال فيه : إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى يوم كذا فى شهر كذا ..

فلما وصل الكتاب إلى باذان توقف وقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال . فَقُتِل كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله - ﷺ - على يد ولده شيرويه .

وفى رواية .. أن رسول الله - ﷺ - قال لرسولى باذان : اذهبا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربى قتل ربك الليلة ... ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة التى أخبر بها النبى - ﷺ - وهى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة

ولم يكتف شيرويه بقتل والده ، ولكنه قتل معه إخوته .

كسرى ينتقم لنفسه من قاتله .

ويقال : إن كسرى قد أحس أن ابنه سيقتله فاحتال لينتقم منه .

فعمد إلى حُقٍّ وضع فيه سُماً زُعافاً ، وكتب عليه من الخارج : هذا حُقٌّ به مسحوق القوة من تناول منه كذا قوى على عمل كذا وكذا . وأحكم إغلاقه ، ووضعه فى بعض خزائنه .

فلما قتل الابن أباه ، أقبل على الخزائن يفتحها ليعرف مافيها ، فعثر على هذا الحق ، فتناول منه فمات وكان ذلك بعد أبيه بستة أشهر ، ولم يكن له ذكر يرثه ، فملَّك الفرس أخته « بوران » ثم ملَّكوا أختها « أزد ميدخت »

بعدها ، ولم يلبثوا أن مزقهم الله شر ممزق كما أخبر بذلك النبى - ﷺ - .(174)

وحين تولت بُوران - وذكر ذلك للنبى - ﷺ - قال : لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » .

وقد أخبر النبى - ﷺ - عن هلاك كسرى وفتح فارس ، وقد سبق أن علمنا أن النبى - ﷺ - وعد سراقة بن مالك حين تبعه فى الهجرة ، سوارى كسرى وتاجه - ﷺ - وأن عمر بن الخطاب دعا بسراقة فألبسهما إياه ، وقال : الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة كما وعد رسول الله - ﷺ -

عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - أنه - ﷺ - قال : لتفتحن جماعة من المسلمين - أو المؤمنين ، أو قال - رهط من أمتى - كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض - فكنت أنا وأبى فيهم ، وأصبنا من ذلك ألف درهم . . .

وقدم على باذان كتاب ولد كسرى « شيرويه » فيه : أما بعد ، فقد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس ، فإنه قتل أشرافهم ، فتفرق الناس . فإذا جاءك كتابى هذا فخذلى الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى يكتب إليك فيه فلا تزعجه ، حتى يأتيك أمرى فيه .

ولكن باذان بعث باسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله - ﷺ -(175) واعتبره ابن الأثير من الصحابة وترجم له فى أسد الغابة ، وذكر أنه كان

---

(174) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج1 ص 341 - المعارف لابن قتيبة .
(175) السيرة الحلبية ج3 ص 292

له أثر كبير فى قتل الأسود العنسى . كما تحدث عن أخباره فى كتابه الكامل فى التاريخ[١٧٦]

كتابه - ﷺ - إلى النجاشى

كان رسول النبى - ﷺ - إلى النجاشى هو عمرو بن أمية الضمرى - رضى الله عنه - وهو عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله إياس . . الكنانى الضمرى يكنى أبا أمية وأسلم قديما ، وهو من مهاجرة الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وأول مشاهده بئر معونة . . . . وقال بعضهم بل أسلم بعد أحد .

وكان ذا عقل وحكمة ، وصاحب نجدة وجراءة ، وكان النبى - ﷺ - يبعثه فى أموره . .

كانت مهمة عمرو إلى النجاشى ذات شقين . . أو بمعنى آخر كانت له مهمتان لا مهمة واحدة . أما إحداهما فهى إبلاغ النجاشى الدعوة ، وأما الأخرى فهى توكيل النجاشى فى تزويج النبى - ﷺ - من أم حبيبة بنت أبى سفيان - رضى الله عنها - بعد أن تنصر زوجها ومات بأرض الحبشة . وقد ذكرنا أمر هذه الرسالة قبل ذلك . وكان نص الكتاب الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهمين .

---

(١٧٦) أسد الغابة ج١ ص ١٩٥

وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول[١٧٧] الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى .. حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله - عز وجل - وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وكان النجاشى اسمه أَصْحَمة ..

فأحسن النجاشى استقبال الكتاب ، ووضعه على رأسه ، واستجاب لدعوة الاسلام . وكتب إلى النبى - ﷺ - يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله - ﷺ - من النجاشى أصحمة . السلام عليك يانبى الله ورحمة الله وبركاته ، الذى لا إله إلا هو - الذى هدانى إلى الإسلام .

اما بعد ، فقد بلغنى كتابك يارسول الله ، فيما ذكرت من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام - فورب السماء والأرض إن عيسى - عليه الصلاة والسلام - لا يزيد على ماذكرت وقد عرفنا مابُعِثَ به إلينا ، وقد قربّنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله - صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يده لله رب العالمين[١٧٨]

---

(١٧٧) البتول : العفيفة ، المنقطعة عن الرجال ، أو المتقطعة عن الدنيا وزينتها

(١٧٨) السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٩٣

وفى رواية : وقد بعثت إليك ابنى ، وإن شئت أتيتك بنفسى - ويقال : إنه أرسل ابنه فعلا فى ستين فرداً فى سفينة فلما كانوا وسط البحر غرقت سفينتهم .(١٧٩)

قال ابن الأثير عن النجاشى : إنه أسلم فى عهد النبى - ﷺ - وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه ، وتوفى ببلاده قبل فتح مكة ، وصلى عليه النبى - ﷺ - وكبر أربعاً(١٨٠)

وكان انطباع النجاشى عن الاسلام انطباعاً حسناً ، وكان سابقا على ورود هذه الرسالة إليه ، فقد مرَّ بنا أن المسلمين حين هاجروا إلى الحبشة وجدوا فى ظلال النجاشى انعطافا نحوهم ، ووجدوا أنفسهم فى أمن وحرية يعبدون الله وحده دون خوف أو توجس . وحاولت قريش استعادة هؤلاء المسلمين عن طريق عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ولكنهم فشلوا فى ذلك . . .

وحدث نقاش بين المسلمين وبين النجاشى حول بعثة النبى - ﷺ - اقتنع بعده النجاشى بصواب هؤلاء المهاجرين وفضلهم ، فرفض تسليمهم لعمرو بن العاص ومن معه ، ورد عليه الهدايا التى كان قد اصطحبها معه وقال له : ماقبل الله منى الرشوة حين رد علىَّ ملكى . . وقد سبق أن عرضنا لذلك .

وقال النجاشى ايضا لعمرو بن العاص : أنا أشهد أنه رسول الله ، وأنه

---

(١٧٩) ذكر ذلك القسطلانى فى المواهب اللدنية ج٣ ص ٣٤٥

(١٨٠) أسد الغابة ج ١ ص ١١٩

الذى بشر به عيسى فى الأنجيل ، والله لولا ماأنا فيه من الملك لأتيته فأكون من أتباعه .

محاورة بين عمرو بن أمية والنجاشى .

وقد حدث حوار بين عمرو بن أمية والنجاشى . فقد قال له عمرو . أيها الملك إنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه منك ، ولم نخفك على شر قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك منك ، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لايجور ، وفى ذلك موقع الخير وإصابة الفضل[١٨١] وإلا فأنت فى هذا النبى الأمى - ﷺ - كاليهود فى عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - وقد فرق النبى - ﷺ - رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرْجهم له ، وأمنك على ماأخافهم عليه ، لخير سالف وأجر ينتظر .

فأجاب النجاشى على ذلك بقوله : أشهد بالله انه للنبى الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى - عليه الصلاة والسلام - براكب الحمار كبشارة عيسى - على الصلاة والسلام براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر ، ولكن أعوانى من الحبش قليل ، فأنظرنى حتى أكثر الأعوان وألَين القلوب[١٨٢] .

صلاة الجنازة على النجاشى

وتوفى النجاشى فى رجب سنة تسع من الهجرة ، عند الأكثر من العلماء -

---

(١٨١) فى رواية : موقع الحز واصابة المفصل .

(١٨٢) المواهب اللدنية للقسطلانى ج٣ ص ٢٤٤

وقيل : سنة ثمان قبل فتح مكة ، ونعاه النبى - ﷺ - بالمدينة إلى أصحابه .

وأخرج أصحاب الصحيح قصة صلاته - ﷺ - صلاة الغائب على النجاشى . فعن جابر - رضى الله عنه - قال : لما مات النجاشى قال النبى - ﷺ - : قد مات اليوم عبد صالح يقال له أصحمة ، فقوموا فصلوا ، فصفنا خلفه . وفى رواية بعضهم عن أنس - رضى الله عنه - قال : قوموا فصلوا على أخيكم النجاشى ، فقال بعضهم - وهم المنافقون - يأمرنا أن نصلى على علج من الحبشة ؟ فأنزل الله - تعالى - قوله : « وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وماأنزل إليكم وماأنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا اولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب »(١٨٣)

ونوَّر الله قبر النجاشى لإيمانه فقد حدثت عائشة رضى الله عنها - قائلة فيما رواه ابن إسحاق : « لما مات النجاشى كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور(١٨٤)

هل هناك كتاب آخر إلى نجاشى آخر ؟

يقول بعض الرواة : إنه بعد وفاة النجاشى أصحمة تولى بعده نجاشى آخر فكتب له النبى - ﷺ - كتابا يدعوه فيه إلى الاسلام .

فقد روى البيهقى عن ابن إسحاق قال :

---

(١٨٣) آل عمران ١٩٩

(١٨٤) أخرجه أبو داود

هذا كتاب من النبى محمد - ﷺ - إلى النجاشى الأصحم عظيم الحبشة سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله . وأدعوك بدعوة الله فإنى أنا رسوله ، فأسلم تسلم

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[١٨٥]

فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك[١٨٦] .

ولكن بعض العلماء يذكرون أنه نجاشى واحد هو صاحب جعفر بن أبى طالب ، لأن النبى - ﷺ - كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم جميعاً إلى الله فى وقت واحد ، وكان ذلك قبيل الفتح ، قال الزهرى : كانت كتب النبى - ﷺ - إليهم واحدة ، وكلها فيها هذه الآية ، وهى من سورة آل عمران ، وهى مدنية بلا خلاف .[١٨٧]

والمقصود بكلها أى الكتب الموجهة إلى أهل الكتاب وهم : النجاشى وهرقل والمقوقس . أما الكتب الموجهة إلى كسرى وغيره فليست فيها هذه الآية . والذى يرى أن النبى - ﷺ - كتب إلى الحبشة كتابين أحدهما إلى

---

(١٨٥) آل عمران ٦٤
(١٨٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢ / ٦٢٣ - البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ٦١
(١٨٧) هامش دلائل النبوة للبيهقى ج٢ ص ٣٠٨

النجاشي صاحب جعفر ، والآخر إلى الذى جاء بعده ـ يستند إلى ماروه مسلم عن قتادة بن دعامة عن أنس ـ أن نبى الله ـ ﷺ ـ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله ، وليس النجاشي الذى صلى عليه النبى ـ ﷺ ـ لأنه لم يكن جباراً .

فقد صرح أنس بأن هذه الرسالة الأخيرة موجهة إلى غير النجاش الأول الذى مات مسلما ، وصلى عليه النبى ـ ـ ﷺ ـ صلاة الغائب .

ويؤيد ذلك أيضا ماروه الطبرانى عن المسور قال : خرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أصحابه فقال : إن الله بعثنى للناس كافة فأدُّوا عنى ولا تختلفوا علىَّ ، فبعث عبد الله بن حذافة الى كسرى ، وسليطا إلى هوذة واليمامة ، والعلاء إلى المنذر بهجر ، وعمرو بن العاص الى جيفر وعباد ابنى الجلندى بعمان ، ودحية إلى قيصر ، وشجاع بن وهب إلى ابن أبى شمر وعمرو بن أمية الى النجاسى ، فرجعوا جميعا قبل وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير عمرو بن العاص .

وزاد بعض أصحاب السير أنه بعث السائب إلى مسيلمة ، وحاطبا إلى المقوقس .(١٨٨)

النبى يخبر بوفاة النجاشي

وقد مر بنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر وهو فى المدينة بوفاة النجاشى فى الحبشة ـ أعلمه بذلك ربه ، وذكرنا أنه صلى عليه صلاة

---

(١٨٨) المواهب اللدنية ج٣ ص٣٤٦

الغائب - وطلب من أصحابه أن يستغفروا له ، ووصف بأنه عبد صالح . . . وذكر البيهقى روايا فى سند ينتهى الى أم كلثوم - رضى الله عنها - قالت : لما تزوج النبى - صلى الله عليه وسلم - أم سلمة قال : إنى قد أهديت إلى النجاشي أواق من مسك وغير ذلك ، وإنى لاأراه الا قد مات ، ولاأرى الهدية إلا سترد علٍى ، فان ردت على - أظنه قال - قسمتها بينكن أو فهى لكن . قالت : فكان كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مات النجاشى وردت الهدية فلما ردت أعطى كل امرأة من نسائه أوقية من ذلك المسك[١٨٩]

رسالته - صلى الله عليه وسلم - الى المقوقس

المقوقس - بضم الميم وفتح القاف وسكون الواو وكسر القاف الثانية - طائر معروف مُطَوَّق . سواده فى البياض كالحمام[١٩٠]

ولامعنى لمحاولة إخضاعه للاشتقاق من لفظ عربى - فهو لقب لملك مصر فى أيام الحكم الرومانى ، كفرعون الذى كان قبل ذلك . وكان اسم هذا المقوقس : جريج بن مينا بن قرقوب . .

كان ملكا على مصر من قبل هرقل . . وكانت مصر قد فتحها الرومان وبسطوا نفوذهم عليها .

---

(١٨٩) دلائل النبوة للبيهقى ج٤ ص ٤١٢
(١٩٠) حياة الحيوان للدميرى ج٢ ص ٥٧٤

كيف احتل الرومان مصر ؟

ترجع علاقات الرومان بمصر الى أيام بطليموس الثانى الملقب بفيلادلفوس الذى عاش فى الفترة مابين (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق . م) وعقد مع روما اتفاقات ودية ومعاهدات تجارية ، وتبادل مع روما السفراء .

وفى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد ارتقى عرش مصر ملك صغير السن هو بطليموس الخامس ـ ٢٠٤ : ١٨١ ق . م ـ فانتهزت مقدونيا وسوريا الفرصة لاقتسام أملاك مصر الخارجية فى منطقتى البحر الإيجى وفلسطين . . . .

وأثار هذا العمل مخاوف روما التى لم تستبعد مهاجمة ملكى مقدونيا وسوريا لها بعد فراغهما من مصر ، فاضطرت الى التدخل لحفظ التوازن السياسى فى الشرق حرصا على مصالحها نفسها ، وقضت على هذين الملكين الواحد بعد الآخر .

ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى حدث نزاع آخر بين مصر وسوريا حول السيطرة على فلسطين . وتمكن أنطيونس الرابع ملك سوريا من احتلال بعض الأراضى المصرية عام ١٦٩ ق . م ، واستولى على منف ، وسار شمالا ليضرب الحصار حول الاسكندرية .

فبادرت روما من فورها بإرسال بعثة عسكرية تحمل معها إنذارا لسوريا بالانسحاب من مصر ، وأنقذ هذا الإنذار مصر من الاحتلال السورى ، ولكنها فى الوقت نفسه أصبحت تحت وصاية روما ، وبدت وكأن روما هى الحامية لمصر من الاحتلال الأجنبى . وشيئا فشيئا أصبحت روما هى صاحبة

اليد الطولى فى تنصيب الملوك المصريين وخلعهم ، وارتمى هؤلاء الملوك الضعاف فى أحضان روما رغبة أو رهبة .

واستغلت روما هذا الموقف تماما لمصلحتها فعملت على إضعاف الملوك وضاعفت من بذر الشقاق بين المتنافسين على عرش مصر وعملت على تمزيق وحدتها . وفى الوقت نفسه كان هؤلاء الملوك الذين يحكمون مصر - وهم البطالمة - يعيشون فى عزلة عن الشعب ولايفكرون فى مصلحته . .

وكانت روما قد أصبحت الدولة القوية التى تبسط نفوذها على شواطىء البحر الأبيض المتوسط من جميع نواحيه بعد أن أخضعت الولايات لنفوذها . وفى عام ٥١ ق م تولت عرش مصر الملكة كليوباترا وريثة العرش بعد وفاة أبيها بطليموس الثانى عشر ، وكان قد أوصى لها ولأخيها بالملك ولكنها استقلت بالحكم دونه . فحدث نزاع بينهما . وتمرد أنصار هذا الأخ على كليوباترا وأثاروا ضدها غضب أهل الاسكندرية . ففرت الى الحدود الشرقية وجمعت جيشا من القبائل السامية وتأهبت لغزو الاسكندرية .

وتمكن يوليوس قيصر فى ذلك الوقت من النزول الى الاسكندرية وكانت معه حامية مكونة من فرقتين وثمانمائة فارس وعشر سفن حربية .

ودعا الأخوين المتنازعين ليحكم بينهما محاولا إصلاح ذات البين . . وبمجرد أن رأى كليوباترا افتتن بجمالها . . وأدرك الشعب المصرى أن وجود قيصر ليس إصلاحا بين أخوين متنازعين بل هو احتلال للوطن . فقاوم الشعب يوليوس قيصر مقاومة عنيفة .

قيصر يحرق مكتبة الاسكندرية :

وكان بطليموس الثالث عشر ـ أخو كليوباترا الذى عزلته عن حقه فى العرش ـ قد أعد جيشا للمقاومة ، وقد أحرج هذا الجيش موقف يوليوس قيصر ، وزحف على الإسكندرية لطرد قيصر منها . فقرر قيصر الهرب من الاسكندرية عن طريق البحر مع قواته . ولكن تعذر عليه ذلك لوجود بعض قطع الأسطول المصرى فى الميناء ، فأضرم فى هذه القطع النار ليحرم خصومه من الانتفاع بها فامتدت النيران إلى المستودعات المليئة بالغلال ولفائف البردى ، ومنها امتدت الى مكتبة الاسكندرية التى كانت حافلة بأغنى الكتب العلمية والثقافية ، وبذلك حَرمَ هذا القيصر الانسانية من نور العلم ، وكَبد الإنسانية خسارة فادحة . ومن العجيب أن يحاول بعض المغرضين إلصاق هذه التهمة بالعرب الذين جاءوا إلى مصر بعد هذا الحادث بأكثر من ستة قرون .

وبعد معارك ضارية بين يوليوس قيصر والشعب المصرى تمكن قيصر من السيطرة على الموقف لصالح كليوباترا ضد أخيها وفى الوقت نفسه لصالحه لأنه كان قد ضمن ولاءها له بزواجه منها . .

ولم يلبث قيصر أن أغتيل فتبددت أحلام كليوباترا وبعد أن كانت قد استقرت فى روما زوجة لقيصر عادت الى الاسكندرية . .

ولكن الصراع تجدد مرة أخرى بين الشعب المصرى والرومان الذين عادوا لتوطيد أقدامهم فى مصر . . واستطاعت كليوباترا أن تفتن أنطونيو القائد الرومانى . . مما أثار ثائرة الرومان ضده ، فدارت موقعة شهيرة تعرف

بموقعة أكتيوم البحرية هزم فيها انطونيو ، ثم لم يلبث خصمه اللدود اكتافيوس أن استولى على الاسكندرية سنة ٣٠ ق م . وانتحرت كليوباترا غما وحزنا على المصير المحزن الذى انتهت اليه . . ومرت الأيام والرومان فى مصر يلقون مقاومة عنيفة ، وثورات متتالية ، فلم يستقر الأمر لهم طوال إقامتهم . حتى بدأت المسيحية تدخل الى مصر على الرغم من معارضة الرومان لها . وزادت المقاومة أيضا مع ذلك .

ودانت روما بالمسيحية حين اعتنقها قسطنطين الامبراطور الذى بنى القسطنطينية ، وأصبح أمراؤه الذين يحكمون الولايات التابعة لروما منذ ذلك الوقت مسيحيين ، ومن ضمن ذلك أمير مصر وحاكمها الذى يلقب بالمقوقس .

ولكن نصرانيته لم تمنع من استمرار الثورة ضد الرومان على اعتبار أنهم غاصبون للبلاد . يضاف إلى ذلك سوء معاملة الرومان للمصريين واعتبارهم خدما وعبيدا للرومان[١٩١]

من الذى حمل رسالة النبى إلى المقوقس ؟

كان الذى حمل رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المقوقس هو حاطب بن أبى بلتعة بن عمرو بن عمير حليف بنى أسد ، وكنيته أبو عبد الله . أصله من مذحج ـ وكان حليفا لبنى أسد بن عبدالعزى ، ثم

---

(١٩١) رجعنا فى كتابة هذه المادة إلى كتاب « كفاحنا ضد الغزاة » د . عبد اللطيف أحمد على ص ١٢٨ وما بعدها وزارة الإرشاد القومى ١٩٥٧ م

للزبير بن العوام ، وقيل : كان مولى لعبيد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد وقد شهد بدرا والحديبية وكان من المشهود لهم بقوة الإيمان وحسن الطاعة والاستقامة وكان حاطب لبقا حسن التصرف حكيما حاضر الجواب ، وسنعرف ذلك من خلال مناقشته للمقوقس .

وكانت الرسالة التى حملها حاطب للمقوقس تتضمن مايأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن عبد الله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعوة الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط « ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

وحمل حاطب الكتاب ومضى به إلى مصر . .

فلما وصلها سأل عن المقوقس فوجده فى الاسكندرية . وأخبر بأنه فى مجلس مشرف على البحر . .

فركب حاطب سفينة وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه .

فلما رآه المقوقس أمر باحضاره بين يديه .

وتناول المقوقس الكتاب ، وأمر بإحضار من يقرؤه فقرىء عليه . . . .

وفكر المقوقس قليلا ثم قال لحاطب : مامنعه إن كان نبيا أن يدعو علىَّ فيستجيب الله دعاءه ؟

فقال له حاطب : مامنع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل الله بهم كذا وكذا ؟

فوجم المقوقس ساعة ، ثم استعادها فأعادها حاطب عليه ، فسكت . فقال له حاطب : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولايُعْتبر بك . وإن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافى به الله فقد ماسواه ، ومابشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، ومادعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به وهو يأمرك بالإسلام . . . .

أعجب المقوقس بكلام حاطب فقال له : أحسنت . أنت حكيم جاء من عند حكيم .

وكان حاطب فطنا لبيبا حازما ، وكان معروفا بين أصحابه بأنه لايخدع . وبه يضرب المثل الذى يقول : « صفقة لم يحضرها حاطب » وسببه أن بعض أصحابه باع بيعا غبن فيه ، لأن حاطبا لم يكن حاضرا فى أثناء هذا البيع ، فقالوا هذه العبارة التى أصبحت مثلا .

المقوقس يرد على النبى :

وكتب المقوقس كتابا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فيه : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط .

سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت وماتدعو

إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين ، وبحلة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام .

حوار بين المقوقس وحاطب

وأخرج ابن عبد الحكم عن أبان بن صالح قال :

أرسل المقوقس الى حاطب ليلة ، وليس عنده أحد إلا ترجمانا له .

فقال له : ألا تخبرنى عن أمور أسألك عنها ، فإنى أعلم أن صاحبك تخيرك حين بعثك لى ؟

قال حاطب : قلت : لاتسألنى عن شىء إلا صدقتك .

قال المقوقس : إلام يدعو محمد ؟

قال حاطب : يدعونا إلى أن نعبد الله ولانشرك به شيئا ، ونخلع ماسواه ويأمر بالصلاة .

قال : كم تصلون ؟

قال : خمس صلوات فى اليوم والليلة وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، والوفاء بالعهد ، وينهى عن أكل الميتة والدم .

قال المقوقس : من أتباعه ؟

قال حاطب : الفتيان من قومه وغيرهم

قال المقوقس : صفه لى .

قال حاطب : فوصفته بصفة من صفاته ، ولم آت عليها .

قال المقوقس : قد بقيت أشياء ، لم أرك ذكرتها : فى عينيه حمرة خفيفة

ماتفارقه وبين كتفيه خاتم النبوة ، يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزى بالتمرات والكِسَر ، لايبالى من لاقى من عم ولاابن عم .

قال حاطب : قلت : هذه صفته .

قال المقوقس : قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أن مخرجه بالشام فمن هناك تخرج الأنبياء ، ولكنى أراه قد خرج فى العرب والقبط لاتطاوعنى فى اتباعه ، ولاأحب أن تعلم بمحاورتى إياك ، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه بسحاتنا هذه حتى يظهروا على ماههنا ، وأنا لاأذكر للقبط من هذا حرفا . فارجع الى صاحبك(١٩٢)

هدية المقوقس للنبى

ورجع حاطب الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكتاب المقوقس وهديته إليه . وقد أشار المقوقس إلى بعض هذه الهدية فى رسالته ، ولكن الهدية كانت أكبر مما تضمنته الرسالة . وأرسل المقوقس مع حاطب رجلا عاقلا من حاشيته بهذه الهدايا .

كانت الهدايا عبارة عن ثلاث جوار منهن أختان هما مارية وسيرين ، وبغلة شهباء ، وحمار أشهب ، وثياب من قباطى مصر ، وعسل من عسل بنها ، وبعث بمال للصدقة .

وأمر المقوقس رسوله أن ينظر مَنْ جلساؤه ؟ وينظر إلى ظهره ليرى خاتم النبوة ، وهو شامة كبيرة ذات شعرات . .

---

(١٩٢) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ج١ ص٤٢

فلما قدم الرسول على النبى - ﷺ - قدم له الهدايا ، فقبلها . أما الصدقة ففرقها على من يستحقها ، وهكذا فعل بالمال .

وحين نظر للجاريتين قال : اللهم اختر لنبيك ، فاختار له مارية ، ثم وهب الثانية لحسان بن ثابت ، وقيل : لمحمد بن مسلمة الأنصارى . . ووهب الجارية الثالثة التى صحبتهما لأبى جهم بن حذيفة . وكانت البغلة والحمار من أحب الدواب إليه . . . . .

وأعجبه العسل فدعا فيه بالبركة . .

وتزوج النبى - ﷺ - بمارية ، التى ولدت له إبراهيم ابنه ومات صغيراً لم يتجاوز ثمانية عشر شهرا . .

وأخرج ابن عبدالحكم عن راشد بن سعد أن رسول الله - ﷺ - قال : « لو بقى إبراهيم ما تركت قبطيا إلا وضعت عنه الجزية »[193]

رواية البيهقى فى ذلك

روى البيهقى فى سند متصل عن حاطب بن أبى بلتعة قال :

بعثنى رسول الله - ﷺ - الى المقوقس ملك الإسكندرية .

قال : فجيئته بكتاب رسول الله - ﷺ - فأنزلنى فى منزله ، وأقمت عنده ، ثم بعث إلىَّ وقد جمع بطارقته فقال لى : إنى سأكلمك بكلام وأحب أن تفهمه منى .

قلت : هلم .

قال : أخبرنى عن صاحبك ، أليس هو بنبى ؟

---

(١٩٣) حسن المحاضرة حـ١ صـ٤٥

قلت : بلى هو رسول الله ونبيه

قال : فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟

فقلت : عيسى بن مريم ـ ألست تشهد أنه رسول الله ؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله ـ عز وجل ـ حتى رفعه الله إليه فى السماء الدنيا ؟

قال : أنت حكيم جاء من عند حكيم . هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد ، قال : فأهدى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاث جوار منهن أم إبراهيم ابن رسول الله ـ ﷺ ـ ، وواحدة وهبها رسول الله ـ ﷺ ـ عليه وسلم ـ لأبى جهم بن حذيفة ، وواحدة وهبها لحسان بن ثابت الأنصارى ، كما أرسل إليهم بِطُرف من طرفهم .(١٩٤)

والجارية التى وهبت لحسان أنجبت له عبدالرحمن بن حسان

وقد اختلف فى الجارية الثالثة فقيل : إنها أهديت لأبى جهم بن حذيفة وقيل ـ فى رواية للبيهقى أيضا ـ إنها أهديت لجهم بن قيس العبدى فهى أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر .(١٩٥)

وقيل : بل أهديت لمحمد بن مسلمة الأنصارى .

والمشهور أنهما جاريتان فقط مارية وأختها . وقد وهبت أخت مارية لحسان بن ثابت . وقد أورد ابن الأثير فى ترجمة عبدالرحمن بن حسان أن أمه

---

(١٩٤) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٤ صـ ٣٩٦

(١٩٥) المرجع السابق

هى سيرين القبطية أخت مارية فهو ابن خالة إبراهيم ابن رسول الله - ﷺ - [196]

كما أهدى المقوقس للنبى - ﷺ - طبيبا

فرد النبى - ﷺ - الطبيب ، وقال له ، لا حاجة لنابك . فلما عاد إلى المقوقس . سأله عن سبب رده .

فقال : لقد بعثتنى لرجل جمع الحكمة كلها والطب كله فى كلمتين : قال لى : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع .

وهذا هو قوام الصحة أجمع . فإن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء كما أخبر بذلك النبى - ﷺ - أيضا .

المقوقس يستخبر من المغيرة بن شعبة عن النبى

وكان المغيرة بن شعبة قد خرج مع جماعة من بنى مالك إلى المقوقس فى زيارة له ، وكان المغيرة وقتئذ مازال على شركة .

فقال لهم المقوقس : كيف خلصتم إلىَّ من طائفتكم ومحمد وأصحابه بينى وبينكم ؟

قالوا : لصقنا بالبحر ، وقد خلفناه على ذلك .

قال : فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه ؟

قالوا : لم يتبعه منا إلا القليل

قال : ولم ذاك ؟

قالوا : جاءنا بدين جديد لا تدين به الآباء ، ولا يدين به الملك - يقصدون

(١٩٦) اسد الغابة جـ ٣ صـ ٤٣٤

المقوقس - ونحن على ما كان عليه آباؤنا .

قال : فكيف صنع قومه ؟

قالوا : تبعه أحداثهم ، وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب فى مواطن ، مرة تكون عليهم الدائرة ، ومرة تكون عليه .

قال : ألا تخبرونى إلى ماذا يدعو؟

قالوا : يدعو إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونخلع ما كان يعبد الآباء ، ويدعو إلى الصلاة والصدقة

قال : ألها وقت يعرف ، وعدد ينتهى إليه ؟

قالوا : نعم يصلون فى اليوم والليلة خمس صلوات لمواقيت وعدد ، ويؤدون من كل ما بلغ عشرين مثقالا ، وكل إبل بلغت خمسا شاة ، ثم أخبروه بصدقة الأموال .

قال : أفرأيتم إن أخذها أين يضعها ؟

قالوا : يردها على فقرائهم . ويأمرهم بصلة الرحم ، ووفاء العهد ، وتحريم الزنا والربا والخمر ، ولا يأكل ما ذبح لغير اسم الله .

عند ذلك قال لهم المقوقس : هو نبى مرسل إلى الناس كافة ، ولو أصاب القبط والروم تبعوه ، وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم ، وهذا الذى تصفونه منه بعثت به الأنبياء من قبل ، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ، ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور .

قالوا : لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا .

فأنغض [١٩٧] المقوقس رأسه ، وقال : أنتم فى اللعب .

ثم عاود المقوقس مساءلتهم فقال لهم : كيف نسبه فى قومه ؟

قال المغيرة : فقلنا : هو أوسطهم نسبا .

قال المقوقس : كذلك الأنبياء تبعث فى نسب قومها .

ثم قال : فكيف صدق حديثه ؟

قالوا : يسمى الصادق الأمين من صدقه .

قال المقوقس : انظروا فى أموركم ، أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ، ويكذب على الله ؟

ثم قال : فمن تبعه ؟

قالوا : الأحداث .

قال : هم أتباع الأنبياء قبله .

ثم قال : فما فعلت يهود يثرب فهم أهل التوراة ؟

قالوا : خالفوه ، فأوقع بهم فقتلهم وسباهم ، وتفرقوا فى كل وجه .

قال المقوقس : هم قوم حسد ، حسدوه . . أما إنهم ليعرفون من أمره مثلما نعرف .

قال المغيرة : فقمنا من عنده وقد سمعنا كلاما ذللنا لمحمد - ﷺ - وخَضَّعنا ، وقلنا : ملوك العجم يصدقونه ويخافونه على بعد أرجائهم منه ، ونحن أقرباؤه وجيرانه لم ندخل معه ، وقد جاءنا داعيا إلى منازلنا ؟

قال المغيرة : فأقمت بالاسكندرية لا أَدَعُ كنيسة إلا دخلتها ، وسألت

---

(١٩٧) أنغض : حرك رأسه عجبا

أساقفتها من قبطها ورومها عما يجدون من صفة محمد - ﷺ -

وكان أسقف من القبط لم أر أشد اجتهادا منه ، فقلت له : أخبرنى ، هل بقى أحد من الأنبياء ؟

قال : نعم ، هو آخر الأنبياء ، ليس بينه وبين عيسى نبى ، قد أمر عيسى باتباعه ، وهو النبى الأمى العربى ، اسمه أحمد ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، فى عينيه حمرة خفيفة يلبس ما غلظ من الثياب ، ويجتزى بما لقى من الطعام ، سيفه على عاتقه ، ولا يبالى من لاقى ، يباشر القتال بنفسه ، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم ، هم أشد حبا له من آبائهم وأولادهم ، مِنْ حرم يأتى وإلى حرم يهاجر ، إلى أرض سباخ ونخل ، يدين بدين إبراهيم .

قال المغيرة : قلت زدنى فى صفته .

قال : يأتزر على وسطه ، ويغسل أطرافه ، ويخص بما لم يخص به الأنبياء قبله . كان النبى يبعث إلى قومه وبعث هو إلى الناس كافة ، وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا ، أينما أدركته الصلاة تيمم وصلى ، وكان من قبله مشددا عليهم لا يصلون إلا فى الكنائس والبيع .

قال المغيرة : فوعيت ذلك كله من قوله وقول غيره . فرجعت وأسلمت .(١٩٨)

---

(١٩٨) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة حـ ١ صـ ٤٥ ، والمواهب اللدنية حـ ٣ صـ ٣٤٩

رسالة النبى إلى البحرين

وكان العلاء بن الحضرمى رسول النبى - ﷺ - إلى المنذر العبدى أمير البحرين .

والعلاء بن الحضرمى - هو العلاء بن عبدالله بن عباد بن أكبر ولُقِّب أبوه بالحضرمى فغلب عليه للقب ، ولقب بذلك لأن أباه من حضرموت ، قدم مكة وحالف حرب بن أمية . .

وكان العلاء من الذين أسلموا قبل فتح مكة . وكان له أخ اسمه عامر قتل يوم بدر كافرا . . وله أخت اسمها الصعبة بنت الحضرمى تزوجها أبوسفيان ثم طلقها ، فتزوجها طليحة بن عبيدالله أحد العشرة المبشرين بالجنة . وكان العلاء مستجاب الدعوة . .(١٩٩)

أما المنذر فهو ابن ساوى بن عبدالله بن زيد بن عبدالله بن دارم التميمى الدارمى صاحب البحرين ، وقيل : إنه من عبدالقيس .

كان أمير البحرين . . . . وكان نص الرسالة التى حملها العلاء إليه : -

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد : فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك - أى وليتك عليهم - فاترك للمسليمن ما أسلموا

---

(١٩٩) اسد الغابة حـ ٤ صـ ٧٤

عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، ولن نعزلك عن عملك ، مادمت مصلحا . . ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية »

والمتأمل فى هذا الكتاب يجده جوابا لكتاب كان المنذر بن ساوى قد أرسله للنبى - ﷺ - رداً على كتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، ولذلك بدأه النبى - ﷺ - بالسلام عليه بعد أن تبين له استجابته للإسلام . فقال له : سلام عليك - وكان من عادته - ﷺ - أن يكتب فى صدر رسالته : السلام على من اتبع الهدى . .

والرسالة الأولى التى أرسلها النبى - ﷺ - للمنذر لم يذكرها أحد من الرواة ، ولكن ابن سعد أشار فى الطبقات إلى أنه أرسلها إليه بعد حنين فقد قال : ويعث رسول الله - ﷺ - حين انصرف من الجعرانه - العلاء بن الحضرمى الى المنذر العبدى وهو بالبحرين يدعوه إلى الاسلام ، وكتب إليه كتابا ، فكتب إلى رسول الله - ﷺ - بإسلامه وتصديقه ، وأنه قرأ كتابه على أهل هجر ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وأن بأرضه مجوسا ويهودا . . وطلب من الرسول - ﷺ - أن يرسل له فى شأن هؤلاء أمره . . . . . فكتب إليه رسول الله - ﷺ - الرسالة التى ذكرناها .[٢٠٠]

وكان العلاء بن الحضرمى عاقلا لبيبا ، كما كان المنذر رشيدا موفقا ، فقد رحب بالإسلام حين بلغه -

---

(٢٠٠) الطبقات الكبرى حـ ١ قسم ١ صـ ١٩

وكان العلاء قد قال له : يامنذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة ، إن هذه المجوسية شردين ، ليس فيها تَكَرُّمُ العرب ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتنزه عن أكله ، ويعبدون فى الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا نصدقه ؟ ولمن لا يخون ألا نأمنه ؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به ؟ هذا هو النبى الأمى ، الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، وليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه ؛ إذ كل ذلك منه أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر»[٢٠١]

إنه وصف صادق بارع دقيق لأخلاق النبى - ﷺ - وسياسته .

وكان رد المنذر بن ساوى عليه أنه قال : -

قد نظرت فى هذا الدين الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فرأيته للآخرة والدنيا ، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ؟

ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده ، من عظم ما جاء به وسأنظر .

أى سأنظر فيما أصنع من الذهاب إلى الرسول ، أو مكاتبته وإنى قد أسلمت[٢٠٢]

---

(٢٠١) هدى السيرة لعبد الحفيظ فرغلى القرنى صـ١٩٣ جـ١ دار الفكر العربى

(٢٠٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ٣ صـ٣٥٢

وكان الكتاب الثانى للنبى - ﷺ - للمنذر وهو الذى ذكرناه آنفا ، قد حمله العلاء بن الحضرمى أيضا إلى المنذر ، ومعه تكليف من النبى - ﷺ - للعلاء بأن يجمع صدقات أهل البحرين ، ويبعث معه أبا هريرة - رضى الله عنه - وأوصى العلاء به خيرا .

قال أبو هريرة : بعثنى النبى - ﷺ - مع العلاء بن الحضرمى وأوصاه بى خيرا ، فلما فصلنا قال لى : إن رسول الله - ﷺ - قد أوصانى بك خيرا ، فانظر ماذا تحب ؟

قال : قلت : تجعلنى أؤذن لك ، ولا تسبقنى بآمين . فأعطاه ذلك .

وكتب النبى - ﷺ - بعد ذلك للعلاء بن الحضرمى أن يقدم عليه بعشرين رجلا من عبدالقيس - وهم قوم المنذر - فقدم عليه بعشرين رجلا منهم - رأسهم عبدالله بن عوف الأشج ، واستخلف العلاء على البحرين المنذر بن ساوى .(٢٠٣)

ويفهم من ذلك أن العلاء بن الحضرمى قد ولاه النبى - ﷺ - البحرين بدلا من المنذر بن ساوى . .

ثم لم يلبث أن وفد المنذر على النبى - ﷺ - فى وفد آخر . . . .

روى نافع أبوسليمان العبدى مولى المنذر بن ساوى قال :

وفد المنذر بن ساوى من البحرين حتى أتى مدينة رسول الله - ﷺ - ، ومع المنذر أناس ، وأنا غلام لا أعقل أمسك جمالهم .

---

(٢٠٣) الطبقات الكبرى حـ ٤ قسم ٢ صـ ٧٦

قال : فذهبوا مع سلاحهم ، وسلموا على رسول الله - ﷺ - ووضع المنذر سلاحه ، ولبس ثيابا كانت معه ، ومسح لحيته ، وأتى النبى - ﷺ - فسلم عليه

قال المنذر : قال النبى - ﷺ - رأيت منك ما لم أر من أصحابك .

قال : وما رأيت منى يانبى الله ؟

قال : وضعت سلاحك ، ولبست ثيابك ، وتطيبت .

قال المنذر : قلت : يانبى الله ، أهذا شىء جُبِلْتُ عليه أم شىء أحدثته ؟

قال النبى - ﷺ - : لا بل جبلت عليه .

فسلموا على النبى - ﷺ فقال : أسلم عبدالقيس طوعاً وأسلم كثير من الناس كرها ، فبارك الله فى عبد القيس وموالى عبدالقيس .

قال سليمان بن نافع : قال لى أبى : نظرت إلى رسول الله - ﷺ - كما أنى أنظر إليك . . . ومات أبى وهو ابن عشرين ومائة سنة [٢٠٤]

كتابه ﷺ - إلى ملك عمان

وكان يحكم عمان ملكان أخوان هما جيفر - بوزن جعفر - وعبد أو عباد وهما ابنا الجلندى - بضم الجيم وفتح اللام ، وضبطه ابن الأثير بفتح الجيم - وهو - ابن المستكبر بن الحراز بن عبدالعزى بن معولة بن عثمان الأزدى العمانى . [٢٠٥]

أرسل إليهما النبى - ﷺ - مع عمرو بن العاص كتاباً يدعوهما فيه إلى الاسلام ، وهذا نص الكتاب .

---

(٢٠٤) أسد الغابة جـ ٥ صـ ٣٠٢

(٢٠٥) أسد الغابة جـ ١ صـ ٣٧١

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبدالله إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى . . .

أدعوكما بدعوة الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملكما زائل عنكما ، وخيلى تحل - أى تنزل - بساحتكما وتظهر نبوق على ملككما » .

وهذا هو المشهور عند الرواة - أن عمرو بن العاص أرسله النبى - ﷺ - إلى ابنى الجلندى لا الجلندى أبيهما .

فقد ذكر بعضهم عن ابن إسحاق قال : إن النبى - ﷺ - بعث إلى الجلندى عمراً يدعوه إلى الإسلام . فقال الجلندى : لقد عرفت عن هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يَغْلِب فلا يبطر ، ويُغْلَب فلا يهجر ، وأنه يفى بالعهد وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبى ، وأنشد أبياتا منها :

فيا عمرو قد أسلمت لله جهرة

ينادى بها فى الواديين فصيح[٢٠٦]

وابن الأثير لم يذكر الجلندى فى أسد الغابة ، ولكن ابن حجر ذكره فى الإصابة وقال : يحتمل أن عمرو بن العاص أُرْسِلَ إليهم جميعا أى إلى الجلندى وإلى ابنيه . .[٢٠٧]

---

(٢٠٦) شرح المواهب اللدنية حـ٣ صـ٣٥٣

(٢٠٧) أسد الغابة حـ١ صـ٥٣٨

وفى اختيار عمرو بن العاص لأداء هذه المهمة حكمة لا تخفى ، فالمرسل إليهما أخوان عربيان متمكنان من قومهما الأزد . وهما فى حاجة إلى رجل ذى حكمة وعقل وسياسة ، وهى صفات تتوفر فى عمرو بن العاص - رضى الله عنه -

وعمان - بضم العين وفتح الميم مخففة - سميت باسم عمان بن سبأ ، وهى مجاورة لليمن .

وكان النبى - ﷺ - يتوسم فى عمان وأهلها خيرا . روى مسلم عن أبى برزة قال : بعث رسول الله - ﷺ - رجلا إلى قوم فسبوه وضربوه ، فجاء إلى رسول الله - ﷺ - فقال له : لو أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك . وروى أحمد عن عمر قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إنى لأعلم أرضا يقال لها عمان ينضح بناحيتها البحر لو أتاهم رسولى ما رموه بسهم ولا حجر .

ولنترك عمرو بن العاص - رضى الله عنه - يحدثنا عن مهمته التى قام بها فى عمان قال ؛

خرجت وسرت حتى انتهيت إلى عمان . . فقصدت إلى عباد بن الجلندى - وقد بدأته أولا لأنه أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا . . وأنهيت إليه مهمتى ، وأفهمته أننى أحمل إليه وإلى أخيه رسالة من سيد البشر

وكان عبد أو عباد هو الأخ الأصغر ، فلم يشأ أن يستبد بالأمر دون أخيه ، وفى الوقت نفسه أراد أن يستفسر من عمرو عن رسالته التى جاء بها إليهما . فقال لعمرو :

ياعمرو ، إن أخى هو المقدم بالسن والملك ، وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك . ولكن ، ما الذى تدعو إليه ؟

فقال عمرو ؛ أدعوك إلى الله وحده ، وأن تخلع ماعبد من دونه وتشهد أن محمدا ـ ﷺ ـ عبده ورسوله . .

وهنا أراد عبد أن يثير حفيظة عمرو ، وأن يستخرج ما فى دخيلة نفسه ، وأن يختبر عقله وذكاءه .

إنه سمع عن عمرو بدون شك ـ فقد كان معروفا مشهورا بين العرب ، وخصوصا أنه كان من زعماء قريش . . . ولقريش مكانتها التى لا تخفى على أحد ، وكان العاص بن وائل السهمى والد عمرو أحد أقطاب قريش . . .

قال عباد لعمرو :

ياعمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ، فإن لنا فيه قدوة ؟

قال عمرو : فقلت له : إن أبى قد مات ولم يؤمن بمحمد ـ ﷺ ـ ولوددت أنه كان أسلم وصدق به .

ثم استطرد عمرو يبين له أن اتباع من مضوا على الكفر ليس مما يحمد عليه صاحبه ، وأن التقليد الأعمى ليس من شأن العقلاء من الناس ، وكأنه قد أراد أن يشير بذلك إلى قوله ـ تعالى ـ

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢٠٨)

---

(٢٠٨) الزخرف ٢٢ ، ٢٣

ثم قال عمرو لعباد ؛ وقد كنت على مثل رأى والدى ، حتى هدانى الله بالإسلام .

فقال له عباد : فمتى تبعته ؟

قال عمرو : قريبا . .

ولعل قصة إسلام عمرو قد أثارت فضول عباد ، فأراد أن يعرف منه هذه القصة ، فقال له : أين كان إسلامك ؟

فأخبره عمرو بقصة إسلامه التى سبق أن ذكرناها . .

قال عمرو : وأخبرته كذلك بأن النجاشى أسلم . .

وقد أثار هذا الخبر عجب عباد ، كيف يسلم ملك دون أن يثور عليه قومه ؟

ثم كيف يسلم ملك وهو على دين سماوى ، تحيط به قساوسة ورهبان يؤمنون بكتاب جاء به نبى مرسل ؟

لقد أثار هذا الخبر اهتمام عباد وهو ملك مثل النجاشى ، فأراد أن يستوثق من هذا الخبر فقال له : ياعمرو ، كيف صنع قوم النجاشى بملكه حين أسلم ؟

فأجابه عمرو قائلا : لقد أقروه على ملكه واتبعوه .

قال عباد : والأساقفة ؟ والرهبان ؟

قال عمرو : تبعوه . .

قال عباد : تبعوه ؟

قال عمرو : نعم .

وبدا كأنه لم يصدق ما سمع فقال لعمرو : ياعمرو ، انظر ما تقول . لقد

استعظم عباد وقوع ذلك ، واتهم عمراً بالكذب فى قرارة نفسه ، وظن أنه يكذب فى الخبر الذى أخبره به لحاجة فى نفسه ، فأردف يقول لعمرو : إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب .

فقال عمرو - فى ثقة وتأكيد - : وما كذبت ، وما نستحله فى ديننا . . . . وحقا ذلك . . . . . فإن الصدق من الفضائل التى اهتم بها الإسلام اهتماما كبيرا لأنه اعتبره جماع الفضائل كلها - وما التزم إنسان الصدق إلا كملت صفاته جميعا . وما اتسم إنسان بالكذب إلا سقط فى كافة مواقفه وتصرفاته وسلوكه . وسقط فى أعين الناس كذلك .

وتردد فى صدر عباد خاطر ، يهتم به كل من كان مثله فى مُلْك ، فهو يدرك مقدار نفوذ القياصرة والأكاسرة على ما تحت أيديهم من ولايات . والنجاشى معروف بتبعيته لقيصر . . فماذا كان موقف هرقل من النجاشى بعد إسلامه . هذا ما جال بخاطر عباد . . فقال لعمرو بن العاص :

ما أرى يا عمرو أن هرقل قد علم بإسلام النجاشى . .

ولكن عمراً بادر فأخبره : بلى . قد علم بإسلامه .

فقال عباد : بأي شيء علمت ذلك ؟

فأجابه عمرو قائلا : كان النجاشى يخرج خَرْجاً لهرقل فلما أسلم وصدق بمحمد - ﷺ - قال : لا والله لو سألنى هرقل درهما واحدا ما أعطيته . فبلغ ذلك هرقل . فقال له أخوه :(٢٠٩) أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين دينا محدثا ؟

---

(٢٠٩) أخوه اسمه : يَنَّاق - بياء فنون بعدها ألف ثم قاف . وهو علم ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة

فأجابه هرقل قائلا : رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا أنى ضنين بملكى لصنعت كما صنع .

فازدادت دهشة عبد أو عباد ـ على خلاف فى ذلك ـ واستكثر أن يكون ذلك قد حدث من هرقل ، لقد استبعده من النجاشى فكيف يصح وقوعه من هرقل ؟ فأعاد الكرة على عمرو قائلا : ياعمرو ، انظر ما تقول .

ولكن عمراً قال له : لقد صدقتك القول .

وفعل هذا الحديث فعله فى نفس عباد .

كيف يؤمن النجاشى فعلا بهذا الدين ؟ وكيف يهم به قيصر ثم ينكص عنه خوفا على ملكه ؟ أى سحر فى هذا الدين ؟ وأى قوة له ؟ ماذا يوجد فيه من إغراء يشد الناس إليه ، وتهون الدنيا بجانبه ، ويترك الملوك ملكهم من أجله ؟ فأقبل عباد على عمرو مستفسرا . وقال له : أخبرنى ياعمرو عما يأمر به هذا الدين وعما ينهى عنه ؟ .

فأجابه عمرو قائلا : إنه يأمر بطاعة الله ـ عز وجل ـ وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب .

لقد استعمل عمرو أسلوب الإطناب لأن مقام الخطابة والبيان يقتضى ذلك . وإلا فكل ما ذكره من منهيات داخل تحت قوله : وينهى عن معصيته . وهذا من وجوه البلاغة ، فلكل مقام مقال .

وبدا الاقتناع على وجه عباد تماما . . وأكد ذلك بما قاله لعمرو . . فقد قال لعمرو : ما أحسن هذا الذى يدعو إلى هذه الفضائل . . ولو كان أخى

يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً

ولكن عمرو بن العاص - ﷺ - سارع يقول له : إن يسلم أخوك أقره رسول الله - ﷺ - على ملكه - وأمره أن يأخذ صدقات الأموال من الأغنياء فيردها على الفقراء . .

فازداد عباد إعجابا بهذا الدين فقال : إن هذا الخلق حسن .
وأراد عباد أن يعرف شيئا عن الصدقة . فقال لعمرو : وما الصدقة ؟
فأقبل عمرو يبين له ما فرض الله - تعالى - وبينه رسول الله - ﷺ - من الصدقات فى الأموال حتى انتهى إلى الإبل .
فقال عباد : ياعمرو ، يؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟

قال عمرو : نعم
قال عباد : ما أرى - ما أظن - قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا - أى يقرون بهذا .
وبعد هذه المحاورة التى كشفت أمام عباد حقائق الإسلام ومبادئه وتكاليفه اطمأنت نفسه للإسلام . ولكن الذى فى يده الأمر وهو أخوه جيفر لا يعلم عن ذلك شيئاً . .

وأراد عباد أن يمهد طريق اللقاء بين عمرو وجيفر . وليس طريق اللقاء فقط ، بل طريق الإسلام أيضا . .

وذلك يحتاج إلى وقت . . قال عمرو . . فمكثت عنده أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى .

ثم دعانى يوما لأدخل معه على أخيه ، فدخلت عليه ـ فأخذ أعوانه بضبعى .[٢١٠] فقال الملك : دعوه

قال عمرو : فأرسلت ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس . لقد جرت عادتهم على ذلك ، وهذا من عنجهية الملوك ، وفى شأن هؤلاء وأمثالهم ورد قوله ـ ﷺ ـ : « من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار »

ثم نظر الملك إلى عمرو وقال له : تكلم بحاجتك .

قال عمرو : فدفعت إليه الكتاب مختوما ، ففض ختمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه عباد فقرأه مثل قراءته حتى استوفاه إلى آخره .

ولكن عمرا لاحظ أن استقبال جيفر للكتاب ليس كاستقبال عباد له ، لقد بدا أن عبادا قد تفتحت نفسه للإسلام ، واستجاب قلبه له . أما جيفر فقد كان متجهما . وكأن الكتاب قد سبب له ضيقا . . وكأن أخاه لم يفلح فى إذهاب ما بنفسه بالنسبة لهذا الدين طوال هذه الفترة التى احتجب فيها عمرو عن لقائه . وأخيرا قال جيفر لعمرو : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟

فقال له عمرو : تبعوه ورغبوا فى هذا الدين فأسرع البعض إلى قبوله

---

(٢١٠) الضَّبْع ـ بفتح فسكون ـ العضد والجمع أضباع مثل فرخ وأفراخ ، وهى هنا مثنى حذفت نونه للإضافة إلى ياء المتكلم ـ والضَّبُع بضم الباء وهى مؤنثة دائما حيوان متوحش يجمع على ضباع ، وتطلق أيضا على السنة المجدبة

وتريث البعض إلى أن هداه الله وحسن إسلامه

قال جيفر : ومن معه ؟

قال عمرو : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله لهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الحرجة . .[211] وإن لم تسلم اليوم وتتبعه فاتك الخير كل الخير . . فأسلم تسلم ، ويستعملك رسول الله على قومك ، فتبقى على ملكك مع الإسلام . . . . . . هذا مع سعادة الدارين والراحة من القتال .

لقد كان عمرو غاية فى الشجاعة واللباقة والحكمة ، فقد أوعد ووعد وأنذر وبشر ، مع أنه واقف بين يدى ملك أبى عليه الجلوس فى مجلسه ، وهنا قال جيفر : دعنى يومى هذا وارجع إلىَّ فى غد .

فخرج عمرو ، ورجع إلى عباد ، فقال له : ياعمرو ، إنى أرجو أن يسلم أخى إن لم يضن بملكه . . . . وجاء الغد ، وقصد عمرو إلى جيفر كما وعده . فأبى أن يأذن له . . فلم ييأس عمرو ، وانصرف إلى أخيه فأخبره ، فأخذه عباد وأوصله إليه . فلما رآه جيفر قال له : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً شيئاً مما فى يدى ، وهو لاتبلغ خيله موضعى ، وإن بلغت خيله هنا ألفت قتالا ليس كقتال من لاقى .

ووجد عمرو أن الحكمة تقضى بألا يرد على مثل هذا الرجل الذى لم يحسن التفكر فى عاقبة أمره . . لقد رأى الجزيرة العربية كلها قد دانت

---

(٢١١) الحرجه ـ بفتحات ـ الشجر الملتف ، ويريد بها الضيق

بالإسلام وأقرت به قريش التى لم تترك وسيلة إلا حاربت بها الإسلام ، فكيف يبقى جيفر هذا سادرا فى عنجهيته يلوح بالقوة والعصيان . .

ولم يرد عليه عمرو إلا بكلمة واحدة هى : إنى خارج غداً .

وكان هذا الرد أبلغ من أى رد .

لم يضيع عمرو وقته فى نقاش ضائع مع مثل هذا الذى ركب رأسه ، فاولى به أن يرى بعينه لا أن يسمع بأذنه . . وانصرف عمرو .

فلما أيقن جيفر بمخرج عمرو خلا به أخوه فقال له : فكر ياجيفر فى هذا الدين فقد استجاب له من هم أفضل منا ، وحكى له ما سمعه من عمرو . . .

فأصاخ جيفر إلى كلامه ، فلما أصبح أرسل إلى عمرو بن العاص ، فأجابه إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدقا بما جاء به النبى - ﷺ - وأطلقا يد عمرو فى جمْع الصدقة والحكم فيما بينهم بما أنزل الله . قال عمرو : وكانا معى عونا على من خالفنى . .

وظل عمرو بعمان حتى توفى النبى - ﷺ - . . [٢١٢]

رسالة النبى إلى هوذة الحنفى باليمامة

كان هوذة بن على من بنى حنيفة ملكا على اليمامة . . [٢١٣] وهى بلاد بالبادية كان اسمها « الجو » فسميت باسم جارية زرقاء كانت تبصر الركب

---

(٢١٢) راجع فى هذه المادة - طبقات ابن سعد - المواهب اللدنية - السيرة الحلبية

(٢١٣) فى حياة الحيوان - هَوْذة - بفتح الهاء وهى ضرب من الطير ، وضبطها الزرقانى بضم الهاء نقلا عن الصحاح

من مسيرة ثلاثة أيام ، فكان يقال لهذه البلاد : بلاد اليمامة ، ثم أصبحت « اليمامة » علما على البلاد لكثرة ما أضيفت إليها . وهى مشهورة بكثرة النخيل من سائر بلاد الحجاز ، وهى دون المدينة فى وسط الشرق عن مكة ، على ست عشرة مرحلة من البصرة ، وعن الكوفة نحوها .

وقد حمل رسالة النبى إلى هذا الملك سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ العامرى ،وهو من السابقين إلى الإسلام ، المهاجرين إلى الحبشة هو وزوجته ، وولد له فى الحبشة غلام سماه سليطا باسمه ، فهو سليط بن سليط بن عمرو . . . . . وقد شهد سليط بدرا فى رأى بعض الرواة ، ولكن ابن سعد ذكر أنه شهد أحدا وبقية المشاهد بعد ذلك مع رسول الله ـ ﷺ ـ واستشهد سليط فى معركة اليمامة سنة اثنتى عشرة فى خلافة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وكان سليط يختلف كثيرا إلى اليمامة ـ أى يتردد عليها ـ فمن أجل ذلك اختاره النبى ـ ﷺ ـ لهذه المهمة . .

وكان نص الكتاب الذى حمله سليط لهوذة هو ؛

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر ـ وينتهى إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك »

وقدم سليط بهذه الرسالة إلى هوذة فقدمها له . . فأنزله وحباه وأكرمه . وفض هوذة خاتم الكتاب ثم قرأه . وأخذ يفكر فى مضمونه . . عند ذلك قدم له سليط النصيحة فقال له :

يا هوذة إن سودتك أعْظُمٌ حائلة[٢١٤] وأرواح فى النار ، وإنما السيد من مُتِّع بالإيمان ثم زود بالتقوى ، إن قوما سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وإنى آمرك بخير مأمور به ، وأنهاك عن شر منهى عنه ، آمرك بعبادة الله ، وأنهاك عن عبادة الشيطان ، فإن فى عبادة الله الجنة ، وفى عبادة الشيطان النار ، فإن قبلت نلت مارجوت ، وأمنت ما خفت ، وإن أبيت خسرت كل شيء والله ناصر دينه ..

فقال هوذة : ياسليط ، سودنى ـ جعلنى سيدا ـ من لو سودك شرفت به ، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور ، فقدته الآن .. فموضعه من قلبى هواء . ـ أى فارغ ـ ، فاجعل لى فسحة يرجع إلىَّ رأيى ثم أجيبك إن شاء الله .

وأخذ هوذة يديم التفكير ويقلب الآراء ويزن الأمور ولكنه لم يستقر على رأى يطمئن إليه ويملأ عليه خاطره ووجدانه ويشغل به قلبه وجنانه .

ولم يرد هوذة على الكتاب بالإيجاب أو السلب ، وهذا معنى قول الرواة : فردَّ ردّاً دون رد .

فهو لم يستجب للإسلام كما استجاب غيره ، وفى الوقت نفسه لم يرفض الإسلام كما رفض غيره .

ولكنه كتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً :

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب

---

(٢١٤) سودتك : من السيادة أى سيادتك على قومك ، وأعظم جمع عَظْمة ، وحائلة أى بالية . يعنى أن سيادتك على قومك زائلة وليست باقية دائمة

تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك . .

ماذا كان يريد هوذة من رسالته هذه ؟

ألم يقل له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم تسلم وأقرك على ما تحت يدك ؟

ماذا يطلب أكثر من ذلك ؟

أغلب الظن أنه كان يريد أن يكون له نصيب فى النبوة أو الخلافة

لقد تجاوز هوذة قدره حين فكر فى هذا الأمر . .

وكأنَّ النبوة أمر من أمور الدنيا يستطيع أن يحصله الانسان بذكاء أو اجتهاد أو ميراث . . وغاب عنه أن الله أعلم حيث يجعل رسالته . .

وحين قرأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الرد العجيب قال : لو سألنى سَيَابة[٢١٥] من الأرض ما فعلت . وسوف يخسر كل شيء . .

ومات هوذة على كفره ، وحق فيه ما حق فى الكافرين الذين وصفوا بأن أفئدتهم هواء ، ولقد حكم هو على نفسه بذلك حين رد على سليط رده الذى ذكرناه .

لقد جاء جبريل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو منصرف من فتح مكة يخبره بوفاة هوذة على كفره ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ وسوف يقتل بعدى[٢١٦] .

---

(٢١٥) سَيابة ـ بفتح السين وفتح الياء المخففة من غير تشديد ـ : ناحية أو قطعة ، وبعضهم قال : معناها البلحة أو البسرة ـ كناية عن قلة الشيء وصغره ـ

(٢١٦) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ٣ صـ٣٥٦

فكان كذلك ، وظهر مسيلمة الكذاب باليمامة وادعى النبوة .

وقد اشترك فى قتل مسيلمة جماعة منهم خالد بن الوليد ـ رضى الله عنهم ـ

هل كان هوذة صاحب دين ؟

ويبدو أن هوذة كان نصرانياً ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن ظفر فى كتابه قال : روى عن عبد الله بن مالك أنه قال :

قدمت اليمامة فى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ فجلست فى ناد بِحِجر ـ قال محمد : وهى قصبة اليمامة ـ فقال رجل فى النادى ـ وكان هذا الرجل من أصدقاء هوذة ـ :

بينما أنا يوماً عند هوذة ذى التاج ـ وكان هوذة نصرانياً من ملوك العرب . قال الرجل : فدخل هوذة ، فقيل له : هذا راهب دمشق يستأذن فأذن له ، فدخل فرحب به هوذة وتحادثا .

فقال له الراهب : ما أطيب بلاد الملك .

قال هوذة : أجل هى ريف العرب وأصح بلادها .

قال الراهب : أين بلاد محمد الذى يدعو الناس إلى دينه من بلاد الملك ؟

فقال هوذة : هو منا قريب ، بيثرب ، وقد جاءنى كتابه يدعونى فلم أجبه إلى ما سأل .

قال الراهب : لم ؟

قال هوذة : ضننت بملكى وخشيت أن يذهب إذا صرت تبعاً له .

فقال الراهب : لو اتبعته لملكك وأقرك ، والخير لك فى اتباعه ، فإنه

النبى الذى بشر به عيسى ووصفه فى الإنجيل بصفته .

فقال هوذة للراهب : فما لك لا تتبعه ؟

قال : أجدنى أحسده ، وأحب الخمر وهو يحرمها .

فقال هوذة : ما أرانى إلا متبعه وسائله أن يقرنى على ملكى ، ولقد وعدنى رسوله بذلك .

ثم أمر كاتبه ، فكتب كتاباً وبعث به إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وبعث إليه رسولاً بهدية . .

وشعر قومه بذلك فأتوه وقالوا : إن تركت دينك لم نملكك علينا ، فعدل عما كان قد عزم عليه وأمر بعودة الرسول ولم يبعث بالرسالة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - خوفاً على ضياع ملكه . .

ولبث الراهب عنده فى كرامة ، وكان يفد إليه كل عام .

قال الرجل : فلقيت الراهب مرة فقلت له : أحق ما قلت لهوذة فى أمر محمد ؟

قال : نعم ، فاتبعه .

قال الرجل : فرجعت إلى أهلى فتجهزت ، وأتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بما سمعت وآمنت به[٢١٧] .

وذكر الواقدى قصة مثل هذه قال : إن أركون دمشق وهو عظيم من عظماء النصارى - كان عند هوذة ، فسأله عن النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(٢١٧) انظر خير البشر بخير البشر لابن ظفر الحموى صـ٧٦ ط الأهرام ١٩٩٠ م

فقال : جاءنى كتابه يدعونى إلى الاسلام فلم أجبه .

قال الأركون : لِمَ لم تجبه ؟

قال : ضننت بدينى وأنا ملك قومى ، ولئن اتبعته لن أملك .

قال : بلى والله لئن اتبعته ليملكنك ، وإن الخير لك فى اتباعه ، وإنه للنبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل : محمد رسول الله . وقد ذكر ابن حجر فى الإصابة أركون هذا وقال عنه : أدرك الجاهلية والاسلام فأسلم على يدى خالد بن الوليد فى عهد أبى بكر(٢١٨) ـ فهو تابعى ـ على ذلك ـ

لقد تضافرت إذن أسباب الهداية أمام هوذة ، ولكن الشقاوة غلبت عليه وصدق قول الحق :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (٢١٩)

رسالته ﷺ إلى الحارث الغسانى

كان الحارث بن أبى شمر الغسانى أمير دمشق وكان مقيماً بغوطتها ، وغوطة دمشق مكان معروف بجماله وهو متنزه حافل بالماء والشجر قال عنه أمير الشعراء شوقى

---

(٢١٨) شرح المواهب اللدنية للزرقانى حـ٣ صـ٣٥٦ قال : وذكره ابن عساكر فى ترجمة حفيده : ابراهيم بن محمد صالح بن سنان بن يحيى بن أركون . وأركون بفتح الهمزة وضم الكاف : العظيم من الروم

(٢١٩) القصص ٥٦

« دمشق روح وجنات وريحان » .

كان الحارث أميراً عليها من قبل هرقل ملك الروم .

وكان الرسول الذى أرسله النبى - صلى الله عليه وسلم - إليه هو شجاع بن وهب بن ربيعة ، ويكنى أبا وهب أسلم قديماً ، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وشهد بدراً واستشهد فى اليمامة وهو ابن بضع وأربعين سنة . .

وكتب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى هذا الكتاب المرسل إلى الحارث بن أبى شمر ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر .

سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق ، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك » وختم الكتاب .

وانصرف شجاع لوجهه ، حتى أتى الغوطة ، فوجد الحارث مشغولاً فى تهيئة الضيافة لقيصر ، حيث كان قيصر فى طريقه من حمص إلى بيت المقدس فى زيارة شكر لله أن نجاه الله من الفرس ونصره عليهم ، وهذا مصداق لما أخبر به القرآن الكريم .

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ (٢٢٠)

---

(٢٢٠) الروم ١ : ٥

قال شجاع : فأقمت على باب الحارث يومين أو ثلاثة ..

وأخيراً قلت لحاجبه : إنى رسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الحارث ، وأنا أريد أن أصل إليه .

فقال الحاجب : إنك لن تستطيع أن تصل إليه حتى يخرج يوم كذا .

وكان الحاجب رومياً ، واسمه : « مِرى » ـ بكسر الميم مخففاً ـ فجعل يسأل شجاعاً عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يدعو إليه .

وكان شجاع يجيبه عما يسأل عنه ، فيجد لإجابته وقعاً طيباً فى نفس هذا الحاجب ، حتى لقد كان يغلبه البكاء من الرقة والخشوع حين يسمع أخبار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا من علامات الايمان ـ وقد سجل القرآن ذلك فى حق بعض أهل الكتاب الذين كانوا يَرِقُّون حين يسمعون القرآن فيبكون قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٢٢١)

وقال مرى لشجاع : إنه قرأ الانجيل وعرف منه صفة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما سمعت منك صفاته وأخباره تأكد لى أنه هو نفسه الموصوف فى الإنجيل .

ثم قال مرى لشجاع : وكنت أظن أنه سيخرج بالشام ، فإذا به يخرج بأرض القرظ ـ كناية عن أرض العرب ـ

---

(٢٢١) المائدة ٨٣

وقال مرى : إنى أومن بهذا النبى وأصدقه ، ولكنى أخاف من الحارث أن يقتلنى إن أنا أعلنت ذلك .

وكان مرى يكرم شُجَاعاً ويحسن ضيافته ، ويقول له : إن الحارث ميئوس من إيمانه ، لأنه يخشى قيصر ويهابه . .

وحانت فرصة لقاء شجاع للحارث ، فقد أذن له الحارث بالدخول عليه .

فتقدم إليه شجاع ودفع الكتاب إليه ، فقرأه ، فامتلأ غيظاً ورمى بالكتاب وقال مهدداً : من ينتزع ملكى منى ؟ . . أنا سائر إليه . . وهدد وتوعد ونادى فى الناس بالاستعداد للحرب واستنفرهم للقتال . .

قال شجاع : فلم يزل جالساً حتى الليل ، وقد أمر بالخيل أن تُنعل . . ومعنى ذلك أن تُعَد لسير طويل وجهاد شديد . .

ثم قال لشجاع : أخبر صاحبك بما ترى . .

واستغنى بذلك عن كتابة خطاب . . لقد أراد أن يكون رده عملياً .

ولم يتعجل شجاع العودة ، بل تلبث قليلاً لأنه علم أن الحارث كتب لقيصر فى هذا الشأن .

فأراد أن يعرف نتائج ذلك ، ليعود ببيان شاف واف . .

كتب الحارث لقيصر يخبره بأمر هذه الرسالة التى وافته من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويذكر له استعداده وتهيؤه للقتال .

ووصلت الرسالة الى قيصر فى الوقت الذى كان مازال دحية بن خليفة الكلبى لدى قيصر يسلمه رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه .

وقد علمنا فيما سبق أن قيصر كان على بينة بأن النبى - ﷺ - هو نبى آخر الزمان الذى أخبرت به الكتب السابقة ، وبشر به عيسى - عليه السلام - فى الانجيل .

فكتب قيصر إلى الحارث يقول له : لا تسر إليه ، والْهُ عنه - يعنى لا تذكره - واشتغل بإيلياء - أى ببيت المقدس .

ويعنى قيصر بذلك أن يهيىء الحارث لقيصر فى بيت المقدس مكاناً ينزل فيه . وكان قيصر قد نذر أن يسير على قدميه إلى بيت المقدس من حمص ، وقيل : من القسطنطينية - شكراً لله - تعالى - فأعدوا له بساطاً نثروا عليه الرياحين ليمشى عليه .

كما طلب من الحارث أيضاً أن يلقاه ببيت المقدس .

فلما وافت هذه الرسالة من قيصر للحارث سأل عن شجاع فعلم أنه مازال مقيماً لم يبرح ، فاستدعاه ، وتلطف له . وقال له : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟

قال شجاع : فقلت له : غداً .

فأمر له بمائة مثقال من الذهب .

ووصله الحاجب الرومى - مرى - يحمل الهدية ، وقال للحارث : أقرأ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - السلام وأخبره أنى متبع دينه .

ولذلك عده ابن حجر من الصحابة وترجم له فى كتابه الإصابة فى تمييز الصحابةباسم : مِرى الرومى(٢٢٢) .

---

(٢٢٢) الإصابة جـ ٦ صـ ٢٨٧

قال شجاع : فعدت إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبرته بخبر الحارث فقال : سيذهب ملكه .

قال : وأقرأته من ـ مرى ـ السلام وأخبرته بما قال ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدق[٢٢٣] .

أما ابن هشام فيقول : إن شجاع بن وهب كان رسولاً إلى جبلة بن الأيهم . ولا مانع مِنْ أن يكون قد أرسل إليهما معاً ـ أى إلى جبلة والحارث ـ . . وهما فى طريق واحد . . فقد كان جبلة ملكاً على غسان .

مَنْ جبلة بن الأيهم ؟

ذكر ابن سعد فى طبقاته أن النى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب إلى جبلة ابن الأيهم ملك غسان يدعوه إلى الاسلام ، فأسلم ، وكتب بإسلامه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم[٢٢٤] . ولكنه لم يذكر نص الخطاب ، وحضر جبلة بن الأيهم إلى المدينة فى عهد عمر بن الخطاب ، بعد أن كتب إليه يستأذنه فى القدوم عليه ، فسُرَّ عمر بقدومه وأذن له .

فخرج جبلة فى خمسين ومائتين من أهل بيته . حتى إذا قارب المدينة عمد فألبسهم غالى الثياب ، ثم عمد إلى الخيل فقلدها بقلائد الذهب والفضة ، وألبسها الديباج وغالى الحرير ، ووضع تاجه على رأسه ، فلم يبق أحد إلا خرج ينظر إليه وإلى زيه وزينته .

فلما دخل على عمر ـ رضى الله عنه ـ رحب به وأدنى مجلسه ، وأقام بالمدينة مكرماً ، وخرج عمر حاجاً فاصطحبه معه .

---

(٢٢٣) شرح المواهب اللدنية للزرقانى حـ٣ صـ٣٥٧

(٢٢٤) الطبقات الكبرى حـ١ قسم ٢ صـ٢٠

وحين طاف جبلة بالبيت وطىء رجل من فزارة إزاره فغضب جبلة ولطم الفزارى لطمة شديدة أصاب بها أنفه وأسنانه .

فشكا الفزارى لعمر ، فاستدعى جبلة ، فقال له : لم فعلت ذلك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، تعمد أن يطىء بقدمه إزارى ، ولولا حرمة البيت لضربت عنقه بالسيف .

فقال له عمر : أما أنت فقد أقررت . فإما أن ترضيه وإلا أقتص منك .

فقال جبلة : فتصنع بى ماذا ؟

قال عمر : مثلما صنعت به .

قال جبلة : أتقتص له منى سواء وأنا ملك وهو سوقى ؟

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ الإسلام سوى بينكما ، ولا فضل لك عليه إلا بالتقوى .

فقال جبلة : إن كنت أنا وهذا الرجل سواء فى هذا الدين فأنا أتنصر . . . كـنت أظـن يا أمير المؤمنين أن أكون فى الاسلام أعز منى فى الجاهلية .

فقال له عمر : إذاً أضرب عنقك .

فقال جبلة : فأمهلنى الليلة حتى أنظر فى أمرى .

قال عمر : فذلك إلى خصمك .

فقال الرجل : أمهلته يا أمير المؤمنين .

فأذن له عمر ـ رضى الله عنه ـ فى الانصراف ، فركب فى بنى عمه وهرب ليلا إلى القسطنطينية ، ودخل على هرقل وتنصر هناك ، ومات هنالك نصرانياً .

وقد سر هرقل بقدومه فزوجه ابنته وقاسمه ملكه وجعله من سُمَّاره ، وبنى له مدينة بين طرابلس واللاذقية سماها باسمه[٢٢٥] .

ويروى ابن سعد قصة أخرى فى تنصره قال فيها :

لم يزل جبلة مسلماً حتى زمن عمر بن الخطاب ، فبينما هو فى سوق دمشق إذ حدثت مشادة بينه وبين رجل من مزينة ، فوثب المزنى فلطم جبلة فأخذ أعوان جبلة المزنى وانطلقوا به الى أبى عبيدة بن الجراح - وكان والياً على الشام بعد أن فتحها العرب ، فقالوا له : هذا لطم جبلة .

قال أبو عبيدة : فليلطمه - أى يقتص منه بمثل ما اعتدى به عليه .

فقالوا : بل يقتل .

قال أبو عبيدة : لا .

فقال أعوان جبلة : تقطع يده .

قال أبو عبيدة : لا . إنما أمر الله - تعالى - بالقصاص بالمثل . .

فقال جبلة : أو ترون أنى جاعل وجهى نِدّاً لوجه رجل من السوقة ؟ بئس الدين هذا .

ثم ارتد نصرانياً ، ورحل بقومه حتى دخل أرض الروم ، فبلغ ذلك عمر فشق عليه ، وقال لحسان بن ثابت : يا أبا الوليد ، أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانياً ؟

فقال حسان : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولِمَ ؟

قال : لطمه رجل من مزينة .

---

(٢٢٥) السيرة الحلبية حـ٣ صـ٣٠٦

فقال حسان : كان يجب أن تقطع يد المزنى .

فقام إليه عمر بالدرة فضربه بها تأديباً له ، لأن هذا كلام لا يصح أن يصدر من مسلم ، لأن القصاص فى الاسلام بالمثل ، وإنما حمل حسان بن ثابت على قول ما قال ـ ما كان يدين به من فضل للغساسنة حين كان يفد إليهم وينال جوائزهم ، وله فيهم قصائد رائعة من عيون الشعر يتغنى بها المغنون ويتحدث بها الركبان فى كل مكان . إلا أن ذلك لا يسوغ له أن يعتبر أن جبلة أفضل من هذا الرجل الذى أكرمه الله بالاسلام . .

لقد ارتد جبلة لأنه رفض بعض تعاليم الاسلام ، والإسلام يرفض أن تقبل بعض تعاليمه ويرفض بعضها ، والذي يدين به يجب عليه أن يعى ذلك جيداً ، ولو كان جبلة هذا مقبلاً على الاسلام بقلبه لهان فى سبيله كل ما درج عليه من عز وسلطان ، ولأدرك أن كل ذلك بهرج زائف وزخرف باطل ومتاع زائل ، وأن السعادة الحقيقية إنما هى فى الفوز برضوان الله الذى يقول :

« قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا[٢٢٦] »

إن الاسلام لم يخسر شيئاً بارتداد جبلة ، ولكنه كسب تطبيق مبادئه واعتزازه بتعاليمه ، وإصراره على أخذ الحق لأصحابه . . ومن أجل ذلك جاء الاسلام ـ وإلا فما الفائدة التى يكسبها الناس من وراء هذا الدين الذى رحبوا به وأقبلوا عليه إن لم يجدوا فى ظله النصفة من الظالم والأمن من الخوف ، والنجاة من الجور .

---

(٢٢٦) النساء ٧٧

لقد جاء الاسلام بمبادىء أهمها بعد توحيد الله ـ تعالى ـ إقرار الحق ، وإشاعة العدل ، ونشر المساواة ، وإحلال الأخلاق الاسلامية الرفيعة محل الكبر والتعالى والغرور الزائف .

ما خسر الاسلام ، ولكن الخاسر الحقيقى هو جبلة ـ فماذا يجنى الانسان إذا كسب العالم وخسر نفسه ؟

إن أجمل ما يحققه الانسان ليس هو زهرة الدنيا وزخارفها الباطلة بل الفوز برضا الله فى جنة عرضها السموات والأرض تجرى من تحتها الأنهار تهون بجانبها أنهار الدنيا مهما عذُب ماؤها ، وطاب نسيمها ، وورفت ظلالها ، وامتدت القصور على ضفافها .

ولو آمن جبلة بالمسيح حقاً لعلم أن ما جاء به نبى الاسلام هو الذى بشر به المسيح عليه السلام ، ودعا إليه ، ولما استنكر تعاليمه التى أخرجت الناس من الظلمات إلى النور ، وقد كان المسيح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ قدوة فى الزهد والتواضع والعفو والرحمة وإنكار الذات . . أليس هو القائل:من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن نازعك الثوب فاعطه الرداء أيضاً ؟ . .

ندم جبلة

وقد حَدَّث مَنْ رأى جبلة بعد ارتداده عن الاسلام أنه ندم ندماً شديداً على ذلك ، ولكن بقية من كبر حالت بينه وبين الرجوع إلى الحق .

ولنستمع الى أبى الفرج الأصفهانى يحدثنا عن قصة ندمه هذه فيقول :

كتب عمر بن الخطاب كتاباً إلى هرقل ، وجه به رجلاً من أصحابه اسمه جثامة بن مساحق الكنانى .

فلما انتهى الرجل الى هرقل أجاب إلى كل شىء سوى الاسلام .

فلما أراد الرجل الانصراف قال له هرقل : هل رأيت ابن عمك الذى جاءنا راغباً فى ديننا ؟ يقصد جبلة بن الأيهم فهو عربى من الغساسنة الذين حكموا الشام .

فقال جثامة : لا

قال له هرقل : فالقه .

قال جثامة : فتوجهت إليه ، فلما انتهيت إلى بابه وجدت من البهجة والحسن والسرور ما لم أر بباب هرقل .

فلما سلمت عليه رد السلام ورحب بى وألطفنى ولامنى على تركى النزول عنده ، ثم أقعدنى على كرسى من الذهب ، فانحدرت عنه ، فقال لى : مالك ؟

فقلت : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن هذا .

فقال جبلة أيضا مثل قولى ـ أى ـ صلى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال لى : يا هذا إنك إذا طهرت قلبك لم يضرك ما لبسته ولا ما جلست عليه .

ـ وهذه فلسفة أهل الدنيا التى يحاولون بها استحلال ما حرمه الله ـ

قال جثامة : ثم أقبل علىّ يسألنى عن الناس ، وألحف فى السؤال عن عمر ـ رضى الله عنه ـ ثم جعل يفكر حتى رأيت الحزن فى وجهه .

فقلت : ما يمنعك عن الرجوع إلى قومك وإلى الإسلام ؟

قال : أَبَعْدَ الذى قد كان ؟

قلت : قد ارتد الأشعث بن قيس ومنع الزكاة وحارب بالسيف ، ثم

رجع إلى الإسلام ، فقبل منه . ثم أخذا يتحدثان ، حتى أومأ جبلة إلى غلام ، فمد أمامهما خوانا ، ووضعت فوقه أطباق من ذهب ، ولكن جثامة أعرض عنها ، فرفعت ووضعت بدلا منها أطباق أخرى . .

ثم أقبلت جوار فجعلن يتغنين بشعر لحسان بن ثابت يمدح فيه جبلة وقومه : ومنه قوله :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول
يغشون حتى ماتهر كلابهم لايسألون عن السواد المقبل

ومنه قوله :

لمن الدار أقفرت بمعان بين شاطى اليرموك فالصّمّان

وكان جبلة يسمع وهو يشرب الخمر ، يعب منها عبًا .

فاهتز جبلة سرورا ، وقال لجثامة : أتعرف هذه المنازل ؟

قال : قلت : لا .

قال : هذه منازلنا فى ملكنا بأكناف دمشق ، وهذا شعر ابن الفريعة حسان بن ثابت ، شاعر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فينا

قال : قلت : أما انه الآن مضرور البصر كبير السن .

فقال جبلة : يا جارية ، هات .

فأتته بخمسمائة دينار وخمسة أثواب من الديباج ، فقال لى : ادفع هذه إلى حسان ، وأقرئه منى السلام ، ثم أرادأن يعطينى مثلها فأبيت ، فبكى . ثم قال لجواريه : أبكينني . فوضعن عيدانهن ، وأنشأن يقلن أبياتاً قالها جبلة نفسه يصور بها حاله ، وهى :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى فيها لجاج ونخوة ... وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى ، وليتنى ... رجعت إلى القول الذى قال لى عمر
ويا ليتنى أرعى المخاض بدمنة ... وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر
وياليت لى بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومى ذاهب السمع والبصر
أدين بما دانوا به من شريعة ... وقد يحبس العود الضجور على الدبر

قال جثامة : ثم بكى ، وبكيت معه ، حتى رأيت دموعه تجول على لحيته كأنها اللؤلؤ .

ثم سلمت عليه وانصرفت .

فلما قدمت على عمر ـ رضى الله عنه ـ سألنى عن هرقل ، وجبلة ، فقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها .

فقال : أو رأيت جبلة يشرب الخمر ؟

قلت : نعم

قال : أبعده الله ـ تعجل فانية اشتراها بباقية ، فما ربحت تجارته . فهل سرّح معك شيئا ؟

قلت : سرّح إلى حسان خمسمائة دينار وخمسة أثواب ديباج .

فقال : هاتها ،

وبعث إلى حسان فأقبل يقوده قائده ، حتى دنا فسلم ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إنى لأجد أرواح آل جفنة .

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : قد نزع الله ـ تبارك وتعالى ـ لك منه على رغم أنفه وأتاك بمعونة .

فانصرف حسان عنه وهو يقول :

إن ابن جفنة من بقية معشر لم يغذهم آباؤهم باللوم
لم ينسنى بالشام إذ هُوَ رَبُّها كلا ولا متنصرا بالروم
يعطى الجزيل ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المذموم
وأتيته يوما فقرب مجلسى وسقى فروّان من الخرطوم

فقال له رجل : أتذكر قوما كانوا ملوكا فأبادهم الله وأفناهم ؟

فقال حسان : ممن الرجل ؟

قال : مزنى

قال : أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لطوقتك طوق الحمامة[٢٢٧]

ثم التفت حسان الى جثامة وسأله عما قال له جبلة .

قال جثامة ـ : قال ـ أى جبلة ـ : إن وجدته حيا فادفعها إليه ، وإن وجدته ميتا فاطرح الثياب على قبره ، واشتر بهذه الدنانير بُدْناً فانحرها على قبره .

فقال حسان : ليتك وجدتنى ميتا ففعلت ذلك بى .

ثم ذكر أبو الفرج خبرا آخر يتمم ذلك الخبر الذى ذكرناه .

قال راويا عن عبد الله بن مسعدة الفزارى قال : وجهنى معاوية إلى ملك الروم ، فدخلت عليه ، فاذا عنده رجل على سرير من ذهب دون مجلسه ، فكلمنى بالعربية .

---

(٢٢٧) أى لهجوتك هجاء يبقى معك إلى الأبد

فقلت : من أنت يا عبد الله ؟

قال : أنا رجل غلب عليه الشقاء ، أنا جبلة بن الأيهم . إذا صرت إلى منزلى فالقنى .

قال عبد الله : فلما انصرف وانصرفت أتيته فى داره فإذا هو على شرابه وعنده قينتان تغنيانه بشعر حسان .

فلما فرغتا أقبل علىّ ، ثم قال : ما فعل حسان ؟

قلت : شيخ كبير قد عمى ، فدعا بألف دينار فدفعها إلىّ ، وقال : ادفعها إليه .

ثم قال : أترى صاحبك ـ يقصد معاوية ـ يفى لى إن خرجت إليه وعدت إلى الاسلام ؟

قلت : قل ما شئت أعرضه عليه .

قال : يعطينى الثَّنِيَّة فإنها كانت منازلنا ، وعشرين قرية من الغوطة . ويفرض لجماعتنا ، ويحسن جوائزنا .

قال عبد الله : قلت : أبلغه .

فلما قدمت على معاوية أبلغته فقال : وددت أنك أجبته إلى ما سأل فأجزته له .

وكتب له معاوية يعطيه ذلك فوجده قد مات .

قال عبد الله : وقدمت المدينة فدخلت مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقيت حسان ، فقلت : يا أبا الوليد ، صديقك جبلة يقرأ عليك السلام .

فقال حسان : هات ما معك ؟

قلت : وما أعلمك أن معى شيئا ؟

قال : ما أرسل إلىَّ بالسلام قط إلا ومعه شىء .

فدفع عبد الله إليه المال[228]

ونعود بعد هذا الاستطراد القصير إلى الحديث عن رسائل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأثرها العظيم فى نشر دعوة الإسلام .



---

(228) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى حـ ١٤ صـ ٣ ومابعدها

دعوة الإسلام تنتشر

- كيف تهيأ الجو لفتح مكة ؟
- النبي - صلى الله عليه وسلم - ينجح في دعوته .
- قريش تنقض العهد .
- أبو سفيان يحاول تجديد العهد .
- دعوة الإسلام تنتشر .

نجاح النبى فى تبليغ دعوته

قدمنا فيما سبق صورة لمكاتبات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ملوك العالم وأمرائه ، منهم ما هو عربى ، ومنهم ما هو غير عربى .

وهناك كتب أخرى لم نذكرها اكتفاء بما قدمنا .

وذلك كله يشهد بأن رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بلغت إلى أسماع العالم المحيط به فى ذلك الوقت .

وقد ظل ـ صلى الله عليه وسلم ـ طول حياته دائبا على تبليغ رسالة ربه التى أرسل من أجلها ، ولم يأل جهدا فى ذلك ، وكان لايكتفى بإرسال الرسول إلى من يرسله إليه ليبلغه الدعوة وكفى ، فإن ذلك فعل من يريد أن يبرىء ذمته فقط . ولكنه كان يجتهد أن يكون لهذا الابلاغ أثره الملموس ، ملتمسا فى ذلك كافة الوسائل الممكنة ، ومختلف الفرص المتاحة . . وقد كان لكل ذلك أثره العظيم فى انتشار دعوة الإسلام .

لقد مكث ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة وعشرين عاما بعد النبوة ، لم يهدأ ولم يسترح ، وقد أشهد المسلمين جميعا على أنه بلغ الدعوة ولم يقصر فى ذلك ، فقد بلّغها بمختلف وسائل التبليغ ، بلغها بالاتصال الشخصى ، والعرض الجماعى ، وفى السفر والحضر ، وبنفسه وأتباعه وبالمشافهة والخطاب ، ثم عمم الأمر على أمته جميعا بأن عليهم واجب الإبلاغ عنه ، حتى لايبقى إنسان من البشر إلا وقد بلغته الدعوة ، وانظر إلى نتائج هذا كله تجد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا والجزيرة العربية كلها مستجيبة لأمر الله ـ تعالى ، وأكبر الدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة . . . . ولم يمض عصر الخلفاء الراشدين إلا وكان أكثر العالم

المعروف وقتذاك قد بلغته الدعوة ، فمن مستجيب ، ومن معرض قامت عليه الحجة فأصر على الكفر عنادا . . وهذا الحماس المنقطع النظير فى تبليغ الدعوة لايمكن أن يكون إلا وليد اقتناع بصدق الدعوة والداعى ، وما كان الداعى ليعطى هذا الحماس لأتباعه لو لم يكن هو فى أعلى مقامات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسئولية أمام الله .

« إن تاريخ العالم كله لايقص علينا أن أحدا قد استوعبت دعوته الآخرين فى حياته كما حدث لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى لم يمت إلا وعشرات الألوف من أتباعه يحفظون القرآن الكريم ويحفظون من أحاديثه الكثير . . . . » ثم حفظت نصوص تعاليمه حرفيا لكل الأجيال الآتية بعد ، لأنها كلها مكلفة باتباعه ، ومحاسبة أمام الله إن لم تفعل ذلك . .

« وها أنت ترى الآن الدعاة إلى الإسلام على صراط الله منتشرين فى العالم كله . . . لقد قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمهمة التبليغ حق القيام ، وكما رأينا فإن فى كل موقف من مواقفه ما يجعل كل فرد من أفراد البشر على يقين كامل ـ لو تدبر ذلك ـ بأن هذه المواقف ما كانت لتكون لولا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تفانى فى دعوى الرسالة عن الله[229]

كيف تهيأ الجو لفتح مكة ؟

بهذه الكتب التى توجهت إلى مشاريق الأرض ومغاربها تفتحت أذهان الناس فى كل مكان للإسلام . .

ولكن أم القرى ، ومهد الدعوة التى انبعثت منها ما زالت على كفرها . .

---

(٢٢٩) الرسول لسعيد حوا جـ ١ صـ ١١٥

ومن غير المعقول أن يُقْبِل ناس فى خارج الجزيرة على الاسلام ويبقى أحق الناس بهذا الدين بعيدين عنه ..

إذن فلابد من أن تمهد الإدارة الإلهية الطريق لفتح مكة البلد الحرام ، ومقر بيت الله الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

ولكن كيف ذلك ومعاهدة الحديبية قائمة ، والمسلمون لايمكن أن ينقضوا العهد ، ودينهم يأمرهم بالوفاء .. قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ ﴾ (٢٣٠)

وقال :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١ ﴾ (٢٣١)

ولكن إرادة الحق سبحانه وتعالى شاءت أن تكون قريش هى التى تنقض العهد بينها وبين المسلمين ، وكانت قريش فى ذلك كالساعى إلى حتفه بظلفه والباحث عن مصرعه بنفسه ..

كيف نقضت قريش العهد ؟

كان من بين بنود العهد الذى أبرم بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقريش فى الحديبية : أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه

---

(٢٣٠) المائدة ١

(٢٣١) النحل ٩١

فدخلت خزاعة فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودخل بنو بكر فى عهد قريش .

وبذلك أصبحت خزاعة حليفة للمسلمين ، وبكر حليفة للمشركين . .

وكان بين هاتين القبيلتين عداء وثارات فى الجاهلية ، وجاء الإسلام فهادن بينهما فى هدنة غير رسمية ، بمعنى أن الناس انشغلوا بقضية الإسلام وأحداثه ونسوا خلافاتهم مؤقتا ، وإن كانت العداوة ما تزال باقية .

محالفة الخزاعيين قديمة

وكان الخزاعيون حلفاء لعبد المطلب بن هاشم جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يناصرونه على عمه نوفل بن عبد مناف ـ فى الخلاف الذى نشب بينهما . . وقصة هذا الخلاف كما يذكرها الرواة هى :

حين مات المطلب بن عبد مناف وثب نوفل أخوه على أملاك وساحات كانت لعبد المطلب ابن أخيه فوضع يده عليها . . وكأنه أراد بذلك أن يحول بينه وبين القيام بواجب الرفادة والسقاية الذى هيأ نفسه له ، فأراد عبد المطلب الاستنصار بقومه فرفضوا التدخل بينه وبين عمه ، فكتب إلى أخواله بنى النجار لأن أمه منهم ، فجاءه سبعون راكبا ، فدخلوا على نوفل وقالوا له : وحق هذا البيت لتردن على ابن أختنا ما أخذت منه وإلا قتلناك . فرد ما أخذه منه عليه .

ثم حالف عبد المطلب خزاعة حين رأى أن نوفلا حالف بنى أخيه عبد شمس . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم قصة هذا الحلف ، بعد أن اطلع عليه حين استحضره بنو خزاعة له ، وقرأه عليه أبى بن كعب فى الحديبية . .

وكانت صورة هذه المحالفة هى : ـ

« باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة ، إذ قدم عليه سرواتهم وأهل الرأى منهم ، غائبهم يقر بما قضى عليه شاهدهم ، أن بيننا وبينكم عهد الله وميثاقه وما لاينسى أبدا ، اليد واحدة ، والنصر واحد ، ما أشرق ثبير وثبت حرا مكانه وما بل بحر صوفة »(٢٣٢)

وفى رواية أخرى عبارات أصرح فى النصرة والمؤازرة بين المتحالفين مثل : فعلى عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب فى شرق أو غرب ، أو حزن أو سهل(٢٣٣)

وقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبنى خزاعة وقتئذ : ما أعرفنى بحقكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الحلف . .

فهو يذكر لهم مكانهم من جده عبد المطلب ومؤازرتهم له . .

قريش تنقض العهد

روى الواقدى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صبيحة نقض قريش عهدها وذلك حين نصرت بكرًا على خزاعة ـ وهو فى المدينة وهم فى مكة ـ قال لعائشة ـ رضى الله عنها ـ : لقد حدث يا عائشة أمر .

فقالت : أترى قريشا تجترىء على نقض العهد الذى بينك وبينهم ، وقد بلغ منهم الجهد كل مبلغ . . . ؟

فقال : ينقضون العهد لأمر يريده الله .

قالت : يا رسول الله ، خير ؟

---

(٢٣٢) ثبير ، وحرا : جبلان ، وفى التعبير كناية عن استمرار الحلف والعهد

(٢٣٣) السيرة الحلبية حـ ٣ صـ ٤

قال : خير إن شاء الله .

أما كيف نقضت قريش العهد فإليك ما يأتى :

فى أثناء الهدنة ـ هدنة الحديبية ـ خرج نوفل بن معاوية وهو من بنى بكر فى جماعة من بنى الدِّيل أو الدُّئل[٢٣٤] ، حتى بيَّت خزاعة ، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له : الوتير ، فأصاب منهم رجلا ، يقال له مُنَبِّه

وكان هذا الرجل مفئودا ـ ضعيف الفؤاد ـ[٢٣٥] خرج مع رجل من قومه يقال له : تميم . وأدرك منبه الخطر لما رأى نوفلا ومن معه . .

فقال منبه لتميم : يا تميم ، انج بنفسك ، فوالله إنى لميت قتلونى أو تركونى ، لقد انْبَتَّ فؤادى ، أى تقطع ـ

فأدركوا مُنبِّها وهو الرجل المريض ، فقتلوه ، وأفلت تميم .

وجمعت خزاعة رجالها بسرعة لترد العدوان عن نفسها ، ومازالوا يقتتلون مع بنى بكر حتى دخلوا الحرم .

وقالت بكر لقائدها نوفل بن معاوية وهو من بنى الدئل : يانوفل ، إنا دخلنا الحرم ، إلهك إلهك .

فقال : لا إله له اليوم ، يابنى بكر أصيبوا ثأركم ، إنكم تَسْرِقون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

وظاهرت قريش يومئذ بنى بكر على خزاعة ، فأمدتها بالسلاح ، بل إن بعضهم قاتل ليلا معهم ، ومن هؤلاء صفوان بن أمية ، وشيبة بن عثمان ، وسهيل بن عمرو وغيرهم . .[٢٣٦]

---

(٢٣٤) ورد اللفظ فى هذه القبيلة بالياء مع كسر الدال ، وبالهمزة المكسورة مع ضم الدال ، فإذا نسبت إلى الأخير فتحت الهمزة فقلت : دُؤَلى

(٢٣٥) المفئود المريض بالفؤاد أى القلب ، كما يقال : مصدور : مريض بالصدر ، وممعود : مريض بالمعدة

(٢٣٦)سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ٤ ، المواهب اللدينة جـ ٢ صـ ٢٩٠

وهناك سبب غير هذا آشار اليه بعض الرواة وهو : أن شخصا من بنى بكر هجا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصار يتغنى بهجائه ، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه ، فثار الشر بين الحيين لما كان بينهما من العداوة ، فاستنجدت بكر بأشراف قريش فأعانوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، فبيتوا لهم بغتة وهم آمنون فقتلوا منهم عشرين أو ثلاثة وعشرين . ولازالوا بهم حتى ألجأوهم الى دار بديل بن ورقاء الخزاعى بمكة .

وظنت قريش أن المسلمين لن يفطنوا لهذا الأمر ، وأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن يبلغه الخبر . وإن بلغه مقتل الخزاعيين فلن يبلغه مبلغ مظاهرة قريش لبنى بكر ولامقاتلة من قاتل من قريش معهم .

ولكنهم جهلوا أن الله قد أطلع نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ماحدث . .

وسرعان ماأدركت قريش أنها أخطأت ، وأنها نقضت بيدها ماكانت قد أبرمت من عهد . .

وفزع الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم ، فقال أبو سفيان : هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه ، وإنه لشر . والله لسوف يغزونا محمد ، ولقد حدثتنى هند بنت عتبة ـ زوجته ـ أنها رأت رؤيا كرهتها . . . . رأت كأن دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة . .

قريش تتشاور فى أمرها :

واجتمعت قريش لتتدبر عاقبة أمرها وتنظر فيما يترتب على ذلك من مخاطر لتحترز عنها ، بعد أن تيقنت أن ماحدث يسمح للمسلمين بأن يدخلوا مكة بعد ان نقضت قريش عهدها معهم .

وأخذوا يتلاومون ، ولكن ماذا يجدى التلاوم ؟

قال أحدهم : إن محمدا غازينا ، لاشك فى ذلك .

فقال بن أبى سرح : إنه لايغزوكم حتى يخيركم بين خصال كلها أهون من غزوه .

قالوا : ماهى ؟

قال : يرسل إليكم أن تدوا[٢٣٧] قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلا ، أو تبرءوا من حلف بنى بكر الذين اعتدوا على الخزاعيين ، أو ينبذ إليكم على سواء[٢٣٨] .

فقال سهيل بن عمرو : نبرأ من خلفهم أسهل .

وقال شيبة : ندى القتلى أهون

وقال قرطة بن عمرو : لاندى ، ولانبرأ ، ولكنا ننتبذ إليه على سواء ـ وتركهم أبو سفيان حتى انتهوا من كلامهم ، ثم قال : ليس كل هذا بشيء . .

والرأى الأصوب هو جحد هذا الأمر ، والتبرؤ من أن تكون قريش قد دخلت فى نقض عهد أو قطع مدة ، وأن ماحدث إنما هو من فعل قوم على غير رضا منا ولامشورة لنا ، فما علينا ؟

فقالوا جميعا : هذا الرأى ، ولارأى غيره . .

واتفقوا على ذلك . . ووكلوا أبا سفيان فى التحدث عنهم بهذا .

خزاعة تفزع إلى الرسول

ولكن خزاعة لم تسكت على هذا الأمر ، فتوجه ركب منهم برئاسة عمرو بن سالم إلى المدينة .

قالت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ـ رضى الله عنها : بات عندى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة ، فقام يتوضأ للصلاة فسمعته يقول وهو يتوضأ : لبيك ، لبيك ، لبيك ـ ثلاثا ـ نُصرت ، نُصرت ، نُصرت ـ ثلاثا .

فقالت : يارسول الله سمعتك تقول كذا وكذا وكأنك تكلم إنسانا ، فهل كان معك أحد ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا راجز بنى كعب يستصرخنى ، ويزعم أن قريشا أعانت عليهم بنى بكر . .

---

(٢٣٧) تدوا القتلى : تدفعوا دية القتل

(٢٣٨) يعنى نقض العهد الذى بينكم دينه

قالت ميمونة : فأقمنا ثلاثا بعد ذلك ، وفى اليوم الثالث صلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصبح فى الناس ، فاذا بعمرو بن سالم الخزاعى قد أقبل فى ركبه الذى يضم أربعين راكبا ، فوقف أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس فى المسجد بين الناس ، وجعل يقول :

يارب إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا[239]
فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا[240]
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفا وجهه تربدا[241]
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لى فى كداء رصَّدا[242]
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هُجدا وقتلونا ركعا وسجدا

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نصرت ياعمرو بن سالم . .

ثم عرضت سحابة فى السماء ، نظر اليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب . .

وأنهى إليه بنو خزاعة ـ وكان فيهم بديل بن ورقاء ـ الخبر كله جملة وتفصيلا . .

وطلب اليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتمان أنهم جاءوه . . وطمأنهم ، فعادوا قافلين إلى مكة . .

أبو سفيان فى طريقه إلى المدينة :

وكما أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقدوم بنى خزاعة قبل أن يجيئوا،

---

(٢٣٩) الأتلد: القديم ، وناشد : طالب ومذكر .

(٢٤٠) أعتدا : حاضرا

(٢٤١) تجرد : تروى هذه الكلمة بالجيم ومعناها : تهيأ ، وتروى بالحاء ومعناها : غضب وثار

(٢٤٢) كداء : موضع بمكة ، ورصد : جمع راصد

كذلك أخبر بقدوم أبي سفيان . . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة .

وهذا ماحدث بالفعل . .

فبعد أن مضى وفد بني خزاعة كان أبو سفيان يشبد رحاله فى طريقه إلى المدينة .

وفى الطريق تقابل الوفدان . أبو سفيان فى طريقه الى المدينة ، وبديل بن ورقاء ومن معه من الخزاعيين فى طريقهم الى مكة .

وقال أبو سفيان لبديل : من أين أقبلت يابديل ؟

فقال بديل : تسيرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى .

قال أبو سفيان : أوما أتيت محمدا ؟

قال بديل : لا

فلما سار بديل الى مكة . . قال أبو سفيان لمن معه : لئن كان بديل قد جاء المدينة لقد علف راحلته بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد كان بديل عند محمد

وكانت قد مضت فترة طويلة لم ير فيها أبو سفيان ابنته رملة ـ أم حبيبة ـ زوجة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى هاجرت الى الحبشة مع زوجها الذى توفى هناك ، وأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى النجاشي يوكله عنه فى أن يزوجه منها ، وقدمت من الحبشة إلى المدينة زوجة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظن أبو سفيان أنه بواسطة ابنته يستطيع ان يتوصل إلى ما يريد عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وماظن أن قرابة النسب لاتغنى إلا إذا عضدتها قرابة الإيمان . .

ودخل أبو سفيان على ابنته . ولكنه لم يجد ذلك الترحيب الذى يكون عادة بين الابنة وأبيها الذى لم تره من سنين . .

إنها لاتعرفه الآن ، وكيف تعرف زعيم قريش المعارضين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

وسكت أبو سفيان على مضض ، وأقبل ليجلس على فراش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسرعت بطيه عنه .

فقال : يابنية : ماأدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟

قالت : بل هو فراش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاينبغى لمشرك أن يجلس عليه . .

وسكت أبو سفيان على مضض ، وأدرك أن وسيلته هذه لن يأتى عن طريقها شيء مما كان يأمله . . .

هذا أول باب أغلق فى وجهه . .

ولم يجد بدا من الانصراف . . فانصرف بعد أن قال لابنته : والله لقد أصابك يابنية بعدى شر . .

لعلها كلمة أراد أن يسرى بها عن نفسه أويشفى بها غيظه . . ولكن الواقع يكذبه تماما ، فما أصاب ابنته بعده إلا كل خير . .

ومضى لتوه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأفضى له بحاجته التى جاء من أجلها . . ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقبل منه . . فازداد يأسه ـ فمضى إلى أبى بكر ، فكلمه ورجاه أن يكلم له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أن يوثق العهد ويمد الأجل . . فقال له أبو بكر : ماأنا بفاعل . .

وازداد اليأس عنده ـ ولكنه قال : لعلى أجد عند ابن الخطاب فرجة من الأمل .

فانطلق إلى عمر بن الخطاب . فقال له عمر ـ رضى الله عنه ـ : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . . ! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . . وضاع هذا الأمل أيضا من أبى سفيان . .

فأخذ طريقه الى بيت على بن أبى طالب وعنده فاطمة زوجه ـ ابنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعها ابنها الحسن ـ رضى الله عنهم ـ وكان غلاما يدب بين يديها .

فقال أبو سفيان : ياعلى ، إنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة ولاينبغى أن أرجع كما جئت فاشفع لى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال على : ويحك ياأبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمر ما نستطيع أن تكلمه فيه .

فالتفت أبو سفيان الى فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فقال : يابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟

فقالت : والله مابلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس ، ومايُجِير أحد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال أبو سفيان : ياأبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى .

فقال على : والله ماأعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك .

قال أبو سفيان : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ . .

قال على : لا والله ماأظنه ، ولكنى لاأجد لك غير ذلك . .

جلت قدرة الله ، التى أخضعت كبرياء زعيم قريش الذى سول له كبرياؤه ذات يوم أن يقول يوم أحد : اعل هبل ، لنا العزى ، ولاعزى لكم . . أين هبل الآن منك يازعيم قريش وأين العزى التى تزعم نصرتها ؟

لقد بلغ بك الحال أن أصبحت تُرَدُّ من باب الى باب وحتى أوشكت أن تأخذ بتلابيب طفل صغير ليجيرك عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد أغلقت الأبواب فى وجهك ، وضاقت منافذ الرجاء أمامك وأصبح صدرك ضيقا حرجا . .

أما آن لك أن تدرك أن العزة فى الإيمان ، وأن القوة فى التمسك بمن فى يده الحول والقوة ؟

ثم مضى أبو سفيان إلى المسجد ـ كما قال علىّ ـ فقال : يأيها الناس إنى قد أجرت بين الناس . .

وركب بعيره ومضى فى طريقه إلى مكة . . .

فهرس المجلد الثالث عشر

انتهى المجلد الثالث عشر
ويليه بمشيئة الله المجلد الرابع عشر